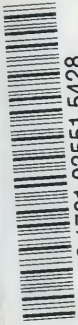
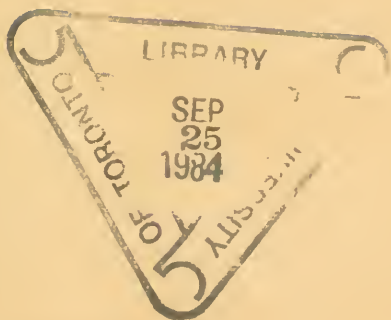


3 1761 03551 5428





LIBRARY

SEP
25
1984

UNIVERSITY
OF TORONTO

TORONTO

تفريظ الكتاب

ما تنسج الأيدي يبدي وإنما يبقى لنا ما تنسج الأفلام
 الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين
 وبعد فاني تصنعت هذا الكتاب بل العجب العجيب الذي نسبت للشيخ علم
 الدين روابيه وأسندت للسامح الإنكليزي حكايته فوجدته نزهة للناضر وسلوة
 للخاطر فيه للقلوب ارتياح وللخواطر نشاط وإنشراح تعرب مبانیه عن لطف
 معانيه وتفسح روائع الفاظه الرائفة عن بدائع مضامينه النافقة ويشهد لمولفه
 بعلو المقدار ولما صنفه بحسن الاختيار جمع فيه من غرائب الفنون ونفائض
 الجد والمجون الضب والنون وقرن الى اسنى المقاصد اشرف المطالب فصح
 انه المرغوب لكل طالب اظهر فيه ما خفي من اسرار الصنائع وكشف عن
 وجه مخدرات العلوم البراقع واطاف الى ذلك من حكم المحكماء ما اغنائه
 الندماء. وشحه بلطائف النوادر وما تفردت به الأواخر واظهرته في هذا
 الدور الاخر فهو مخترع لجميع المخترعات جامع وبديع في بيان معاني
 المبتدعات نافع يتنقل من فصل الى ضد وبحكم الوصل بها ابداه من عند
 فكان مولفه الفضال يقول فيه بلسان الحال

تصدت في انعام فكري لجمعه فجاه كتابا في البها لا بشارك
 وكنت بحمد الله فوه موقفا فإسمي علي في الانام مبارك
 فله در من انشاه وبطراز احسن والاحسان وشاه فانه اجاد وسلك
 طريق السداد وبلغ به ما فوق المراد بلغه الله تعالى امانيه وكبت حاسد
 وشانيه ولا زال متواصل البقا دائم الارثقا بهجة لليااليه وابامه بزين الوجود
 بانثار افلامه مغنما للثناء الجميل والاجر الجزيل بجرمة سيد الانام الذي
 يحسن بذكره البدء والختام

وكتبه الفقير المعترف بالنقص تراب اقدام العلماء عبد المجليل بن
 عبد السلام زاده المدني في اواسط شعبان المعظم سنة اربع وتسعين ومائتين
 والى بالمحرسة حامدا مصليا

المكاتبه	الرابعة عشر	٢٢.
الملاحه	الخامسة عشر	٢٢٧
التعلم والتعليم	السادسة عشر	٢٤١
البحر وعجائبه	السابعة عشر	٢٥٨
البراكين	الثامنة عشر	٢٨٥
شذور	التاسعة عشر	٢٠٢
العرب	العشرون	٢٢١
كتاب برهان الدين	الحادية والعشرون	٢٤٧
برهان الدين وصاحب (تتمه من الكتاب)	الثانية والعشرون	٢٥٢
التاريخ (تتمه من الكتاب)	الثالثة والعشرون	٢٦٢
العبادات (تتمه من الكتاب)	الرابعة والعشرون	٢٦٩
الاجتماع (تتمه من الكتاب)	الخامسة والعشرون	٢٧٦
خاتم كتاب برهان الدين	السادسة والعشرون	٢٨٢



فهرست الجزء الأول

من كتاب

علم الدين



صفحة	المسامرة	في
٠٠٣		مقدمة الكتاب
٠٠٦	الاولى	السنفر
٠٢٢	الثانية	السنفر والعودة
٠٢٨	الثالثة	الزواج
٠٤١	الرابعة	العيلة
٠٤٤	الخامسة	محاورة
٠٦٩	السادسة	الساخ انكليزي
٠٨٨	السابعة	المكة الحديدية
١٢٢	الثامنة	طنطا
١٤٩	التاسعة	الموالد والاعياد والمواسم
١٦٤	العاشر	شنى
١٨٥	الحادية عشر	الخانات واللوكندات
١٩٩	الثانية عشر	النساء
٢١٥	الثالثة عشر	البوستة

ولقائه وارجو منه ان يقر لي الفاتحة بمقام الامامين لعل الله تعالى
يردنا سالمين بلغنا الله واياكم الامال وجمعنا في احسن
الاحوال امين والحمد لله رب العالمين

ثم انه ختم الجواب وظرفه واذا بالخواجا دخل عليه وسأله
عن الوالد فقال له ان عنده بعض فتور وقد اضطجع في فراشه
ليستريح فان شئت ذهبت اليه لانيه فمنعه عن ذلك وقال
اني متظره في حجرتي فاذا قام فاخبره فاجابه برهان الدين لذلك
ثم اراه ذلك الكتاب في ظرفه وقال له هذا كتاب سطرته الى
والدتي بمصر باذن والدي واريد ارساله اليها فارجوكم ان تفضل
بتوصيله الى البوسطة فقال حبا وكرامة واخذه وتكفل بتوصيله
وانصرف

انتهى الجزء الاول



الا ان انام كما رتبوا وقال لي الضرورات تبيح المحظورات واما
 الطعام فكان في الكثرة فوق المرام لاننا كنا ندعى للاكل في
 اليوم والليلة خمس مرّات وكانت الاطعمة حسنة نظيفة الا انها
 قليلة الملح والنضج فكانا نعافها لعدم اعنيادنا على مثلها في بلادنا
 وكان ائتمادنا في اغلب الاحيان بالمجن والزيتون والسّمك
 المعروف بالسردين واشباه ذلك وهكذا خبزهم لا يشبه خبزنا فلا
 ادري اهو من الحنطة ام غيرها ولو وجدنا سواه ما اكلناه وكثيراً
 ما سمعت والدي يقول لو علمت حال الخبز من قبل لتزودنا
 خبزاً غيره من الاسكندرية ولما رأى الانكليزي عدم رغبتنا صار
 يعيده لنا في النار ويشويه ويأتي لنا كل يوم بدجاجة فيذبحها
 والدي وانا اتولى طبخها بيدي واكثر لنا من المربيات
 فكانا نأتمم بها في بعض الاوقات وبالجملة فقد انتضت ايام
 السفر ولم يحصل لنا في السفينة ادنى ضرر والان وصلنا نغر
 مرسيليا وبعد ثلاثة ايام تقوم وتركب عربة السكة الحديد
 وتتوجه الى مدينة باريس وهي قاعدة بلاد الفرنسيين فاذا
 وصلنا الى هناك بعون الله ومشيئته سطرت لك خطاباً غير
 هذا اضمنه ما اراه وما اسمعه بعد الان ورجائي ان يدوم لي حسن
 رضاك في جميع المحال والاحوال فهو لي نهاية الامال وراس مال
 القبول والاقبال وارجوايضاً ان تبليغي اذكي التحيات الى اخواتي
 وعماتي واقبل يد خالي العزيز ادام الله بقاءه ويسر لي لقاءك

الارتفاع عن قامة الانسان بقدر مدّ الذراع وطولها طوله سواء
 بسواء وبها كوة لدخول النور والهواء ولكنها في غالب الاوقات
 متفولة خوفاً من دخول الماء وبكل قهرة فرش للجلوس والنوم
 على حسب عادة القوم وفيها اباريق وآنية معدة لما عساه يحصل
 من القيء وما يعترى الانسان في بعض الاوقات من الشئ
 ولكن القيء لم يحصل لنا الا قليلاً لان البحر مدة السفر كاد ان
 يكون ساكناً فلم يحصل لمركبنا اضطراب الا في اوقات قليلة
 فكنت ارقد وادفع ضرره بهذه الحيلة وانما حصل لوالدي مرتين
 وذلك في ابتداء الامر وكائنا خفيفتين وعند دخولنا السفينة
 وصعودنا على ظهر البحر شمننا له روائح مائية رديئة اعدمت منا
 شهوة الاكل فتركناه بالكلية الى ان قال لنا الانكليزي على وجه
 النصيحة بسبب ما يعلمه بالتجربة لكثرة اسفاره لا بد لراكب
 السفينة من الاكل ولو بتكلف لانه اذا كانت معدته خالية
 اصابه الدوار بسبب اضطراب السفينة وفترت قوته فالاولى
 للانسان ان يتحايل على ان يتناول من الطعام ما يقوي بدنه
 ليشتد ويقوى على حركة البحر واضطراب السفينة فامثلنا وفعلنا
 واسترحنا بذلك الى ان وصلنا وانما كانت القهرة تضايقنا وترتيب
 فراش النوم لا يوافقنا لاننا كنا ننام على شئ شبيه بالدرج على
 قدر الانسان لا يكاد يزيد عنه وكان محلي فوق محل، والذي
 وكنت اردت اولاً ان امتنع من ذلك فأبى والذي حفظه الله

المسامرة السادسة والعشرون

خنام كتاب برهان الدين

فهذا آخر ما القاه عليّ من هذه المسائل كتبه ليتنفع به
 اخوتي كما ذكرت وتعلمي درجة اجتهادي واشتغالي بما حررت
 وانا ارجوان لا تحرميني من وعظك واتحاي في بريق لفظك ولا
 تكتمني عني شيئاً من امركم فاني متشوق لجميع خبركم ونحن بفضل
 الله في صحة تامة مجتهدين في تعلم اللغة الانكليزية والذي مع
 صاحبه وانا مع صاحبي وفي بعض الاوقات احضر مع والذي
 بعض دروسه واتقل ما اجده في كراريسه واما الخواجا فانه
 رجل ذو لطف وادب لم يتغير عن اسلوبه لحظة ولم اسمع منه
 ما يخل بشرفنا لفظة ملتزماً معنا حسن السيرة ورأفته بنا لا توصف
 ومعاملته معنا قل في غيره ان تعرف لا يترك فرصة فيها سرورنا الا
 جابها ولا يعلم تغير طبعنا من خصلة الا اجنبها أحلّ والذي
 في رأيه وغرضه محل سنته وفرضه فشكر الله مسعاه ووقفه لطريق
 الصواب وهده وان سألت عن اقامتنا في السفينة فاقول ان
 القهرة التي كانت اعدت فيها لنا عبارة عن خزنة صغيرة تزيد في

المملكة واهلها وهذه الطائفة التي تقوم بامر المدافعة اما ان تكون
 عساكر مخصوصة معدة لهذا الامر مستعدة للسير والسفر الى كل
 جهة تؤمر بالمسير اليها فيكون لها علوفات ومرتبات بقدر الكفاية
 واما ان تكون رديفًا يطلب عند الاحتياج وليس لهم علوفة ولا
 مرتب وبعض هذه العساكر يكون في البر وبعضهم في السفن في
 البحر وتلجى البرية في ثقلبات احوالها الى القلاع والحصون
 الارضية وتلجى البحرية الى المينات المحصنة قال ولذلك تفاصيل
 شرحها يطول ولك الان في هذا القدر مقنع وكفاية وسنصل
 ان شاء الله بالتدرج للغاية



توزيع فروق ارتفاعاتها بواسطة أحواض تعمل في محلات تقاطعها
 واتصالها بغيرها (وهي المعروفة بالهويسات جمع هويس محرف
 حوض) ولانعدام بعض الحدود الطبيعية للأرض بسبب اختراع
 الطرق القاطعة لها نتج أعمال الحصون والقلاع لتمييز الحدود
 والفصل بين المتجاورين من الأمم وبعضهم ومع هذا فكانت الحدود
 الطبيعية أحسن فائدة لان بها يتم شروط الأمن والملكية وأحسن
 الحدود ما كان بالصحاري ثم ما كان بالأجر ثم ما كان بالجبال
 ثم الأنهر ولكن لما كانت تلك الحدود في الغالب لا تفي بتحصيل
 الأمن بين الأمم المختلفة اضطرت الناس إلى تكميلها بموانع صناعية
 فنشأ من ذلك اتخاذ الحصون لحصول هذا الغرض وهي قسماً
 ثابتة وغير ثابتة فالأولى هي الحصون البرية وتبنى بمصاريف كثيرة
 ومؤنة كبيرة وتكون على رؤس الأودية وسواحل البحار والأنهار
 ومحلات تقاطع الطرق وسائر المواضع التي ليس فيها موانع طبيعية
 أو فيها موانع غير كافية للحفظ وهذه الموانع سواء كانت صناعية
 أو طبيعية لا تفي بالغرض المطلوب إلا إذا استكملت شروطها من
 الاتصال ببعضها بحيث يكون بينها ارتباط يمنع العدو من الاستيلاء
 عليها من غير أن يكون عرضة للأسر والتلف والخطر والثانية
 أعني غير الثابتة هي السفن البحرية ثم كل من هذه الموانع الثابتة
 وغيرها لا تقوم بنفسها في صد العدو والحماية عن الدولة والإمة بل
 لا بد من طائفة من رجال الإمة يقومون عليها ويدافعون عن

ولا بد لكل دولة من ايرادٍ كافٍ لها وهو عبارة عن مجموع مقادير مقررة على الرعية للقيام بما يلزمها من النفقات وتكون هذه المقادير مضروبة على الاشخاص او على املاكهم وارضيتهم او على ما يتجرون فيه ويستعملونه وينضم اليه ما يحدث من بعض العوائد كالمكوس والجمارك ومتى كان ايراد الدولة غير كافٍ لما يلزمها من المصارف الضرورية او ما تريد استحداثه من الامور النافعة لعامة الرعية كاجراء الانهر وعمل القناطر استدان ما يلزم لذلك وقد كان الناس في مبادى احوالهم قبل اختلاط الامم واتصالهم متفرقين في بقاع الارض تسكن كل امة في جزيرة او قطعة من القارة محدودة بالجبال او بالانهر لا تختلط بغيرها الا عند بعض حروب تكون بينها وبين من يليها من الناس وكانت مساكن الناس في اول الامر متبعدة متفرقة ثم تضامت وتقاربت فحدث من ذلك الكفور والقرى والبلدان والمدن فكانوا غالباً على شواطئ الانهر والبحار وتارة في المواضع المرتفعة من الودية وفي النادر فوق الجبال وازدياد التمدن اتصلت المدن ببعضها بواسطة المسالك والطرق وكان غالب الطرق اولاً في المواضع المنخفضة من الودية للتوصل الى الجهات المشهورة ثم عملت طرق مقاطعة لها ولم تعمل الطرق الموازية للجبال الا اخيراً ولما اتسع التمدن وكثرت علائق الاجتماع ووجدت تلك الطرق غير كافية حدثت الخجان الصناعية القاطعة للانهر والجبال وغير القاطعة لها وصار

الميزان المنصوب بين الخليفة نصبه الرب وجعله له قيا وهو الملك
ولذا يقال لا ملك الا بالجند ولا جند الا بالمال ولا مال الا
بالخراج ولا خراج الا بالعمارة ولا عمارة الا بالعدل ولا عدل الا
باصلاح العمال ولا تصح العمال الا باستقامة الوزراء وراس الكلك
تفقد الملك احوال رعيته بنفسه واقتداره على تاديبها حتى يملكها
ولا تملكه وقد وضع في هذا المعنى دائرة جامعة لثاني كلمات حكيمية
سياسية ارتبط بعضها ببعض وارترد اعجازها على صدورها فلا يتعين
طرفها وهي هذه وقد رسمتها لك في ظهر الجواب لتخفظي صورتها
مع الورق الذي عندك في الدولاب

ثم قال لي بعد ذلك ان الحكومة تنقسم الى صورتين . الاولى
الحكومة الجمهورية وهي ان يكون الحكم مفوضاً لمجلس مركب من
اعضاء تنتخبهم الرعية لادارة امور المملكة تحت قوانين يلزمهم العمل
بها وعدم الخروج عنها . الثانية السلطنة والحكومة الملكية وهو ان
يكون زمام الحكم والتدبير والامر والنهي بيد شخص واحد وهو
الملك وهذه ايضا تنقسم الى قسمين مقيدة ومطلقة لانه اما ان
يكون الملك مقيداً بقوانين وشرائع لا يستطيع الخروج عنها الى
هوى نفسه وهي الحكومة الملكية المقيدة واما ان يكون غير مقيد بشي
من ذلك يحكم برايه ويتصرف بهوى نفسه فيكون . رايه شرعية
المملكة وحكمه قانونها وهي الحكومة الملكية المطلقة وتنقسم الادارة في
الحكومة الى ادارة دينية وادارة سياسية وادارة عسكرية وادارة مالية

لتتم حكمة الله تعالى في بقاءه وحفظ نوعه والألم تيسر له
 غذاؤه ولا المدافعة عن نفسه فيكون عرضة للخطر وفريسة للحيوانات
 وطعمة للطيور ويطل نوع البشر فاذا وجد التعاون حصل له
 القوت للغذاء والسلاح للمدافعة فظهر بما ذكر ان الاجتماع ضروري
 للنوع الانساني ثم اذا حصل هذا الاجتماع فلا بد لهم من وازع
 وراوع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان
 والظلم اذ ليس السلاح الذي جعل دافعاً للحيوانات العجم كافيًا
 لدفع عدوانهم على بعضهم لانه موجود عند جميعهم فحينئذ لا بد لهم
 من شيء اخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يتصور ان يكون
 من غير جنسهم لقصور مدارك جميع الحيوانات عن مداركهم فيتعين
 ان يكون واحداً منهم وان يكون له عليهم الغلبة والسلطان حتى
 يتمكن بذلك من كف القوي منهم عن الضعيف ويستخلص
 للعاجز من القادر ويتصف للمظلوم من الظالم فينكف شربعضهم
 عن بعض بعدله ويعم الأمن جميعهم تحت ظله وهذا هو معنى
 الملك فلا بد لهم منه ولا بد ايضاً ان يكون متميزاً عنهم بخواص
 حتى يقع التسليم له والقبول منه لينفذ حكمه فيهم وعلهم من غير
 انكار ولا تزيف ولكن لا يتم عز هذا الملك الاً بالشريعة والقيام
 لله بالطاعة والتصرف تحت امره ونهيه ولا قوام للشريعة الاً بالملك
 ولا عز للملك الاً بالرجال ولا قوام للرجال الاً بالمال ولا سبيل
 الى المال الاً بالعارة ولا سبيل للعارة الاً بالعدل والعدل هو

حَبًّا الى اعمال كثيرة كالزراعة والمحصاد والدرس الذي يخرج
الحب من غلاف السنبل وكل واحد من هذه يحتاج الى آلات
متعددة وصنائع كثيرة اكثر من الاولى ومن المستحيل ان توفي
قدرة الواحد بذلك كله او بعضه فحيثئذ لا بد من اجتماع القدر
الكثير من ابناء جنسه فيحصل بالتعاون قدر الكفاية لضعافهم
وكذلك يحتاج كل واحد في المدافعة عن نفسه الى الاستعانة بابناء
جنسه لان الله سبحانه وتعالى لما ركب الطباع في الحيوانات وقسم
القوى بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القوة
اكمل من حظ الانسان فقوة الفرس مثلاً اعظم من قوة الانسان
بكثير وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والفيل اضعاف قوته
ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوانات جعل لكل واحد منها
عضواً لدفع ما يصل اليه من تعدي غيره وجعل للانسان عوضاً
عن ذلك كله الفكر واليد فاليد مهينة للصنائع خادمة للفكر
والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب عن الجوارح المعدة في
جميع الحيوانات للدفاع كالرماح النائبة عن القرون الناطحة
والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة لكن قوة الواحد من البشر
لا تقاوم قوة الواحد من الحيوانات العجم لاسيما المفترسة فهو عاجز
عن مدافعتها وحده ولا تفي قدرته ايضاً باتخاذ الآلات المعدة
للمدافعة وحده مستقلاً بنفسه لكثرتها وكثرة الصنائع اللازمة
لاعمالها واستعمالها فلا بد له في ذلك كله من التعاون بابناء جنسه

المسامرة الخامسة والعشرون

الانسان وهياة الاجتماع

(تمة من الكتاب)

فقال نعم قد قدمنا القول على اقسام نوع الانسان وديانته
 بما انساق به القول الى هذا المقام والان تقول ان هذا النوع
 الانساني من طبعه حب الالفة والميل الى الجمعية ولذلك يقولون
 الانسان مدني بالطبع ابي لا بد له من الاجتماع الذي هو معنى
 المدنية في اصطلاحهم وبيان ذلك ان الله تعالى خلق الانسان
 وركبه على صورة لا بقاء له عليها الا بالغذاء وهذه الى التماسه
 بفطرته وتحصيله بما اودع فيه من فكره وقدرته الا ان قدرة الواحد
 من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته وغير وافية بما يلزم لمادة حياته
 فلو فرضنا اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الخنطة مثلاً فلا
 يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والخبز والطبخ وكل
 واحد من هذه الاعمال يحتاج الى مواعين كثيرة وآلات لانتم الا
 بكثير من اهل الصناعات كالحداد والنجار والفاخوري وغير ذلك
 ولو فرضنا انه يأكله حياً من غير علاج فهو ايضاً يحتاج في تحصيله

المحنة والامام يجب نصبه على المكلفين والامام الحق بعد رسول
 الله صلى الله عليه وسلم ابو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ولا تكفر
 احداً من اهل القبلة الا بما فيه نفي للصانع القادر العليم او شرك او
 انكار للنبوة او لما علم محيئه عليه السلام ضرورة او لمجمع عليه
 كاستحلال المحرمات واما ما عداه فالفائل به مبتدع غير كافر
 وهذه الملة الاسلامية اعمال بدنية واعمال قلبية وواجبات ومحرمات
 ومندوبات ومكروهات فالبدنية ترجع الى خمس خصال شهادة
 الا اله الا الله وان محمداً رسول الله واقامة الصلاة وائتداء
 الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله والقلبية مرجعها الاخلاص
 لله عز وجل في القول والعمل والواجب مثل ما ذكر من الاعمال
 ومثل اداء الامانات والانفاق على ما تلزم نفقته من الاهل والعيال
 والمحرم مثل الغش والغيبة والتميمة والحقد والحسد والاضرار
 بأحد في نفسه او عرضه او ماله الا بحجة والمندوب مثل اصطناع
 المعروف وانظار المعسر والمكروه مثل اخفاء عيب في سلعة لا يلزم
 به ردها ونحو ذلك فهذه نبذة اجمالية من احوال هذه الامة
 والتفصيل يحتاج الى التطويل واريده ان تعود الى تهيم ما بدأت
 من الكلام فما المعروف الا بالتام



ومنهم الجهمية اصحاب جهم بن صفوان القائلون بان العبد لا قدرة له اصلاً ولا مؤزرة ولا كاسبة وهو بمنزلة الجمادات فيما يوجد منها

الفرقة السابعة المشبهة شبهوا الله سبحانه بال مخلوقات
الفرقة الثامنة الناجية وهم اهل السنة والجماعة الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين على ما انا عليه واصحابي ومذهبهم خال عن بدع الفرق المتقدمة وقد اجمعوا على حدوث العالم ووجود الباري سبحانه وانه لا خالق سواه وانه قديم متصف بالعلم والقدرة وسائر صفات الجلال لا شبيه له ولا ضد ولا ند ولا يجل في شيء ولا يقوم بذاته حادث ليس في حيز ولا جهة ولا يصح عليه الحركة والانتقال ولا الجهل ولا شي من صفات النقص مرئي في الآخرة ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن غني لا يحتاج الى شيء ولا يجب عليه شيء ان اثار بفضله وان عاقب فبعده لا غرض لفعله ولا حاكم سواه لا يوصف فيما يفعل او يحكم بجور ولا ظلم وهو غير متبعض ولا له حد ولا نهاية وله الزيادة والنقصان في مخلوقاته والمعاد الجسماني حق وكذا المجازاة والمحاسبة والصراف والميزان وخلق الجنة والنار وخلود اهل الجنة فيها والكفار في النار ويجوز العفو عن المذنبين والشفاعة حق وبعثة الرسل بالمعجزات حق من آدم الى محمد عليهم الصلاة والسلام واهل بيعة الرضوان واهل بدر من اهل

وصف الله لا يشاركه فيه ذات ولا صفة وينفون الصفات
الزائدة على الذات ويقولون بان كلامه مخلوق محدث وبانه غير
مرئي في الاخرة الى غير ذلك

الفرقة الثانية الشيعة اي الذين شايعوا علياً رضي الله عنه
وكرم وجهه وقالوا انه الامام بعد رسول الله بالنص اما جلياً واما
خفياً واعتقدوا ان الامامة لا تخرج عنه وعن اولاده وان خرجت
فاما بظلم يكون من غيرهم او بنقبة منه ومن اولاده

الفرقة الثالثة الخوارج ومنهم الذين خرجوا على علي عند
التحكيم وكفروه فسموا المحكمة وهم اثنا عشر الف رجل قالوا من
نصب من قریش وغيرهم وعدل فهو امام ولم يوجبوا نصب الامام
وكفروا عثمان واكثر الصحابة ومرتكب الكبيرة

الفرقة الرابعة المرجئة لقبوا به لانهم يرجئون العمل عن
النية اي يؤخرونه في الرتبة عنها وعن الاعتقاد او لانهم يقولون
لا ينفع مع الايمان طاعة كما لا يضر مع الكفر معصية

الفرقة الخامسة التجارية اصحاب محمد بن الحسن النجار وهم
يوافقون اهل السنة في خلق الافعال وان العبد يكتسب فعله
ويوافقون المعتزلة في نفي الصفات الوجودية ونفي الروية وحدوث
الكلام

الفرقة السادسة الجبرية قالوا ان المعبود مجبور في افعاله

التويم وذلك كاختلافهم في موضع دفنه بمكة او المدينة او المقدس
حتى سمعوا ما روي عنه من ان الانبياء يدفنون حيث يموتون
فدفنوه بالمدينة وكاختلافهم في الامامة وما جرى في وقعة الجمل
وصفين ثم اختلافهم ايضا في بعض الاحكام الفرعية وكان
الخلاف يتدرج ويترق شيئا فشيئا الى اخر ايام الصحابة حتى ظهر
معد المجهني وغيلان الدمشقي ويونس الاسواري وخالفوا في
القدر واسناد جميع الاشياء الى تقدير الله ولم يزل الخلاف يتشعب
والآراء تتفرق حتى تفرق اهل الاسلام وارباب المقالات الى
ثلاث وسبعين فرقة كما ذكر وهي ترجع الى فرق كبيرة

الفرقة الاولى المعتزلة اصحاب واصل بن عطاء كان في مجلس
الحسن البصري فدخل رجل فقال للحسن يا امام الدين ظهر
في زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة (يعني جماعة من
الخوارج) وجماعة اخرى يرحئون الكبائر (يعني المرجئة) ويقولون
لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة فكيف تحكم
لنا ان نعتقد في ذلك فتفكر الحسن وقبل ان يجيب قال واصل
انا لا اقول ان صاحب الكبيرة مؤمن ولا كافر ثم قام الى اسطوانة
من اسطوانات المسجد واخذ يقرر على جماعة من اصحاب الحسن
ما اجاب به من ان مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر وثبت
له المنزلة بين المنزلتين فقال الحسن البصري قد اعتزل عنا واصل
فلذلك سمي هو واصحابه معتزلة وهم يقولون بان القدم اخص

مليوناً ويجيزون زواج القسيس ولا يقولون بالصور والتماثيل
 بخلاف فرقة الكنيسة الاولى وكذلك فرقة البروتستانية تنقسم الى
 مذهبين احدهما اللوثيري نسبة الى واضعه لوتير والثاني الكلفيني
 نسبة الى واضعه كلفين واهل المذهب الاول يقولون بحضور
 عيسى حقيقة في العشاء الرباني وهو عندهم عبارة عن خبز وبيذ
 يقدمها الكاهن للناس بعد التقديس ويقولون انهما يستحيلان الى
 جسد المسيح ودمه بل الى لاهوته ونفسه الناطقة واهل هذا
 المذهب يقولون تفاوت درجات القسس بخلاف اهل المذهب
 الثاني

الطائفة الثالثة المحمدية قال وانت اعلم بعقيدتهم واصول
 دينهم ومذاهبهم وفرقهم فلا ينبغي لي ان اشرحهم لثلك وانما احب
 ان اسمع منك ان نشطت شرح بعض امورهم فقلت نعم الملة
 المحمدية هي دين الاسلام وهي مبنية على التصديق بما جاء به
 نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقد افترقت وانقسمت كغيرها
 حسبما اخبر به صلى الله عليه وسلم الى ثلاث وسبعين فرقة منها
 الفرقة الناجية وهم الذين على ما كان عليه رسول الله واصحابه
 وقد كان المسلمون عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على عقيدة
 واحدة وطريقة واحدة الا من كان يبطن النفاق ويظهر الوفاق
 ثم نشأ الخلاف فيما بينهم اولاً في امور اجتهادية لا توجب ايماناً
 ولا كفرأ وكان غرضهم منها اقامة مراسم الدين وادامة مناهج الشرع

وحوانية وهم البراهمة باسيا ومن هذه الفرقة من يعتقد ان الاله عبارة عن متسع في الجو يجتمع فيه ارواح المخلوقات وفيه مجتمع اهل السعادة الذين تجردوا عن المادة وانهم ينزلون الى الارض في صورة بشرية لتطهير النوع البشري من الاوزار ويسمون هذه الارواح (بوضا) وعدد هذه الفرقة اكثر من مائتي مليون

الرابعة وان لم يتحقق لنا اعتقادها الا انها تميل الى تعظيم المادة وهي بعض سكان اسيا من جهة المشرق . فاما القسم الاول فينقسم الى ثلاث طوائف الاولى العبرانية وهذه لا تصدق الا بما جاء به موسى وانبياء بني اسرائيل ويتظرون المسيح وعدد هذه الطائفة قريب من اربعة ملايين وهي متفرقة في جميع بقاع الارض . الطائفة الثانية العيسوية يقولون بما انزل على موسى والانبياء وبما انزل على عيسى بن مريم وقد انقسمت هذه الطائفة الى فرقتين الاولى التابعون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية وعددهم قريب من مائتي مليون وهم باوروبا من جهة الشمال والثانية التابعون للكنيسة الرومية وهم باوروبا من جهة الشرق وعددهم ستون مليوناً تقريباً ولا فرق بين الكيستن الا في بعض عقائد دينية وكون البابا نائباً عن المسيح اولا وينقسم اتباع الكنيسة الرومانية المذكورة الى قسمين كاثوليكية ومعتقدم ان البابا هو رئيس الديانة فيعتقدون صدقه ويتقدون به في فعله وعددهم مائة واربعون مليوناً والثاني البروتسنتات وهؤلاء لا يقولون الا بما في الانجيل وعددهم ستون

المسامرة الرابعة والعشرون

العبادات

(نعمة من الكتاب)

وجميع افراد النوع البشري مائلون بالفطرة الى تعظيم الخالق سبحانه لكن منهم من استدل فاهتدى ووصل ومنهم من اخطأ طريق الصواب فضل وأضل ويتسم الخلق بحسب الاعتقاد الى قسمين وكل قسم تحته طوائف ومذاهب كثيرة .
القسم الأول من يقول ان الاله المعبود لا يكون الا واحداً في ذاته وفي صفاته وان العبادة لا تكون الا له
القسم الثاني من يقول بتعدد الآلهة وتحت هذا القسم فرق

متعددة

الأولى جعلت لبعض الكواكب تأثيراً فعبدوها وكان ذلك كثيراً في الأمم السالفة ولا يوجد الآن الا عند القليل
الثانية جعلت صفات الالهية لبعض مخلوقات اخر فعبدوها وهم المتمدنون من الامم السابقين وقد انقطع اثرهم بالكليّة
الثالثة تقول ان الاله يظهر في صور متعددة سماوية وبشرية

وجدوا في القارتين الغربيتين قبل وصول اهل اوربا الى هناك
 ثالثها الزنجي ويمتاز بشدة سواد البشرة وجعودة الشعر وسواده
 وقصره وانخفاض الجبهة ومقدم التحف وفطس الانف وعرض
 الخد واتساع الفم وضخامة الشفتين وبروز الفم على هيئة الخراطوم
 وبياض الاسنان ومنه اكثر سكان اواسط افريقية وجنوبها وهذه
 الاقسام في بعض الجهات قد امتزج بعضها ببعض وتنج من ذلك
 فروع عديدة يتعسر المحاقها باصوها والانسان وان شارك غيره
 من الحيوانات في كثير من الصفات الا انه اخنص بامور كثيرة
 منها حسن الصورة واعندال القامة والتسلط علي ما في الارض
 والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط
 به نطاق العبارة واعظم مميزة العلوم والادراكات بما ركب فيه
 من القوى المدركة التي بها يميز الحق من الباطل والحسن من
 القبيح فيعلم بافكاره جميع احتياجاته ويعبر عنها بالنطق فالتكلم
 حينئذ هو الآلة التي تسوق الجمعية البشرية الى الكمال وتتام
 الالفه وحسن الخصال



واليهود والسريان والتتار وهو في شمالي اوربا وأوسط آسيا
 يندرج في القسم الثاني حتى لا يكاد ينتسب عنه وقد انتسب الى
 قوقاس لان اهل تلك النواحي اي المجراكسة والكرج اجمل اهل
 الدنيا واكمل هذا الاسم في صفاته الخصوصيه القسم الثاني الاصفر
 ويعرف بالمغولي نسبة الى المغول وهو قسم من التتار ويقال انهم
 في الاصل من جبال التائي في شمال الصين وهذا القسم يمتاز
 بكونه اصفر البشرة مربع الخف مخروطي الجبهة عريض الوجه
 مفرطه ناتيء الخدين اسود العينين ضيقهما مع ميلها الى الجهبة
 الوحشية صغير الانف ابطسه خفيف اللحية اسود الشعر قليلة مع
 الحشونة وهو اقصر قامة من القسم الاول ومنه اهل الصين
 والهند وياپان وشمالي اسيا وشمالي بلاد المسكوب في اوربا وشمالي
 امريكا غير ان سكان امريكا المعروفين بالاسكيو لهم تعلق بالقسم
 الثالث حتى زعم البعض انهم نتاج اخلاط القسم الثاني والثالث
 القسم الثالث الاسود وهو يمتاز بسواد البشرة وله ثلاثة فروع
 اولها الملقب نسبة الى شبه جزيرة ملقا ويمتاز باللون الزيتوني
 وسواد الشعر وغزارته مع جعودة قليلة وضيق الراس وكبر الانف
 ومنه سكان ملقا وجزائر المحيط وجزيرة ماداغسقر ويقال انه
 فرع من القسم الثاني المتقدم ثانيا الاميركاني ويمتاز باللون النحاسي
 وسواد الشعر واسترساله وخفة اللحية وانخفاض الجبهة وارتفاع
 عظم الخد وطول القامة ومنه سكان امريكا الاصليون الذين

كالشبية والمحشيش البحري والقسم الثاني النباتات البزيرية وهي
 التي لها فلقة بزيرية كالمخنطة والنخل والذي علم من اصناف الحيوان
 قريب من مائة الف وقد قسمت الى اربعة اقسام القسم الاول
 الحيوانات الفقارية وهي التي لها هيكل عظمي كالانسان . القسم
 الثاني الحيوانات الرخوة وهي عديمة العظام من داخل ولها غطاء
 من الظاهر كالمحار . القسم الثالث الحيوانات المفضلية وهي مركبة
 من كثيرة متحركة على بعضها كالعنكبوت . الرابع الحيوانات الشعاعية
 وهي حيوانات تكون فيها قوة التركيب ضعيفة وهي تقرب من
 النباتات ولذلك تحسب واسطة بين الحيوان والنبات ولا يعلم
 لها من الحواس الا اللمس وذلك كالاسفنج فانه اذا وضعت عليه
 اليد وهو في البحر انتقبض وانكمش وتحت هذه الاقسام انواع كثيرة
 واشرف جميع هذه الانواع نوع الانسان لانه يعيش في جميع بقاع
 الارض فجميعها مسكنه ومحل سلطانه وهو وان كان نوعاً واحداً
 لكنه ينقسم ثلاثة اقسام الاول الابيض ويعرف بالتوقاسى نسبة
 الى قوقاس ويقال قوة قاف (كوه قاف) اي جبل قاف وهو
 جبل في بلاد المجر كس بين بحر الخزر والبحر الاسود وهذا القسم
 يمتاز ببياض اللون وحمرة الخد ورقة الانف وشمه وضيق الفم
 واستقامة الاسنان القواطع وحسن استدارة الخف ولين الشعر
 وطوله واسترساله وكثافة اللحية وعلو الجبهة ومنه سكان بلاد
 اوروبا ونسلم في امريكا وسكان غربي آسيا اي العرب والفرس

ذلك والمنخفض منها ينقسم ايضاً الى بحر وخليج وبحيرة وغير ذلك
 وسعة الارض اليابسة ١٢٦٦٢٩٩ ميريامتر مربع وسعة البحور
 ٢٨٥٢٠٥٨ ميريامتر فجميع الارض اليابسة لا تزيد عن ربع
 سعة البحور تقريباً ولكل من البحار والارض القارة تفصيلات
 وافسام لها اسماء واصطلاحات ستعلمها فيما بعد ان شاء الله تعالى
 ولا حاجة لنا الى الكلام عليها الآن وانما نقول ان الارض القارة
 كما ارتفعت عن البحر قد ارتفعت بعض جهاتها عن باقية فما
 ارتفع منها ان كان كثير الارتفاع فهو الجبل وان كان قليلاً
 الارتفاع فهي الهضبة ومتى اتصلت الجبال ببعضها وامتدت الى
 مسافات بعيدة قيل لها سلسلة جبال وقد يخرج من الجبل في
 بعض الجهات فروع تمتد الى انحاء مختلفة ويخرج من هذه
 الفروع فروع اخرى حتى تشغل الولاية بتمامها ولا بد لكل جبلين
 من وهدة بينهما اما صغيرة ويقال لها الشعب او كبيرة ويقال لها
 الوادي وفي هذه الوهاد تكون مجاري الانهر والمخجان فتسير منها
 حتى تنصب في البحار فنابع الانهر من الجبال ومصبها في البحار
 ويوجد على سطح الكرة نباتات وحيوانات منها ما يخص
 بجهة ومنها ما يوجد بسائر الجهات وهي تكثر كلما قربت من جهة
 خط الاستواء ونقل كلما قربت من القطبين والذي علم الى الان
 من اصناف النباتات قريب من ثمانين الفا وهي تنقسم الى قسمين
 الاول النباتات اللابزرية وهي نباتات عديمة الفلقة البزرية

وان لم يصلوا الى روية شيء منه البتة الا انهم بحثوا فيه وتكلموا عليه وتطلبوا معرفته بالفكر والنظر العقلي والاستدلال ببعض الامور الارضية كالماه الحارة النابعة من جوفها وجبال النار والزلازل وغيرها فقالوا ان ذلك القسم جميعه معدني شديد الحرارة ملتهب مائع واما الجزء السطحي فهو ايضا وان لم يتعمق الانسان فيه زيادة عن ستمائة متر الا انه علم تركيبه من المواد المقذوفة من افواه جبال النار المعروفة بالبراكين ومن تركيب طبقات الجبال الشامخة فالجبل الذي ارتفاعه ثمانية آلاف متر مثلا يدل على تركيب عمق من الارض بقدر ذلك الارتفاع وعلى اي حال فهذا الجزء السطحي من الكرة عبارة عن طبقات متوالية مختلفة التركيب والسلك والاتجاه وقد قسم علماء فن الجيولوجية (أي علم طبقات الارض) هذا الجزء من الكرة الى طبقات سموا كل طبقة منها باسم مخصوص وتفصيل ذلك في كتب الفن المذكور وانما الذي يلزمنا الان هو ان نعلم ان سطح الكرة ليس مستويا وان به محال مرتفعة عن الماء خارجة عنه وتسمى اليابسة والفتارة ومحلات منخفضة مغمورة بالماء وتسمى البحار وهذا الارتفاع والانخفاض اما لاسباب قوية اثرت في بعض اجزاء الارض فخفضتها واما اقمرة فعالة قذفت البعض الاخر فرفعته فحصل ما تراه من الارتفاع والانخفاض وعلى كل فالمرتفع من الارض اعني الفتارة هو المسكون وينقسم الى سهل وجبل وجزيرة وشبه جزيرة وغير

وبرهن على ذلك وما زال الناس مشتغلين بهذه المسألة حتى
 صار العلم بكون الارض كرة من قبيل العلوم الضرورية الآن
 فيها نوع انخساف من جهة قطبيها فهي كالبطيخة . وقطباها
 عبارة عن القطبين اللتين احداها بمنزلة عنق البطيخة
 والاخرى بمنزلة ما يقابله منها والدائرة العظمى التي تقسمها
 نصفين فيما بين القطبين تسمى خط الاستواء لكونها تحاذي
 الشمس في السنة مرتين فيستوي عند ذلك الليل والنهار
 وموقعها من الفراغ على بعد (١٥٢٨٨٨٢٥٠٠٠٠) ميريامتر
 من الشمس وتم دورتها حول الشمس في ثلث مائة وخمسة وستين
 يوماً وخمس ساعات وثمانى واربعين دقيقة وتسع عشرة ثانية
 وتم دورتها على نفسها في اربع وعشرين ساعة وقدر نصف المحيط
 الواصل بين قطبيها ٩٤٢ ٦٢٥٥ متراً . وقدر نصف قطر دائرة
 الاستواء ٦٢٧٦٨٥١ متراً ومساحتها ٥٠٩٨٨٥٧ ميريامتر
 مربع (والميريامتر) كلمة افرنكية معناها عشرة الاف متر وهي
 عبارة عن ٢٨٢٣ قصبه وحجمها ٦٠٨٢٦٢٤٠٠٠ ميريامترمكعب
 وتنقسم من المركز الى السطح بالنظر للمواد التي هي مركبة منها الى
 قسمين الاول القسم المركزي وهو ما قارب المركز نصف قطره
 (٥٦٠) ميريامتر والثاني القسم السطحي وهو القشرة الباقية وهي
 ما فوق القسم الاول الى ظاهر سطح الارض ويختلف سمكها من
 اثنين من الميريامتر الى اربعة منه فاما القسم الاول فان الناس

عليه من المعارف ولتاخذ في تلقيج افكار اخوتي بما يكون محمود
 العاقبة لها ولاولادها ان شاء الله تعالى فاني علمت انه ليس انفع
 من طرح بعض المعارف الاولية في اذهان الصغار فانه يكون
 كالبذر يلقي في الارض النقية يرحي ان تظل اشجاره وتجنبي باطراف
 الانامل، ثماره وما علي ان يطول المكتوب اذا اشتمل على اجل
 مرغوب ومطلوب

المسامرة الثالثة والعشرون
 الجغرافية والتاريخ
 (نعمة من الكتاب)

قال يعقوب يابني كان الناس في سالف الزمان يعتقدون
 في اكثر الامور خلاف ما هي عليه فمن ذلك امر الارض فان
 الناس كانوا يعتقدون انها قطعة بسيطة كالصحيفة ذات شكل
 مربع او مثلث وسمك بالغ ما بلغ الى ان جاء المحكيم المشهور
 ارسطو فقال ان الارض كسائر الكواكب على شكل الكرة

ما مرامك وبم يطيب مقامك فاطرق اطراق الحزين حتى سمعت
 من صدره بعض الالين ثم رفع راسه مصعداً انفاسه وقال
 الانسان مفتحن ولا عنب على الزمن فقد الجأتني الضرورة الى
 الاحتراف وترامت بي الحاجة فيما تراه من الاعنساء فليس لي
 امنية غير سكنى الارض القارة ولو قدرت ما اقمت بهذه المنازل
 الكارة القارة فان بلغت مقصودي بذلت في تربيتك مجهودي
 وارجوك ان تسأل حضرة الوالد ان يكلم صاحبه في امري واني
 ارغب الدخول في جملته والتكن من الاقامة بخدمته فوعده
 بذلك واقبلت عليه مستخرجاً بالسؤال مكنون ما لديه فبادر
 بالاجابة وقال ان شئت جعلنا اول مسامرة بيننا كلاماً اجمالياً
 من علم الجغرافيا فيما يتعلق بهذه الارض التي هي مسكننا يكون
 كالمقدمة المشوقة الى الاعنساء بتعرف تفاصيل ذلك العلم النفيس
 وعند بلوغ المقصود ان شاء الله تعالى تحصل على ما يلزم لك من
 الآلات التي تجعلك بالنظر فيها عند التعلم كأنك تنظر من
 مكانك الى جميع بقاع الارض وبجارها وانهارها وجبالها فظهرت
 الابتهاج بحسن نيته واثبتت على لطف اخلاقه وحسن سخيته
 واخذت القلم لاكتب ما يمليه لاتذكر ما سمعه منه واعيه فلم ينطق
 بكلمة الا اكتبها ورايت ان اثبت ذلك في هذا الكتاب الذي
 سطرته لكي ادخل السرور والاطمئنان على قلب اشفق الناس
 علي واميلهم لاىصال كل خير الي لي زيد سرور والدتي بما حصلت

فحين رأى ذلك مني اراد ان يذهب المحجل عني . فقال لا باس عليك فانه لم يهتد بنفسه احد وليس التقصير من قبلك . وانما اللوم والمعنة على من نُصبت له اعلام الهداية وهو ينظر فلم يذل عليها وبانت له غاية الرشد فلم يسلك بنفسه واتباعه اليها وعلم فوائد التربية فلم يطلبها واعطي كواسب الجوارح فلم يرسلها وظهرت له الفضائل فلم يكسبها من كافل ارتفق وساد الراحة وقعد به الكسل وهو يرى نجاحه وامير اخذ هتمته الاغفال واخمل ذكر مساعيه الاهاال وكل راع عن رعيته مسئول وكل طالب ماخذ الخيرات عليها مدلول

فقلت له نصحت فابلغت وسمعت فوعيت فلك الشكر على ما افدت واسأل الله ان يبلغني بك ما قصدت فلقد دلت طالباً ونهيت نائماً وعرفت مجهولاً وانلت مسئولاً وفتحت لي ابواب الطلب وشددت يدي منه باقوى سبب وتركتني انظر الامر بعين ما كنت انظر بها فلقد انشيت بمصر مدارس لتعليم الشبان اظن ان العهل جار فيها على ما وصفت ومسلوك بانائها في التعليم والتربية الطريق التي اوضحت

فقال ان صح ذلك فقد طابت اعمالهم وتساقت في رضاهم امالم واستحق ولانها الثناء الجميل واستفادوا من الملك الاعلى الجزاء الجزيل وانا ان شاء الله تعالى لا الو جهداً في ارشادك وتبليغك من المعرفة الى مرادك ان طاب مقامي وبلغت مرامي فقلت له

فهو يعسوب لكل فن والمفتاح لكل اثر حسن وغير حسن فناخذ
 منه ما يلزمنا فنعلم المدوح فخبه والمذموم فخبه فخبه فهو المنبع والاصل
 لاكتساب حلال الفضل والمحسن المانع من غوائل الجهل واهم
 شي يجب تدريسه بالمدارس والمكاتب لتبنيه ابناء الملة على صفات
 الكمال فيرغبون في اكتساب تلك الصفات ويجوزون بها اعلى
 الدرجات فيعلمون صفات الابطال وما حازوه من الشرف عند
 النزال لمحاماتهم عن اوطانهم ويطلعون على صفات الصالحين
 الذين اورثوا ملتهم ثمرات علمهم وعلمهم فيتعودون من الصغر على
 الاتصاف بصفاتهم والافتداء بافعالهم ولا يكفي ان تتعلم الاطفال
 كيفية النثر ونظم الشعر واصول الكلام بل الاهم من ذلك
 اكتسابهم حب الوطن وتمريزهم على ما سبق من حوادث الزمن
 حتى يكونوا مثلاً وقدوة ومن الغريب اننا نرى اغلب الخلق
 يرغبون في الاطلاع على سير مخترعة وخرافات واكاذيب ونحو
 ذلك من الاساليب ولا يعلمون لمن اشتهر من ابناء جنسهم اثراً
 ولا يروون عنه خبراً فنراهم يجهلون سير المشهورين من ابناء ملتهم
 ولا يعرفون نسبهم ولا حسبهم ويعتنون بمعرفة من مات من منذ
 آلاف سنين اكثر من اعنائهم بنسبة اقاربهم وجنسهم والمتصرف
 في امرهم ويرغبون في معرفة البلاد البعيدة ولا يعتنون بمعرفة
 ارضهم وارض المدينة القاطنين بها
 فنجلت من كلامه وتمنيت ان تكون تربيتي حسب مراده

يضعف قوة الملة ويضيع شهرتها ويجعلها تحت أسر غيرها فيجور
 عليها ويذلها واعلم يا ولدي ان فن التاريخ جم الفوائد عزيز الفرائد
 اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم في اخلاقهم والانباء في
 سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى يقتفي اثرهم من يروم الاقتداء
 بهم في احوالهم الا انه يحتاج الى ماخذ متعددة ومعارف متنوعة
 وحسن نظر وثبت يفيضان بصاحبهما الى الحق لان الاخبار اذا
 اعتمد فيها على مجرد النقل فرما لا يامن فيها من منزلة القدم ومنفعة
 علم التاريخ عامة للخاصة والعامة وهو مشير كل امير وامير كل
 مشير وسمير كل وزير وظهرير كل سمير اذا سئل عن خبر اجاب
 وابدى فيه العجب العجاب ترتاح به الارواح الفاضلة وتميل اليه
 النفوس الكاملة من الحكماء والاساطين والملوك والسلاطين وهو
 مرآة الزمان ولاخبار الماضين كالترجمان فكف فيه من حوادث
 وامثال به تنقف على ما كان عليه اباؤنا واجدادنا ومشاهير كل
 ارض وامة والحوادث التي مرت بين الامم وبعضها والفتن التي
 اوجبت انقلاب البقاع باهلها ونرى الامم واحوالها والامراء وافعالها
 والعلماء واقوالها وما مر على الخلق من خير فاجب تقدمهم وشهرتهم
 ومن شرف فاجب فقرهم وفاقتهم فلم يترك سيرة ملك الا احصاها
 ولا احوال رعية الا استقصاها فهو خزانة الحوادث كل احد ياخذ
 منه ما يلزم لصنعتة فياخذ منه المجاهد ما يلزم للجهاد والعالم ما
 يزيد به شرفه بين العباد وصاحب الحرفة ما يزيد الرغبة في صنعتة

من نهر او جعفر من بحر فقلت لا زلت ملاذا وهل هناك بحار
 غير هذا فتبسم متعجباً ونظر اليّ مستغرباً وقال كانك لم تقراء علم
 الجغرافية فقلت واي علم هذا فضحك وقال هو العلم بسطح الارض
 وهيئاتها في الطول والعرض وما فيها من البحار والمدائن والانهار
 وما اخضع به كل بقعة منها واديان اهلها وكيفية حكومتهم وما هم
 عليه من الاخلاق والاحوال وغيرها فقلت له لم اسمع بهذا الا
 منك ولم اروه الا عنك فقال كيف هذا مع ان العرب هم الذين
 دونوه واسسوه افتراهم الان تركوه ونسوه مع ان معرفته عند جميع
 اهل الاديان من اهم الواجبات على كل انسان اذ به يعلم ما على
 الكرة من المخلوقات ويقف على حتمية كثير من الكائنات وبدونه
 تكون معرفة التاريخ عسرة ثم قال فاذا يكون علم التاريخ عندكم
 مقفوداً فقلت له لا الا اننا لا نجعله من الامور الضرورية اللازمة
 بل نعهده من ضمن القصص والاخبار اذ ليس علماً يحتاج
 الى معلم فيمكن ان يقراه الانسان من نفسه فلما سمع ذلك مني
 عيس واعرض وطاطا راسه الى الارض وسكت ملياً ثم رفع راسه
 وقال الان علمت سر تهقر الملة الاسلامية وسبب ضعف اهل
 البلاد المشرقية وهو انها لما هجرت علم التاريخ بمدارسها زال من
 بين رجالها معرفة سير الماضين الذين كانوا سبباً في سطوتها وعظم
 بطشها وتمكن قوتها وحيث لا قوة للملة الا بقوة رجالها ولا تكمل
 قوة الرجال الا بالعلم كان ترك علم التاريخ وباقي العلوم مما

مصر والجهات الشرقية اخذت في تذكار ما نسيت فان اردت ان اعلمك لسان الانكليز وتعلمني اللسان العربي كان ذلك مامولي وغاية اربي فرغبت في ذلك لوجهين الاول ان يكون سميري فانسلي بما يتقله من سابق مشاهداته والثاني ان اتعلم اللغة الانكليزية من غير تكلف وما حملني على الميل اليه كون والدي مع صاحبه الانكليزي دائماً في محادثاتهم العلمية فلذلك قبلت قوله لما فيه من الفائدة لي وله

فصرت اعلمه ويعلمني واظن ما استفدته منه أكثر ما استفادته مني كما استرته وتيقنت ان ذلك سر دعاء والدي وبركة رضاها علي ولو ان كلام والدي فيه اكتفاء لكني كنت لا ادري الطريق الموصلة الى معرفة ما ارشدني اليه فعرفت من حين عرفت هذا الرجل لانه كشف لي عن امور كثيرة كنت اجهلها ومن عباراته المتنوعة وحسن لفظه اشتغلت بكتابة ما كان يلقيه وحفظه فوصلت الى درجة لم ادر مبلغها وكنت ملازماً له لا يفصل ذاتي من ذاته الاّ اداء ما عليه من خدماته فانقضت مدة البجر على احسن حال وهو باق معنا الى الان

فاتفق ان شاهدي ذات يوم وانا انظر الى البجر وتعجب من عظمته وقدره مدبره واذا به قد نبهني بيده وقال لي فيم اطلت الفكر فقلت له في عظم هذا البجر فقال لي ليس هذا هو البجر لانه وان كان عظيماً لكنه صغير جداً بالنسبة لغيره من البجر اذ هو كجذول

حين يكون الغيم او تهب الرياح فارى تلك الصور تمتزج مع بعضها
وتتعانق ومنها ما يعلو بعضه بعضاً فما سفلى يمر في جهة وما علا
يمر الى جهة اخرى وعند ذلك تسمع اصوات مختلفة كالحنين تارة
وكالانين تارة وكل هذه الحركات يتعدى اثرها الى السفينة فتارة
تتايل مع اللطف وتارة تتحرك بقوة وعنفة ولكون هذه اول سفرة
ركبت فيها البحر واول مشاهداتي لعجائب هذه الامور كنت لا التحول
من موضعي الاّ بندااء والدي اما لتعاطي الزاد او لقضاء الحاجة او
للرقاد وكنت اظن انه لو تركني وشاني لكنت اقضي الليل والنهار
في مشاهدة هذه الاثار فبينما انا اتامل في اسرار هذه الايات التي
لا يحيط بعلمها الاّ عالم الخفيات واذا برجل من ملاحى المركب
يقول لي بلغتي ما رايت في سفر البحر وما هذه العزلة عن الناس
فقلت له انها اسلم واشرف واحسن شيء واللطف اذ تجعل الافكار
متجهة الى التأمل في عظمة الخالق وقدرته وتعين الانسان على
معرفة بديع صنعته فمن اين لك بمعرفة لغتنا ولست من جهتنا
فأبن لي جليّ امرك واصدقني فقال اني تحصلت على علم العربية
باربع سنوات من عمري قضيتها في الاسر والعبودية عانيت فيها
انواع الاهوال من الذل والاهانة ومشاق الاحوال وسأشرح لك
قضيتي ان طالت معك صحبتي لكن نسيت الان اكثر ما علمته
لعدم المسامرة فيه مع اهله لان كثرة اسفارنا كانت لبلاد غير بلاد
العرب ومن وقت تحولي الى سفن الكومبانية المخصصة لجوب جهة

جملة تصلح ان تسمى عند المسافرين بالرحلة وجعلتها كسفينة آخذ
 منها ما يلزم واحرره لك وها انا اسرد عليك بعض ما نقلته عنه
 واستفدته منه وابدأ بذكر سبب معرفتي به وهو انه لما ازعمنا من
 الاسكندرية على الرحيل وصرنا بعيداً عن مينائها بنحو ميل نظرت
 الى الساحل والمدينة فوجدتها يصفران شيئاً فشيئاً كلما بعدنا
 وكنت لا استطيع صرف نظري عن هذه الجهة حيث انها مسط
 راسي حتى صرت لا اراها الا كנקطة سوداء في وسط ضباب او
 هلال شك في خلال سحب الى ان صرت لا انظر غير الماء
 والسحاب المسخر بين الارض والسماء فكنت ارفع نظري الى اعلى
 واتامل في قدرة الخالق ولا اعلم من شي شيئاً وكنت ارى السحاب
 تارة ينعدم وتارة يتقطع وتارة يكون متفرقاً ثم يتجمع وتارة ارى
 سحابة صفراء ذات نقط زرق وخضر حلت محل سحابة بيضاء وتارة
 كنت ارى على سطح البحر في آن واحد جملة منها في اشكال وصور
 والوان مختلفة تبهير النظر وكأنها تطوف حول اخرى ثم اراها حلت
 محل بعضها وتبادلت او اخذت في التناقص او تكاملت وبعد
 برهة من الزمن ينعدم ذلك كله كان لم يكن فكنت اقلب طرفي
 الى الافق من جميع جهاته واتبعه في استدارته واخلاف اشكاله
 وهيآته فارى الشمس ساطعة على وجه الماء لا يجلب نورها
 حاجب فعند ذلك ارى للماء الواناً لا حضر لها واذا كان البحر
 هادياً والريج في سكون رايت فيه من الصور والهيئات ما لا اراه

المسامرة الثانية والعشرون

برهان الدين وصاحبه

(تمة من الكتاب)

فصرت ارنع معه في رياض العلم واتمتع من فوائده بما لم
اجد عنه اعتياضاً فتشبتت بحبال وده وتمسكت وتعطرت بطيب
اخلاقه وتمسكت لانه فضلاً عن كونه يعلمني درسي في اللغة
الانكليزية قضيت معه ايام السفينة في مسامرات وجدت لها مزية
اذ كشف لي من الامور معامها وجلا عين فكري بعد عماها فتارة
كان يحدثني عن سابق اسفاره وتارة يطرفني بحكايات ونوادير وتارة
يتخفني بالفاظ كأمثال الجواهر وكنت قبل ذلك لا التفت لتنوع
اساليبه بل كان جل ميلي اليه لاجل التسلي به لكن رايت ان
جميع ما يحكيه لا يخلو من فوائده اذا كان السامع نبهاً فقلت في
نفسى لماذا لا اكتب ذلك عنه واحفظ ما اسمعه منه وكل كتاب
حررته لو اللذي يكون بعضه من ذلك والبعض من فكري لتعلم
ما علمت وتنف على قدر ما حفظت وتنتسلي بعباراتي عن روية
ذاتي فصرت لا اسمع منه شيئاً الا كتبتة حتى جمعت من ذلك

ان من استغنى بعقله زل ومن تكبر على الناس ذل ومن خالط
الاندال حقر ومن جالس العلماء وقرو من مزح استخف به ومن
اكثر من شيء عرف به ومن اكثر كلامه اكثر خطأه ومن اكثر
خطأه قل حياؤه واحذر يا ولدي اذا وصلت الى والدتك وسألتك
ماذا رايت وماذا رويت ان تقول لها شغلي حبك عن تحقيق ما
رايت او منعني شوقني اليك عن حفظ ما رويت او تفكري في
حال عماتي واخواني الصغار شوش فكري اناء الليل واطراف
النهار بل قدر انك تقول لها رايت كذا ودريته ورويت كذا
وفهمته وما كفاني ما كنت انعلمه بالنهار بل كنت اسهر تارة مع
والدي وتارة وحدي الى الاسحار فعند ذلك تعظك وتجلك
كثيراً . فقبلت يده وانصرفت وعملت باشارته فاطمن قلبي
وانشرح خاطري وصرت من ذلك الوقت الى الان مشغلاً
بالاستفادة مجتهداً في الاستزادة ومن تفضل الله علي اجتمعت في
السفينة بشيخص انكليزي مع احد الملاحين له المام باللغة العربية
فوقع بيني وبينه مزيد الالفة وارتفعت بطول الصحبة من بيننا
اسباب الكلفة



بقدر ما توهمه في المحالين ومن تكرر هذه الصور في القوة المخيلة
 تزايد حتى تظهر لصاحبها كأنها من جملة الامور المرئية وتؤثر فيه
 كأنها حقيقية وإن كان التأثير زائداً عن الطاقة نتج منه مضار جسيمة
 اما في العقل فيخلل واما في الجسم فيعتل حتى انه في بعض
 الاحيان يرى الموت وكأنه قد كان فما رايت في نومك من التمثيل
 ليس الا من هذا القبيل لان الفراق امر لست معتاده فصورته في
 نفسك بصورة غير صورته فتارة رايت ان السفينة قد غرقت بمن
 فيها وتارة رايت انها رست على بقعة من الارض عامرة بالناس
 والاشجار فكانت هذه الرؤيا ما ظننته وفي يقظتك توهمته
 وكذلك رؤيتك لوالدتك واخوانك وعماتك سببه تصور حيك
 لم ورغبتك في صلاح حالهم وخشيتك من فقرهم وفاقمتهم فلذلك
 رايت ما رايت من لعبهم تارة وبكائهم تارة اخرى في البيت فلو
 تفكرت فيما يحصل لاهلك ووالدتك وللحسين في عودتك لاسما
 اذا راوك متحلياً بمجلل الادب متصفاً بصفات اهل العلم والرتب
 ولاحظت ما يصفونك به من العلم والورع والعفة واجتناب البدع
 مع ما تحوزه من الشهرة فلا اظن انك تقول بمثل هذه الوسوسة
 بل يخلو قلبك منها ويدخل عليك السرور في الغدو والروح
 وتعيش عيشة اهل التقى والفلاح الذين رموا انفسهم في بحار
 تقديره ووكلوا امورهم الى تصارييف تديره عالمين بانه اللطيف
 بحالهم الخبير بما يصلح لهم في حالهم وما لهم واعلم يا ولدي وفلذة كبدي

كما تغذي جسمك بما تستطيع من المشروب والمطعم ولا تكن
 لكل ما تطلع عليه اسير التقليد كمن ظن الورود وهو عن الشط
 بعيد ولا تغتر بجلاوة الالفاظ فكل لفظ له باطن وظاهر ولا يتف
 على الفرق بينهما الا اللبيب الماهر فما كل ما يعلم يقال ولا كل ما
 حسن ظاهره يقبل على كل حال بل تارة يوافق الصواب فيمدح
 وتارة يضل عنه فيستعجب ولا ترو شيئاً من غير دليل فتكون كمن
 يطب غيره وهو عليل ولا تثق الا بما ترى فائدته بديهية ومنفعته
 عمومية ولا تتبع المقاصد الشخصية والفوائد الذاتية الوقتية وكن
 غالب وقتك مستفيداً فوافق رايتك فاحفظه وما لم يوافق
 مذهبك فالفضله واعلم ان غالب هموم الناس تخيلية وتصورات
 وهمية منشأها امور طرات عليهم ولم تكن من قبل مألوفة فلعدم
 علمهم بكيفياتها يصورونها في انفسهم بصورة غير صورتها ولجهلهم
 باسبابها يلبسونها ثياباً غير ثيابها فتظهر لهم في الصورة التي رسموها
 وتكبر في اعينهم على قدر الهيئات التي بها رسموها فتتمكن من مخيلتهم
 وتحل في وجودهم كملول الروح في الجسد فتشتغل جميع الحواس
 بها ويتحول الفكر بكليته نحوها وعند ذلك لا يرى الانسان غيرها
 فان كان ما تخيله خيراً عظم عنده شيئاً فشيئاً حتى لا يرى ان
 هناك اعظم منه وان كان شرّاً رأى انه فوق ما يتصوره المتصورون
 ويقدره المقدرين وانه لم يتقدم مثله لاحد من ابناء الزمان وانه
 ليس في الامكان ابداع ما كان فيكون حزنه وفرحه في التقديرين

وغرق من بها فارى نفسي على خشبة وكان الامواج تدفني الى
 جزيرة وكان اقواماً اخذوني وهموا بتلي فاقوم من الفراش على قدمي
 فاستعيز بالله وابسمل ثم اعود ثانياً بقصد الرقاد فما ارى الحال الا
 في ازدياد ولم ازل هكذا كل ليلة الى الصباح ففني ليلة رايت ما
 رايت وتوجهت الى والدي وقبلت يده فعلم اني لم اغنمض بنوم
 فسالني عن حالتي فاخبرته بما وقع لي طول ليكني فسكن روعي
 وطيب خاطري بكلام رقيق اروني لك منه ما امكنني حفظه قال
 ما يمنع عنك ذاك وبيك التخيلات والاحلام ان تستحضر
 وانت على الوسادة ان حالة اهلك احسن من حالة كثير من
 العباد ولا تنظر لما في الاسفار من المشاق الوقتية والمضار بل انظر
 لما يعقب ذلك من النفع العائد عليك وعلى اهلك فان ذلك
 يغير ما عندك من الانفعالات بضدها واصرف افكارك الى ما
 يسليك ويجلب لك السرور ويسهل لك معاناة الشدائد ثم عطف
 واخذ يورد على سمعي من الحكم والمواعظ ما انساني هي وارقى
 تلك الليلة فقال يا بني كن في جميع احوالك كامل العقل متسماً
 بسمة اهل العلم والفضل واشتغل بها يعينك متجافياً عما يشينك
 ويعينك فائماً بها يجب للناس من توفير كبيرهم وملاطفة صغيرهم
 متحلياً بصفات اهل الكمال متخلياً عما يزرري بك من الاقوال
 والافعال واياك واصحاب الشهوات والاخلاق الذميمة ولذ بهن
 يصلحك حاله ويرشدك الى الخير مقاله وغذ قلبك بثمرات العلوم

تهدأ قلبي لوعة ولم اجد لعيني في النوم قراراً ولا لقلبي راحة
 وكنت قبل ذلك اجهل الفراق وامله لجهلي باحواله ومشاقه وكنت
 اذا قرأت في بعض الكتب واطلعت على ما قيل فيه من شعر
 العرب وغيرهم اراني لا ادوق له معنى ولا افهم ما يراد منه بل
 كان يمر بي ككلام الساهي او اللاعب اللاهي الى ان تبين
 الخبر بالعين وارتفع الشك فذقت مرارته ووقعت في بحر هوله
 غريباً

شكا الم الفراق الناس قبلي * وروع بالنوى حي وميت
 واما مثل ما ضمت ضلوعي * فاني ما سمعت ولا رايت
 فصرت اردد في الاسحار قول من تناولته يد الاسفار
 احبابنا لو لقيتم في اقامتكم
 من الصباية ما لاقيت في الظعن
 لاصبح البحر من انفاسكم يسا
 كالبر من ادعي ينشق بالسفن

وما زادني قلقاً وشجوناً وأرقاً ما اراه في عالم المثال فتارة اراك
 تعانقيني وتبيليني وتارة اراك نائمة عن شمالي وتارة عن يميني وتارة
 ارى انك تنصحيني وتارة ارى كأن الرياح اشتدت والأمواج الى
 الجوف قد امتدت وان الحق تعالى على خلقه غضب وكان السماء
 تمطر ماء كافواه القرب ونحن في المركب لا نسمع الا ايننا واستغاثة
 وحينئذ وان الجبال قد تقطعت والقلوع تمزقت وانقلبت المركب

الرجال كما نهبت على خفايا حدوده وابتدت ظواهرها الشرائع
وليس فيما يقبل العقل المنزه عن العصبية ان تكون حرية النساء
عبارة عن تخليتهم وما اشتبهين مع ما يشاهد في الاكثر من غلبة
شهواتهن واهوائهن على عقولهن

وبينما هما يتجاوران اذا بفضجة في صدر السفينة تبين انها اشارة
للوصول الى الميناء فحي كل صاحبه بالسلامة وهما بالصعود الى
البر وتذكر الشيخ رجاء ولده في امر يعقوب فاخبر به صاحبه وبلغ
باجابته المرغوب فخرجوا متوجهين الى بيوت المسافرين

المسامرة المحادية والعشرون
كتاب برهان الدين

فلما استقر قرارهم واطمان بهم المنزل قال الانكليزي للشيخ
ان غدا توجه البوستة الى مصر
فقال الشيخ لابنه اين كتابك لوالدتك فاخرج له كتاباً
هذه صورته

حضرة الوالدة العزيزة المصونة . وحق المهد والدر الذي لا يقوم
مقامه الشهد ومناغاني في السحر ما غاب شخصك عن خيالي ولا
خطر التسلي عنك ببالي بل مذ فارقتك لم ترقاً لعيني دمعاً ولم

ونحو ذلك

فقال الانكليزي هذا كلام معقول لكي نظرت في المصحف
مرة فرأيت في السورة الثالثة من سورة البقرة ما ظاهره الامر
بضرب النساء مع انه يخل بشرف الانسانية

فاجابه الشيخ الا ان هذا لا يوجد الا اذا علم الزوج منها
خلاف ما كان يعهد على انه ليس له ذلك من اول الامر بل
يستعمل معها النصيحة فان ابت فبالهجر فان ابت ضربها بشرط
ان لا يضربها على ان حسن العشرة المأمور به في القرآن ربما
جعل التشديد عليهن مذموماً وصير من عاقبتن على كل ما فرط
منهن ملوماً كقوله تعالى (الطلاق مرتان فامسك بمرءك او
تسريح باحسان) وكقوله صلى الله عليه وسلم احموا النساء على
اخلاقهن وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينبغي للرجل ان
يكون في بيته كالصبي فاذا طلب ما عنده وجد رجلاً وقال بعض
الصحابه للنبي صلى الله عليه وسلم ما حق زوجة احدنا عليه قال
ان تطعمها اذا طعمت وتكسوها اذا اكتسيت ولا تضرب الوجه
ولا تقبح ولا تهجر الا في البيت ومعنى لا تقبح لا تسمعها المكروه
ولا تشتمها ولا تنقل لها قبحك الله ونحو ذلك الى غير ذلك مما
يعظم امر النساء ويوجب رعايتهن والمبادرة الى القيام بحقوقهن وهل
حرية النساء الا ان يبلغن حقوقهن على ازواجهن حسبما تقتضيه
المروءة وصيانة النساء عن الدخول فيما ليس لهن من خصائص

واما ما كان من امر تعدد الزوجات فليس هذا خاصاً بنا بل هو عامّ لنا ولغيرنا ولم يمنع الاطائفة النصرى فقط حتى ان من قبلهم كانوا يجوزون التعدد ايضاً فقد رأيت في بعض كتب التواريخ نقلاً عن دانيال القسيس ان ملوك فرانس الاولين كانوا متزوجين بزوجات متعددة مع انهم كانوا متدينين بدين النصرانية ومن ثم كان لكل من غنطران وشرير وداغوير الاول ثلاث زوجات ولم داغوير وهو قلودومير اربع زوجات في آن واحد وفي سنة سبعمائة وستة وعشرين من الميلاد كتب البابا غراغوار الثالث الى الواعظ يدسفساس حين ارسل اليه يسأله عن جواز التزوج بامرأة ثانية اذا اصيبت المرأة بداء يمنعها عن القيام بحقوق الزوج جاز له ان يتزوج بامرأة اخرى وعليه له صابة مؤنّها الضرورية

ولعل المحكمة في اباحة تعدد الزوجات عندنا وعند من كان على رأينا ان التدبير الالهي لما ميز الرجل بقوة البنية وطول زمن التناسل بالنسبة للمرأة وسلامته من الاعذار المعتادة للنساء في اوقات معينة كالحيض والنفاس راعى الشرع جانبه لذلك واما حكمة الافراد التي عولتم عليها واستندتم في الحكم اليها فلا يمكن الجزم باطرادها في كل طبيعة ولا بانها تقطع ما تخشونه من المفسد ذريعة فقد يأتي زمن يمتنع فيه كثير من الامور الفظيعة التي لا وجود لها في بلادنا كقتل الاطفال واسقاط الاجنة

الله كثيراً والذكريات اعد الله لهم مغفرة واجراً عظيماً (هو الجنة وما فيها) وهكذا في غير ما اية وان اردت ان اطلعك على مواضع ذلك من المصحف الشريف لتقف على الحقيقة بنفسك فعلت فالكتاب والسنة والاجماع على ان للنساء ما للرجال من الثواب وعليهن ما عليهم من العقاب لا فرق بين حرٍ ورفيق ومولى وعتيق وقال صلى الله عليه وسلم ايما امرأة غاب عنها زوجها فحفظت غيبته في نفسها وطرحت زينتها وقيدت رجلها واقامت الصلاة فانها تحشر يوم القيامة عذراء طفلة فان كان زوجها مؤمناً فهو زوجها في الجنة وان لم يكن زوجها مؤمناً زوجها الله من الشهداء فكيف يتوهم فيمن اتصف بالعدل فضلاً عن اتصافه بالفضل ان يضيع عمل عامل او يحرم الراجي فضله الشامل

فقال الانكليزي لو علمت نساء اوروبا بقولك لاحبين دين الاسلام لكن ربما يمنعن شيء اخر اشق عليهن من كل شيء واضر وهو اتخاذ الرجل منكم عدداً من الزوجات

فتبسم الشيخ وقال اراك قد خرجت عما نحن فيه اذ لا دخل لتعدد الزوجية ولا لدين النصرانية في احياء العلوم الادبية ولا تقدم الفنون والصنائع الدنيوية اذ لو كان كذلك لما احتجتم الى اليونان فمن بعدهم من العرب الى الآن في الوصول الى ما وصلتم اليه فانهم لكم في كل ما علمتموه ملاذ واحتياجكم اليهم كاحتياج المتعلم الى الاستاذ

وتعلمي اللغة العربية الآ الوقوف على حقيقة الملة الاسلامية ودرجة
علمائها فان مؤلفات الاوروباويين في هذا المعنى مشحونة باكاذيب
مضلة واخلافات مخلة كقولهم في كتبهم ان محمداً يقول ان النساء
لا يدخلن الجنة يوم القيامة

فالتفت الشيخ للخواجاعند ذلك وقال مثل هذا لا يقال
من امثالك ولئن كان معتقد علمائكم من هذا القبيل ومؤلفات
قدمائكم على نحو هذا التمثيل وها هو كتاب الله بيننا يتلى وكذلك
كتب المفسرين وحملة الشريعة اجمعين لم يوجد فيها لمثل ذلك
ادنى اشارة فضلاً عن التصريح بعبارة وقد قدمت لحضرتكم ان
جميع كلام النبوة شرح للقرآن قال تعالى (وانزلنا اليك الذكر
لتبين للناس ما نزل اليهم) واذا تتبعنا القرآن العظيم لم نجد
يذكر المؤمنين الا ومعهم المؤمنات ولا المسلمين الا ومعهم المسلمات
ولا الصائمين الا ومعهم الصائمات قال تعالى (ومن يعمل من
الصالحات من ذكرا وانثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة
ولا يظلمون فيها) وقال تعالى من عمل صالحا من ذكرا او انثى
وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا
يعملون) وقال تعالى (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين
والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين
والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات
والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين

اخرجها مشركوا العرب فعبدوها وكان ودَّ على صورة رجل وسواع
على صورة امرأة ويغوث على صورة اسد ويعوق على صورة فرس
ونسر على صورة نسر

هذا ما كانت عليه العرب قبل الاسلام وقد صاروا بعده
امةً واحدة قوية والفضل في ذلك كله للقرآن المجيد ومن العجيب
انكم معاصر الاوروبين تعلمون ذلك وتعززون الى الاسلام تاخر
النوع الانساني في المدينة

فقال الانكليزي لا يخفى على سيدي عادة اهل المذاهب
والاديان من التعصب والتحزب من قديم الزمان فكل يميل الى
ترجيح مذهبه بما يصل به الى بلوغ مأربه ويعزو الى دينه كل
فضيلة ويصفه بكل صفة جميلة فيأخذون بحواس المتدينين
ويجذبون اليهم قلوب الجاهلين فلا يرون الا راي اسلافهم ولا
يعلمون الا ما سطر في تاليفهم ولا يظاهون قوانينهم بقوانين غيرهم
ولا قواعدهم بقواعدهم الا لمقاصد فاسدة واغراض كاسدة ولا
يفرقون بين الصحيح والاصح والراجح والارجح واما انا فلست من
هذا القبيل ولا اليه عقلي يميل وليست النصرانية عليّ محنمة ولا
احكامها عندي محكمة بل الواجب عليّ اتباع الحق كما هو الواجب
على كل عاقل من غير فرق وانا اعلم من قبل ان الله سبحانه
وتعالى لم يبعث الرسل عبثاً بل ارسلهم هداية من اتبعهم وما قصدت
بفراقى بلادي واهلي واولادي وتوجهي الى بلاد المشرق واقامتني بمصر

انه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم فتنفروا
 في البلاد وما من احد يظعن الا حمل معه حجراً من حجارة الحرم
 تعظيماً له فحيثما نزلوا وضعوه وطاقوا به كطوافهم بالكعبة ثم تناسلوا
 فنسوا ما كانوا عليه من دين اسماعيل فعبدوا الاوثان وصاروا
 الى ما كانت عليه الام قبلهم من الضلال

وكان لاهل كل دار صنم يعبدونه فاذا اراد الرجل سفراً
 تمشح به حين يركب وكان ذلك اخر ما يصنع اذا توجه الى سفره
 واذا قدم من سفره بدأ به قبل ان يدخل الى اهله فاتخذت العرب
 الاصنام وعكفوا على عبادتها

وكانت لغريش وبني كنانة العزى وكان حجابها بني شيبه
 وكانت اللات لتثيف بالطائف وكان حجابها بني مغيث من ثقيف
 وكانت مناة للاوس والخزرج ومن دان بدينهم واما يغوث ويعوق
 ونسرف قيل انهم كانوا اسماً اولاد آدم عليه السلام وكانوا اتقياء
 عبادا فمات احدهم فحزنوا عليه حزناً شديداً فراقوا ان يصوروا صورته
 ليذكروه اذا نظروه فصوروه من صفر وورصاص ثم مات اخر
 ففعلوا ذلك الى ان ماتوا كلهم فصوروه هناك واقام من بعدهم
 على ذلك الى ان تركوا الدين وعبدوها الى ان بعث الله نوحاً
 عليه السلام فنهاهم عن عبادتها فقالوا ما اخبر الله به عنهم لا تذرنا
 آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً (الاية)
 ولما عم الطوفان الارض طمها وعلا عليها التراب زمناً طويلاً ثم

ربما يشير الى الديانة بما يدنسها فلما قص عليه ما قص ولم يظهر من كلامه في شأن الملة ادنى نقص حيث امتنع عن الجدل ولم ينسب للملة الاسلامية من التاخير ادنى سبب بل عزا اليها استمرار التقدم بما اكتسبته في الزمن الخالي حتى صارت اساساً يعتمد عليه النوع البشري في تقدمه الحالي والاستقبالي وانه لولاها لارتفعت من بين الناس موجبات الالفه والمسار وامتنعت عنهم اسباب التمدن واليسار فمن ذلك الوقت اعترف الشيخ لصاحبه بكثرة الاطلاع والوقوف علي حقائق الامور والاوزاع

فخاض معه بحر هذا البحث المتعلق بالدين ثم قال . وما يستطرد في هذا المقام ذكر اديان العرب قبل الاسلام

كانت النصرانية في ربيعة وفسان وبعض قضاة . وكانت اليهودية في نير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة . وكانت المجوسية في بني تميم

واول من غير دين الحنفية عمرو بن لحي ابو خراعة وهو انه رحل الى الشام فرأى العالقي يعبدون الاصنام فاعجبه ذلك فقال ما هذه الاصنام التي اراكم تعبدونها قالوا هذه اصنام نستمطرها فمطرنا ونستنصرها فننصرنا فقال اعطوني منها صنماً اسير به الى ارض العرب فيعبدونه فاعطوه صنماً يقال له هُبَل فقدم به مكة فنصبه وامر الناس بعبادته وتعظيمه

واول ما كانت عبادة الاحجار في بني اسماعيل وسبب ذلك

والامن من قطاع الطريق واهل الفساد وقد رأيت في بعض التواريخ العربية من جملة اعماله العائدة بالنفع حفرهم الخليج العتيق المعروف بخليج القلزم وان ذلك كان باذن من عمرو ابن العاص او من عمر بن الخطاب رضي الله عنها وذكر بعض المؤرخين ان عمرو بن العاص خطر بباله حفر برزخ السويس لاتصال البحر الاحمر بالبحر الابيض فاستأذن عمر بن الخطاب فمنعه ائلا تعبر منه الافرنج البحر الاحمر فيكثرون بالشرق وبلاد العرب . ثم لما كانت ايام السلطان الفاخر عزم وزيره على الشروع في حفره فعرضت له مواع عاقته عنه ثم استعوض ذلك بالعزم على توصيل بحر جرجان بالبحر الاسود بان يحفر خليج بين نهري الطونة واولفة فمنعه عن ذلك ايضاً فساد اخلاق طوائف القزاق المقيمين بسواحل تلك المياه

فعند ذلك طاب خاطر الشيخ بما القاه اليه صاحبه الانكليزي اولاً واخراً اذ رآه محباً للحق وفي الحكم منصفاً وبتقدم الملة الإسلامية في سائر الفنون معترفاً وزاد حبه له اضعاف ما كان وكان الشيخ قبل ذلك يمنع نفسه من المباحث في الامور الدينية خوفاً من ان يكون ذلك سبباً في حصول النفور بينها وكان الانكليزي مراقباً ذلك ايضاً قائماً بما يجب للشيخ من الحقوق لما رأى فيه من كثرة الورع والتخلق بالاخلاق المرضية وفي ابتداء الكلام بينها هذه المرة في امر الديانة ظن الشيخ ان الانكليزي

من فتنة فتن يصطلي حرها خلق كثير ونظول مدتها فرما
افامت الحرب الواحدة السبب زيادة عن اربعين سنة فلما
اهتدى الناس الى استعمال البارود والآت اطلاقه خمدت الفتن
وصار الغالب على الناس الامن بعد ان كان الغالب عليهم
الخوف ولا شك في سبق اهل الاسلام الى استعمال البارود وان
لم يعلم عين مخترعه فقد كان اهل مصر يدخلون ملح في بعض الادوية
ويسمون ملح البارود الابيض ويبردون به الماء بدل الثلج واستعمله
المسلمون في حروبهم ومحاصرتهم بعد القرن الخامس من الهجرة
وما سبق اليه المسلمون ايضاً بيت الابرة الذي يستعملونه في تحرير
محارب مساجدهم فيتعرفون به جهة قلبهم التي امروا باستقبالها في
صلواتهم اذ لم تكن الشمس كافية في ذلك لغيبتها ولا الاقطار
لاستئثارها في بعض الاحيان وكثير من الاماكن وقد عمت منفعة
بيت الابرة سائر الناس حتى ان المسافرين برأً وبجرأً لا يستغنون
عن استصحابه ليعرفوا بدلالته الاتجاه الى مقاصدهم . وما ينسب
لاهل الاسلام عمل الورق فقد وجد عندهم سنة ٢٧ من الهجرة
وكان اهل بخارى يعملونه من الحرير ثم عمله في حدود المائتين
يوسف ابن عمر امير مكة في ايام بني العباس من القطن وكان
اهل الاندلس يصنعونه من الكتان والتيل . وما سبق باستعماله
المسلمون الورق بدل القود واوراق الحوالات التي تسمى بالسقجة
ياخذها المسافر من تاجر في بلدة الى تاجر في بلدة اخرى لحقفة الحمل

هذا الزمان وكذلك شعراؤهم وعلماؤهم ومؤلفوهم لم يهتدوا الى ما
اهتدوا اليه الا بمؤلفات اهل الاسلام وكذلك قواميسهم المتضمنة
اخبار البلدان ومشاهير الرجال وحوادث الزمان انما تعلموها مما
وقع في ايديهم من كتب العرب فخذوا حذوها فقد دون اهل
الاسلام في علم التاريخ فضلاً عن غيره تدويناً امتازوا به على غيرهم
بقوة فكرهم وحلاوة تعبيرهم والاهتمام لطرق استنتاجهم وهذه المزايا
من البرهان على تعودهم على ملاحظة الكائنات الطبيعية والتجارب
والاعمال البشرية فقد يوجد نحو الالف والثلاثمائة مؤلف في
خصوص علم التاريخ باللغة العربية فضلاً عما ألف في ذلك
باللغة التركية والفارسية

فلما وصل في الكلام على تقدم اهل الاسلام الى هذا المقام
قال الانكليزي لا ريب في تقدم اهل الاسلام في كثير من
الفنون وسبتم غيرهم بفوائد جلية اخذت عنهم واستفدت منهم
فمن ذلك استعمال البارود الذي تكافأت بسببه قوى الامم
او قريت من التكافؤ حتى هدأت الفتن وقل عددها وقصرت
مدة ما تحرك منها فما قامت حرب الا قعدت ولا النهبت نيرانها
الا بسرعة خمدت على خلاف ما كان في الاعصر الخالية حيث
كان الناس يعتمدون على قوى ابدانهم ومضاء صوارمهم ورماحهم
الى غير ذلك من آلات المكافحة فكانت الحرب خصوصاً في
العرب تنشأ من امر صغير بين نفر يسير ثم لا تزال تزداد وتولد

من تسلطن بها من المالك وغيرهم المسمى كتاب الخطط وله
قاموس تاريخي وكذا اولوغ بيك التتاري حفيد تيمورلنك ومن
اثاره انشاء رصدخانه في مدينة سمرقند

وكان في القرن السادس عشر بمصر جلال الدين السيوطي
ومن اثاره تاريخ مصر المسمى حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة
وكذا خورمير الفارسي ومن اثاره خلاصة التاريخ وهو الذي عثرنا
فيه على استعمال اهل الاسلام الورق بدلاً عن النقود في المعاملات
وكان ذلك في القرن الخامس عشر من الميلاد بمدينة طهران

وكان في القرن السادس عشر ايضاً اظهر العلامة كاتب
جلي لرسالة الجغرافية وهي كتاب عجيب في بابه حتى ان كثيراً
من الناس ينكر كونه له اذ لم يسبق له مثال

وما ذكرناه في سرد اسماء بعض المشاهير بالنسبة لما ترك اقل
من القليل الاّ انه يتوصل به من اطلع عليه الى معرفة ما كان
للمسلمين من المصنفات العلية والعلوم الحكمية حيث لا مانع لهم من
معرفة ما فيه فائدة تعود على الوطن فقد غاصوا في بحار العلوم
واستخرجوا بقوة ادراكهم درره واستكشفوا غرره وهذا كله في علماء
فرع من العلوم العقلية فما بالك بعلماء العلوم الادبية والشرعية
ومنه يعلم ان سائر الامم الذين كانوا في الاعصر الخالية انما شغلوا
غليل ظمائمهم بما اغترفوه من ساحل بحار معلومات اهل الاسلام
اذ ليس لها اصل تستمد منه سوى الاعتراف من بحر معارفهم الى

وكان في القرن الثاني عشر من الميلاد بمدينة قرطبة فتح بن ماجية وكان يصنع الاصطراب ويعلم العمل به ويقال انه لم يكن اطلع عليه وكان يرسم على كرة فبينما هو يسير يوماً على فرس وبين يديه كرة اتفق ان سقطت وداس عليها الفرس فانبسطت واعجبته الصورة التي صارت الكرة اليها فاخذ في عمل الاصطراب على وفق تلك الصورة فاذا صح هذا كان من مخترعاته اذ لم يكن رأى قبل ذلك من عمل غيره

والبيروني وكان مشيراً وصديقاً للسلطان محمود الغزنوي وكان في القرن الثالث عشر من الميلاد بالموصل العالم الكبير والعلامة الشهير بن رشد شارح مؤلفات ارسطاليس وكان باصبهان ابو حنيفة مؤلف الازياج والتواقيع الفلكية وكان بهراکش ابو الحسن الجغرافي وكذلك ناصر الدين الطوسي مؤلف الازياج والتواقيع الجغرافية وكذا الغزالي احد شعراء الترك

وكان في القرن الرابع عشر تيمورلنك الذي انشاء ديواناً لمذاكرة العلوم واحيائها في مدينة سمرقند ثم ابو الفداء المؤرخ صاحب حياه

وكان في القرن الخامس عشر شاه رخ نجل تيمورلنك وهو الذي نقل العلوم الى بلاد هراه وكان بالقاهرة العلامة المقريزي الذي لم يسع بمثله الزمان ومن مؤلفاته تاريخ مصر وذكر احوال

اخطأت فقال له سيف الدولة وهل تحسن في هذه الصنعة شيئاً
فقال نعم ثم اخرج من وسطه خريطة ففتحها فاخرج منها عيداناً
وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ثم فكها
وركبها تركيباً اخر ثم ضرب بها فبكى كل من كان في المجلس ثم
فكها وغير تركيبها وضرب بها ضرباً اخر فنام كل من في المجلس
حتى البواب فتركهم نياماً وخرج ويقال انه اول من وضع الآلة
المسماة بالقانون وكان في القرن الثالث من الهجرة ابو الحسن علي
بن يحيى بن المنصور المنجم النديم وابنه يحيى ابن النديم

وكان في القرن الخامس ابو علي يحيى بن عيسى بن جزله
الطبيب الماهر وكان نصرانياً ثم اسلم وصنف رسالة في الرد على
اليهود والنصارى وبين معائب مذاهبهم وذكر فيها ما قرأه في
التوراة والانجيل في شان ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وانه
مبعوث وان اليهود والنصارى اخفوا ذلك ولم يظروه وما زالت
العلوم الحكيمية تتداول من عصر الى عصر ومن قطر من بلاد
العرب الى قطر حتى وجد بمدينة القاهرة الكبير المعظم والفلكي
المفخم العلامة بن يونس مخترع البندول (اي رقاص الساعة)
والربع

وكان في القرن الحادي عشر جلال الدين ملك شاه احد
الملوك السلجوقية الذي صارت الناس توّرخ بعصره فيقولون كذا
كذا في سنة كذا من التاريخ الجلالى

صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى اخذ علم الفلسفة عن
يوحنا في ايام المتندر وشرح غوامضها وكشف اسرارها وقرب
نناؤها وجمع ما يحتاج اليه منها

حكى انه لما ورد على سيف الدولة بن حمدان وكان مجلسه
مجمع الفضلاء في جميع المعارف فأدخل عليه وهو بزّي الاتراك
وكان ذلك زيه دائماً فوقف فقال له سيف أقعد فقال حيث
انا امر حيث انت فقال حيث انت فتحطى رقاب الناس حتى
انتهى الى مسند سيف الدولة فزاحه فيه حتى اخرجه عنه وكان
على رأس سيف الدولة ماليك وله معهم لسان خاص يسارهم به
قل ان يعرفه احد فقال لهم بهذا اللسان ان هذا الشيخ قد اساء
الادب واني سائله عن اشياء ان لم يوف بها فاخرقوا به فقال له
ابو نصر بذلك اللسان ايها الامير اصبر فان الامور بعواقبها فعجب
سيف الدولة منه فقال له اتحسن هذا اللسان فقال نعم احسن
اكثر من سبعين لساناً فعظم عنده ثم اخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين
في المجلس في كل فن فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى
صمت الكل وبقي يتكلم وحده ثم اخذوا يكتبون ما يقوله فصرفهم
سيف الدولة وخلا به فقال له هل لك في ان تاكل فقال لا
فقال فهل تشرب فقال لا فقال فهل تسمع فقال نعم فامر سيف
الدولة باحضار المغنين فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بانواع
الملاهي فلم يجر احد منهم آتته الا وعابه ابو نصر وقال له

قد مرض فاحضره فعالجه حتى برىء واتصل به وقرب منه ودخل
الى دار كتبه وكانت عديمة المثل فيها من كل فن من الكتب
المشهورة بأيدي الناس وغيرها ما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه
فضلاً عن معرفته فظفر ابو علي فيها بكتب من علم الاوائل وغيرها
فانتخب فوائدها واطلع على اكثر علومها واتفق بعد ذلك احتراق
تلك الخزانة فتفرد ابو علي بما حصله من علومها فاتهم بانه حرقها
لينفرد بمعرفة ما حصله منها وينسبه الى نفسه ولم يستكمل ثمانى
عشرة سنة من عمره الا وقد فرغ من تحصيل العلوم باسرها وكان
منشأه ببخارى ولما اضطربت امور الدولة السامانية خرج ابو علي
منها الى كركانج وهي قسبة خوارزم واخلف الى خوارزم شاه
علي بن مامون وما زال تنتقل به الاحوال من بلد الى بلد الى
ان استوزر لشمس الدولة وكان في اوائل القرن الخامس من
الهجرة واليه تنسب القصيدة المشهورة التي وصف فيها النفس واولها

هبطت اليك من المحل الارفع

وَرَقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمَنَعِ

محبوبة عن كل مقلة عارف

وهي التي سفرت ولم تبرقع

وَصَلَّتْ عَلَى كَرهِكَ وَرَبْمَا

كرهت فراقك وهي ذات تفجع

وكان في القرن الثالث والرابع من الهجرة ابو نصر الفارابي

الى اللغة العربية اصطفان نقل لخالد بن يزيد بن معاوية وكذلك
البطريق نقل للمنصور ايضاً شيئاً بامرّه وابن يحيى الحجاج هو
الذي نقل كتاب المجسطى واقليدس للمامون وكان في ايام
البرامكة ابن ناعمة عبد المسيح الحمصي وسلام الابرش وهلال
بن ابي هلال الحمضي وابن آوى وابن رابطة وعيسى بن نوح
وحنين وكان امام وقته في صنعة الطب وكان يعرف لغة
اليونانيين معرفة تامة وهو الذي عرب كتاب اقليدس ونقله من
اللغة اليونانية الى لغة العرب ثم جاء ثابت بن قرة بعده فتحمه
وهذبه وكذلك كتاب المجطسى وكان حنين المذكور راشد اهل
عصره اعننا بتعريبها واسحاق ولد حنين وكان اوحداً عصره في
علم الطب وكان يلحق بابيه في النقل ومعرفة اللغات وتعريب
اللغة اليونانية وخدم من الخلفاء والروساء من خدمهم ابوه ثم
انقطع الى القاسم بن عبدالله وزير الامام المعتضد بالله واخص
به حتى ان الوزير المذكور كان يطلعه على اسراره ويفضي اليه
بما يكتمه عن غيره

وكان هو وابوه في القرن الثالث من الهجرة
وكان يحيى بن عدي وابن المنفع من نقل من الفارسية الى
العربية وكذلك الحسن بن سهل وغيرهم
وكان الوزير ابو علي الشهير بابن سينا قد برع في علم الطب
فذكر عند الامير نوح بن نصر الساماني صاحب خراسان وكان

فكان ابو جعفر المنصور العباسي مقدماً في كل فن خصوصاً في علم النجوم والفلسفة محباً لاهلها ولما افضت الخلافة الى السابع من الخلفاء وهو عبد الله المأمون بن الرشيد تم ما بدأ به جده واقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معانده فداخل ملوكاً وسألم ما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه منها بما حضرهم من كتب افلاطون وارسطو وبقرات وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم واحضر لهم مهرة المترجمين ثم كلف الناس قرائتها ورغبهم في تعلمها فنفق به للعلم اسواق وشمرت دولة الحكمة في عصره عن ساق وكان الباعث له على ذلك فيما يقال انه رأى في منامه رجلاً حسن الشمائل فقال له من انت فقال انا ارسطاليس فسأله عن الحسن فقال ما حسنه العقل فقال ثم ماذا فقال ما حسنه الشرع فكانت هذه الرواية من اقوى الاسباب الداعية لاجراج الكتب من هذا الفن الى اللغة العربية وكان بينه وبين ملك الروم مراسلات فكتب اليه يسأله انفاذ ما يخزن الكتب القديمة المخزونة بالروم فاجابه الى ذلك بعد امتناع فانفذ المأمون جماعة منهم الحجاج بن مطر والبزريق وغيرها فسلمهم ملك الروم بيت الحكمة فاخذوا منها ما اخناروا ورجعوا به الى المأمون فامرهم بنقله الى لغة العرب فنقلوه وكان ممن انفذ الى الروم لهذا الخصوص يوحنا بن ماسويه وكان محمد واجد والحسن بنو شاكر المنجم ممن عني باخراج الكتب ومن نقل العلوم الحكيمية

وخمسون قشلة للساكين وثمانون مدرسة وتسعمائة حمام غير التي
 في البيوت وكان فيها من النفوس مليون (اعني الف الف) وستة
 الاف نول لنسج الحرير خاصة ومن يراها الآن لا يجد بها شيئاً مما
 كان فلا يعلم اي داهية دهتها واي مصيبة اعترتها حتى اخذل
 امرها وتغير حالها ولم يبق بها من الناس الا نحو ستة وخمسين
 الفاً

وكانت تهرع طلبة المعارف من جميع اقسام الدنيا لتعلم
 العلم في المدارس الاسلامية وقد اسلم كثير منهم وكانت بلاد
 الاسلام تتألق في المباني بانواع الزخرفة خصوصاً بلاد
 الاندلس

وكان في كل من مدينة سبته والقيروان والجزائر وتونس
 وطرابلس مدارس عامة وكتبانات وكان ثغر سيراف وعدن
 وجدة والسويس مرسى متاجر جسيمة واردة اليها وذاهبة منها وكان
 سوق مدينة فيول موعداً لاجتماع الناس من جميع جهات اسيا
 واما الرجال الذين نبغوا في رياض الفنون العقلية والعلوم
 الادبية فلا سبيل الى حصرهم ولا طريق للوصول الى عددهم وذكرهم
 فان ذكر مشاهير كل فن يحتاج الى مجلد

وخلاصة القول في هذا المقام ان علماء العرب واهل الاسلام
 لم في كل فن اليد الطولى وكل فضل هم احق به من غيرهم
 واولى لاسيما الخلفاء العباسية ومن قبلهم بعض خلفاء الاموية

بإداء الواجبات في أوقاتها وتحصيل أموالها وتخييز ما فيه مصلحة
 لأقواتها وكانت حكام الأقاليم ملزمة في كل شهر بتأدية قوائم
 ماجرياتها وتقارير قضايا جهاتها ومع هذا كله فكان السلطان يقف
 وقوفاً تاماً على جميع ذلك ويامر بما يراه موافقاً للحال من نجاز
 الأعمال واصطلاح الأحوال وبهذه المثابة كانت جميع مصالح
 المملكة والرعية مدبرة تدبيراً حسناً وكان من ضاقت عليه
 الأحوال واحاطت به جيوش الأهوال اذا دخل في حكم أهل
 الإسلام وانقاد لما لم وعليهم من الأحكام غمهم السرور وانجلي ما كان
 به من المضائق والشرور كما حصل لأهل صقلية والاندلس حين
 تخلصوا من يد اليونان ودخلوا في حكم المسلمين فحصل لهم وبهم
 الراحة وقاموا جميعاً بتحسين الصناعة والفلاحة وجلبوا لهم مستنبتات
 لم تكن عندهم من قبل كبذر القطن والشمام وكثير من أنواع
 الرياحين كالفل والمام فاستنبتوها من ذلك الوقت وكان من
 جملتها قصب السكر وشجر الفستق ولسان العصفور وبهم تفتنت
 العرب في منسوجات الحرير وعرفوا كيفية استخراج المعادن
 والعقاقير واستعمال مجاري المياه من أنابيب معدنية حتى وصلوا
 في أقرب وقت إلى أعلى درجة في العز والرفاهية

وكان بمدينة طليطلة إذ ذاك على ما قاله العلامة (دوروي)
 الفرنساوي مائتا ألف نفس وباشبليه ثلاثمائة ألف وكان محيط
 إحدى المدن ثمانية فراسخ وبها ستون ألف قصر وستائة مسجد

البوسطة لتوصل المكاتبات الى البقاع الاسلامية كافةً وكانوا
يجعلون على الطرق جنوداً منتظمة لحفظ المارة ولتجارة من
امتداد يد اهل العدوان من المفسدين والعربان وعلى السواحل
فنارات تهتدي بها السفن في سيرها في البحار ونحو ذلك من
محاسن الاثار

وبالجمله فلم تر العرب شيئاً الاً عملته ولا فناً نافعاً الا تعلمته
فمن ذلك الاشارات الرمزية المستعملة الآن لتوصيل الاخبار
السرية وكانت الدروب والطرق داخلاً وخارجاً لاتزال مطروقة
بام مختلفة في تحصيل الضروريات المعاشية والاسباب التجارية
ونحو ذلك من المصالح الدنيوية والمقاصد الدينية كالحج الى بيت
الله المحرام والسفر لزيارة الصالحين وصلة الارحام وكان بكل
مدينة دفاتر لحسابها وقضاياها وديوان يضبط امور رعاياها وعسس
يطوف بالليل الى الاشراق وملاحظون بالنهار لما عساه يحصل
بالاسواق ومخسبون لضبط الميزان والمكيال ومواخذة من طفف
بقدر ما يرونه من انواع النكال

واما ادارة الحكم في جهات المملكة فلم يكن القائم بها
واحداً بل كان السلطان يامر في كل جهة بانتخاب مجلس من
اهلها فيقومون بتدبير ما يرونه من المصلحة ومع حصرها في مراكز
معينة فكان يرتب لها ما مورون يمرون بالاقليم ويلاحظون ما
بها من المزارع وغيرها وينبهون على ارباب الخدم والوظائف

اوهام بالنسبة لاتضاع الصنعة وشرفها فلم يكن احد منهم يرى انه اشرف من غيره ولا انه قروي وذاك مدني ولا انه فقير وذاك غني بل كانوا جميعاً لا يرون الفضل الا لمن اتبع سبيل الرشاد فكانت الصنائع تشرف بهم لانهم يشرفون بها بخلاف الجاري في البلاد الاوروباوية والديار النصرانية فشرف الرجل عندهم بقدر شرف صنعته فلذلك كانت رجال الدولة الاسلامية وقادة الجيوش وروساء الاقلام لا يبالون باسما صناعتهم حيث تيسر لهم بها في الدنيا امر معيشتهم كالخياطة والعطارة والجمهورية فكان ابو بكر بزازاً وعمري رضي الله عنه دلالاً وعثمان رضي الله عنه تاجراً وكان علي اصغر سنه ساعياً في خدمة ابن عمه صلى الله عليه وسلم ولما كبر كان يجلب الوقود للصاغة احياناً فعلى مقتضى الشريعة المحمدية يلزم كل انسان اميراً كان او مأموراً ان يقتات من عمل يده وهكذا كان كثير من الخلفاء والصالحين والعلماء العاملين ففي سنة ١٧٥٤ ميلادية اعني في عهد قريب منا كان السلطان محمود الاول جوهرياً وكان يصرف ثمن مصنوعاته في ماكولاته وما يلزم له وكلما اكثرنا البحث في الكتب وتبعنا اثار العرب وجدنا لهم من التمدن المحسن وحسن الاختراع ما يبهر العقول ويتعسر على غيرهم اليه الوصول فمن ذلك استعمال خيل البريد لسرعة الانتقال متى شأوا بنغور بلاد الاندلس من الحدود الفاصلة بلادهم من الهندستان والصين واعظم من ذلك

مدار معيشة أكثر الخلق اعتمدوا بها كما اعتمدوا بغيرها ففتحو الطرق
ونظموها وجعلوا لها قانوناً لحفظها وحفظ المارين بها والمترددين
وجعلوا بها فساقى للمياه وخانات لقبولة المارين ومبيت المسافرين
ومن ذلك سهل التردد بين الهند وبلاد الصين وبين افريقيا
وجزيرة صقلية وبلاد الاندلس والمغرب وحصل الامن ومبادلة
مصنوعات البلاد ببعضها فانتفع كل بلد بما عند الآخر فلم ينزل
البيع والشرا متصلاً بين اهالي جميع اقسام الدنيا القديمة خصوصاً
في الارز والسكر والقطن والزعفران والعنبر والعاج والتبر الزنجباري
وبلور الصخور واسلحة دمشق وطليلطة وجلود الثور وطقوم خيل
الحمل والمشال والسروج والجلود السخنيانية القرطبية والجوخ
المصنوع في كورة بجميع الوانه والجلود والاقمشة والسجادات
الفارسية والشامية واقمشة الحرير واصناف الكشمير ومنسوجات
الموصل والعقاقير الطبية واذا تتبعنا احوال متقدمي الاسلام
ومشاهير امرائه والحكام لم نجد احداً منهم الا وله حرفة يتقوت
منها او صنعة لا يستغني في معيشته عنها علمية كانت او عملية
سواء في ذلك الكبير والصغير والمأمور منهم والامير فاصحاب
العلوم توضح الطرائق وتزيل العوائق وارباب العمل يتبعون ما
رسومه وبينوه ويعملون على مقتضى ما استحسنوه وحيث كان
القرآن الشريف حاثاً على العمل والسعي في طلب الرزق حتى كاد
يعد فرضاً خصوصاً وقد مدح التجارة والصناعة لم يبق عند العرب

ويعزى للعرب من الصنائع اختراع طواحين الهواء والآلات
المتخذة من الزجاج وبيت الابرّة وعمل الورق ونسج الحرير وطرق
الحديد وسقيه

وما يدل على شهرة العرب وتقدمهم في الصنائع العمارة التي لم
يسبقهم اليها احد فان الاوروبايين لم يتعلموا الصنعة القرظية
المشهوره في الابنية الا منهم

وما يشهد بنجرتهم ايضاً وعلو قدرهم على من عداهم في هذا الفن
مساجد الشام وبلاد الاندلس فمنها تعلمت اوروبا عمل القباب
العالية والاعمدة المرتفعة وتناسب اجزاء ذلك واحكامه مع الرونق
واللطف والتفنن في الاشكال والهيئات وامتزاج الخطوط المستقيمة
بالخطوط المنحنية في صور مختلفة خصوصاً بما دخلها من الازهار
في تعشيق الخطوط

ولهم يعزى الخط الستيني وتحلية المحيطان بالقيشاني وغيره من
انواع الزينة والزخرفة ولم تنكر الافرنج ان دخول التفننات البنائية
العربية في بنائهم كالنقش والتمويه ازال ما كان فيها من العمارة
الرومانية من الثقل والتشويه فلو قارنا مباني الافرنج الموجودة
الان بمبؤنهم التي هي نتيجة تقدماتهم ومعلوماتهم بالمباني العربية القديمة
الموجودة الى الان لوجدنا مباني العرب في سالف الازمان احسن
واثمن

ولما علم العرب ان التجارة من جملة اسباب الرزق بل عليها

وفي علم الطب المعالجة بالخزام واستعمال الراوند والتمر هندي
والمن وورق السنامكي والكافور في التداوي وتفضيل السكر على
العسل في تركيب اشربة الجلبة

وانشأ اجزاخانات ومدارس لعلم الطب وبجوارها شفاخانات
لعلاج المرضى ومدرجات لتعليم التلامذة علم التشريح والجراحة
بالمشاهدة وتأليف كتب ضخمة ورسائل حجة فيما يتعلق بانواع
الامراض الالتهابية والحميات والسموم وغير ذلك من الدآت
وفي انواع الحيوانات مؤلفات كثيرة منها حياة الحيوان للمجاحظ
وهو يشبه مؤلف العلامة الفرنسي بوفون وانشأ بساتين لتربية
اصناف الحيوانات وتكثيرها

وكذلك لم في علم الزراعة مؤلفات كثيرة ولم يعزى
استعمال تقاوي المزروعات اثر بعضها كل زمن بحسبه واختراع
السواقي ذوات الطوانس والقواديس وبحسن تدبيرهم وقوة اجتهادهم
حصل للزراعة نجاح عظيم حتى وفد اليهم من البلاد المجاورة لم
والبعيدة عنهم خلق كثير للاسترزاق والاقامة فزاد بالوافدين
عمارهم وبنابهم سرورهم وهم الذين علموا اهل اوروبا زراعة الارز
والقطن وشجر التوت الابيض وقصب السكر وشجر النخل والفسق
ووزد يابونيا وزهر الكاملي الاحمر والابيض ونبات الهليون وغير
ذلك مما لا حصر له

ولم في علم السياسة اختراع الاوراق للمعاملة بها بدل النقود

نصف النهار واليهم تنسب الازياج الفلكية والمداول الجغرافية
 واختراع خرط للمساعدة على الملاحة وجوب البحار وقد وجدت
 خرطة منها في سنة ١٤٧١ ميلادية عند المعلم (قان) احد المغاربة
 الذي كان في ارض (الجوزران) ببلاد الهند وقد اخذه معه
 وسكود وجاما معرفا بحريا الى مدينة ميلغده بمجزيرة زنجبار وكان
 عند اليورق البرتغالي لوحة اي خرطة اخرى من رسم شخص
 من ابناء العرب يقال له عمر كان يهندي بها في سفره في بحر عمان
 والخليج الفارسي

ويعزى اليهم ايضاً من العلوم الرياضية اتصال المخطوط
 الماسة في حساب الثلثات واستعواض الجيوب بالاوثار وتطبيق
 الجبر على الهندسة وحل المعادلات التكميلية
 ومن مآثرهم الجليلة ومخترعاتهم الجميلة علم الكيمياء الذي
 كانت تجهله جميع الامم قبل الاسلام وتركيب حمض الكبريت
 وملح البارود والماء الملكي واستخراج الزئبق وتجهيزه وتجهيز الاكول
 واستنفاع النيذ وغير ذلك

وزيادتهم في علم النبات نحو الالفين على ما في كتاب
 الاعشاب تأليف (دستوردي) واستكشاف التناخ بين النباتات
 حتى يتولد بين النباتين نبات ثالث مغاير لها وقد يكون في الشجرة
 الواحدة صنفان وانشأ بساتين مخصوصة لتنمية النبات والاعشاب
 وتكثيرها

المسامرة العشرون
العرب

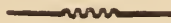
انه فضلا عما استفادته العرب بالترجمة من اللغات المختلفة
فلهم الفضل ايضاً في استكشافات كثيرة امتدت بها حدود العلم
الى الغاية واتسعت بها دائرة التقدم بلا نهاية فكانت العرب هي
المقدمة للعلوم في الزمن الخالي والاساس لتقدمها في الزمن الحالي
فلولا ان حينئذ ترجم علوم الفلك من اللغة اليونانية الى اللغة
العربية في عهد حفيد (تيمورلنك) ما امكن (كبلير) الفلكي ان
يوسع قواعد هذا العلم بما اضافه اليه بالبحث والاستنباط من الطرق
التي كانت مرسومة من قبل عند علماء الفلك من العرب في
كتب شتى ومؤلفات لا تحصى اغلبها الى الان موجود بمخزائن
الكتب باوروبا ومخبأ لم يطلع عليه احد ولم ينكر احد ان العرب
لا غيرهم هم الذين حققوا حركة اوج الشمس وان مدارها ليس
دائرة منتظمة وانهم ضبطوا مدة السنة

وكذلك يعزى للعرب اثبات النقص التدريجي الذي يتصف
به ميل منطقة البروج واختراع المزاويل والربع والساعة الفلكية
ذات الرقاص وغير ذلك مما يطول ايراده وهم الذين حرروا كتاب
بطليموس الفلكي المعروف بالمجسطي وقياس الدرجة من خط

علي سبيل الاستفادة والافادة شان المتصاحبين في الاسفار والمتقاربين
في الافكار ان ياتي كل منهما لصاحبه من غامض افكاره بما يسليه
من العبارات وان يختار منها ما فيه فائدة مطلقاً سواء كانت من
مشاهدات الابصار او من مبتكرات الافكار حتى نتأكد بينهم جبال
المودة والصفا وتمتد اليهم اسباب الالفة والوفاء متجايفين الجدل
متحامين موجبات الملل لان المقصود الموائمة ولا أكد لذلك من
المفاوضة في العلم والمعلومات وازالة كل ما عند صاحبه من
الشبهات من غير ضرر ولا اضرار ولا فخر ولا افتخار وحيث قضى
الله سبحانه بين الخلق بالاختلاف فلا راد لما قضاه ولا خلاف
فالاولى عدم الخوض في الاصول الدينية والبحث في القواعد المللية
بل نعدل الى علوم سواها ونقتصر عليها ولا تعداها مما يطيب
الخطاير ويسر السرائر ويمكن الحب من الضمائر فاقول ولوان
بعض مؤلفي النصارى اطال الكلام في معارضة دين الاسلام
لكن كثير منهم ممن صنف الزم نفسه نصر الحق وانصف حيث
قرر وافصح وبرهن على حقيقة الملة المحمدية وشهرتها في العلم على من
عداها من الموسوية واليسوية وقد ترجمت من احد المؤلفات
الافرنجية نبذة في اثبات تقدم العرب ان اذنت لي قراتها عليك

فقال الشيخ لا باس

فاخرج الخواجا كراسة قراء فيها ما نصه



الواردة في كتب السياحات التي لم يشتهر للعلماء فيها كلام ولم
يتقدم لاحد بها المام ربما تقابل بالرد او المعارضة وعدم التصديق
والمناقضة فيحتمل يجب اتقاؤها تدريجاً انما من سعادة الملل قد
يظهر لها في بعض الاحيان من يخصه الله بافكار عليا ومعلومات
ربانية تفوق معلومات البشر فيغير حال الملة في زمن اقل من
ذلك بما يدخله من الترتيبات المستحسنة التي تجذب القلوب الى
تلك التراتب والتجديدات من الفوائد العامة فتترك اوهاها
الفاصلة وتتنازل عن افكارها الكاسدة وتألف هذه التجديدات
وفي الزمن اليسير تتغير الاحوال والطباع والعوائد والاخلاق
والاوضاع كما هي حالة مصر الآن فان من رآها من منذ عشرين
سنة لو رآها الان لا يجد بها ما نظره شيئاً ويرى انها انقلبت
وصارت كبقعة من اوروبا مع ان ما جاورها من الاقطار لم يتغير
عما كان عليه فهل لذلك سبب غير ادارة وتديير صاحب الوقت
ومشاورته لجمهور رجاله

فقال الانكليزي حاشا ان يكون في فهمي او يمر بوهي نسبة
تقهقر العرب الى الدين المحمدي او انسب اليه المنع من تقدم
العلوم النافعة ولو كان كثير من مشاهير بلادنا وعلماؤها الف كتب
كثيرة في معارضة الديانة المحمدية وانت تعلم ان طبعي لا يميل
الى البحث في الاصول الدينية ولا الى المجادلة في الاحكام الشرعية
وان ذلك ليس من شأني والذي يجري بيننا من المباحث انما

كالمحدادة والبرادة والنجارة حتى صار القطر بهم غنياً عن سواهم
 هذا الى من برع من رؤسا في العلوم العسكرية وعلماء مدرسين
 في الفنون الحربية كل ذلك وغيره اكثر منه لم اذكره للاختصار
 ما وجد الاً بوجود هذه العائلة العلوية احسن الله سعيها وادام
 سعدتها وبعد ان كان امر الملة بيد الاغراب المسلمين عليها
 بالسلب والنهب وانواع العذاب صار الان موكولاً الى رأي
 ابنائها فلولم يمين الله على هذه البقعة بهذه العائلة ما كان لما تراه
 اثر بل كان اهل هذه البقعة كغيرهم من جاورهم كالبربر وعرب
 الشام والحجاز باقين على ما كان عليه اباؤهم واجدادهم من العادات
 الخالية عن المزية والمعلومات التي تعزى الى الجاهلية فمن ذلك
 ثبت ان كل ملة تسير خلف مديريها وجمهور رجالها ومديريها ومعها
 وصلت اليه الديار المصرية من التقدم لا يخفى ان تربية الملل امر
 صعب يلزم لها زمن طويل لان هناك عوائد قديمة واخلاقاً راسخة
 في الازهان ذميمة وافكاراً فاسدة واعنقادات كاسدة فلا تزول بمجرد
 بعض التجديدات بل تبقى عند الشيوخ ومن قرب منهم في السن
 الى المات بل ربما ورثها عنهم بعض الراشدين من الشبان فلا
 تنعدم بالكلية الا بعد انقراض جميع هؤلاء او اكثرهم فعلى حكم العقل
 يلزم التربص الى انتضاء ثلاثة اجيال اعني مائة سنة او مائة
 وخمسين سنة وسبب ذلك ان الافكار التي لم ترد في كتب المؤلفين
 ولا نص عليها احد من السالفين وكذلك المشاهدات والاستكشافات

واما الان فلا اقل من وجود مائة الف نفس وكذلك كان لا
 يوجد واحد من ابناء جنسنا يتكلم بلغة اجنبية واما الان فيوجد
 الوف يتكلمون بلغات متعددة ولم يعلم قبله ان احد المصريين سافر
 الى بلاد اوروبا واما في زمنه فما من سنة من السنين الا والمصريون
 في هاب وايب من مصر الى اوروبا ومن اوروبا الى مصر ما
 ذاك الا لتعلم العلوم النافعة والصنائع المتنوعة وذلك خلاف
 المكاتب الصغيرة التي تراها فوق الاسئلة فلم تكن حالتها فيما تقدم
 من الزمان كحالتها التي هي عليها الان حيث ضبط ريعها وحفظت
 من الضياع رباعها وضياعها وتنوعت فيها فنون التعليم زيادة عما
 كانت عليه في الزمن القديم حتى صارت ملحقة بالمدارس الميرية
 في الترتيب والمقاصد الخيرية فضلاً عما حصل في هذا العهد من
 تقدم الزراعة واتساع طرق الفلاحة وازدياد النباتات وتسهيل
 طرق الري في جميع الجهات وكذلك الفنون تسرت لطلابها
 اسبابها والصنائع كثرت بين المصريين اربابها وكذا العلماء والاطباء
 والحكام الالباء الذين عم نفعهم البلاد واشتهرت مزاياهم بين جميع
 العباد فبسببهم ارتفعت العاهات وامن القطر من جميع الآفات
 وبما رتبته من القوانين الصحية ودبره من المواد الطبية فخلص الناس
 من الامراض والعلل كالجدام والزهري (اي المبارك) والبرص
 والجرب والجذري وكذلك نشأ من ابناء الوطن مهندسون اعلمهم
 تغني اللبيب عن ذكر صفاتهم وهكذا في كل صنعة من الصنائع

السلطان انفع من خصب الزمان

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز يشكو اليه من خراب
مدينته ويساله مالاً يرمها به فكتب اليه عمر قد فهمت كتابك
فاذا قرأت كتابي فحسن مدينتك بالعدل ونقّ طرقها من الظلم
فانه مرمتها والسلام قال

ولم أرَ مثل العدل للملك رافعاً

ولم أرَ مثل الجور للملك واضعاً

وفي رواية ان عامله كتب اليه هدم الدمص وعدم النمص
وان ربيضها رايض ومرعى رياضها بارض وانها مخناجة الى عمارة
وزراعة وحرثاة ومناعة

فكتب اليه عمر ما ذكر (والدمص بكسر فسكون كل صف
من حجارة الحائط الا الاسفل فاسمه رهص بزنته والعرق بتخمين
يعمها والنمص بكسر فسكون اثار التبت بعد رعية والريص
بتخمين المراد به الماشية ورايض ضعيف هزيل من قلة المرعى وهي
المراد بلفظ بارض)

ومن طالع تواريخ المتقدمين وجد ان جميع الملل في سيرها
سائرة بسير مدبر امورها ان خيراً فخير وان شرافسر ومن تأمل مصر
وما كانت عليه قبل استيلاء المرحوم الحاج محمد علي باشا ونظر
الى حالها الآن وجد ان لا نسبة بين الحالين ولا مناسبة بين
الزمنين ففي الازمان السابقة كان يندر وجود الافرنج في بلادنا

بهم في امر المعيشة الطرق الموصلة الى المطلوب والراحة في الدنيا
 على الوجه المرغوب فان كان الامر بخلاف ذلك او كانوا على
 جهل ما يلزم لذريتهم في حال حياتهم وبعد ماتهم او كانوا مختلفين
 في المعرفة اختلفت آراؤهم واختلفت افكارهم واضمحلت حال العائلة
 لعدم اتفاقهم على ما يصلح لحالم وعن قريب يحيط بهم القهر ويحل
 بساحتهم جيش الذل والقهر ويدخلهم في قيد الاسر ويحزن الذل
 طول الدهر ما لم يقبض الله لها من بعض افرادها من يزيل شينها
 ويزين شأنها فكذلك الملة تابعة في سلوكها طريقة رؤسائها
 وملوكها وما انحط عليه راي جمهور رجالها فان كانت رجال
 الجمهور من ذوي المعارف الذين مارسوا الامور واطلعوا على
 اسباب التقلبات التي حصلت في سابق الدهور قد بيضت
 الحوادث سواد ملتهم واختلفت التجارب لباس جدتهم وارضعهم
 الدهر من وقائع الايام اخلاف اخلاق ذريته وعملوا بكثرة الممارسة
 تضاريف اقداره واقضيته واحاطوا بحوادث اهل ملتهم وحوادث
 الملل المجاورة لهم والبعيدة عنهم عالمين باسباب السعادة فيجتنون
 الرعية عليها واسباب الشقاوة فينبهونها عنها فما وجدوا فيه نفعا
 لاوطانهم جلبوه او ضرراً اجتهدوا في ازالته واجنبوه كان ذلك
 سبباً في ازدياد البركة وحصناً من الوقوع في مهاوي الهلكة فيبتدئ
 بصرفهم الزمان ويعيش في ظل عدلهم كل انسان وان كانوا من
 ذلك بالعكس وقعت الرعية في العكس بل ليس فقد قيل عدل

علوم مؤسسة على قواعد حتمية واتضح الدليل وتبدد شمل الاباطيل
 وامتدت اغصان التمدن من ارض الاندلس الى نهر الكنج ببلاد
 الهند وعمت فوائده جميع ارض الاسلام فكانت الثروة والقوة
 للمسلمين لتشبثهم بفوائده وتمسكهم باصول قواعده وما من احد من
 ذوي الاطلاع الا ويعلم ذلك ولا ينكره وبالجمله فينبغي لجميع
 علماء اوروبا ان يدعوا للعرب بالتقدم في الفضل والعلم وان
 كان لم يسمع للعرب اسم ولا ذكر الا من وقت ظهور الاسلام
 فما يعزى للعرب يعزى الى اهل الاسلام فحينئذ يكون الاسلام
 هو المنبع للتمدن والعلم اذ لم يظهر العلم والتمدن بالبلاد الاوروباوية
 الا بعد ظهور الاسلام بنحو الف سنة وحيث كان الامر كذلك
 فتحتم ان لا ينسب الا لاهل هذه الملة الا انه كما يكون للتقدم
 اسباب فله موانع وذلك لانا لو شهبنا اهل الملة بالعائلة كان
 رئيس الملة كرئيس العائلة وكما ان رفاهية العائلة وسعادتها تابعة
 لحسن ادارة رئيسها كذلك الملة وكما ان تربية الاطفال موكولة الى
 راي والديهم فكذلك اتساع دائرة الملة موكول الى حسن راي من
 يستوسها ويدبر امرها وكما تحصل الشورى بين الوالدين في امور
 العائلة والذرية ويكون تقدمها وعدمه تابعاً لما يخطط عليه رأيهم
 وانه يلزم ان يكون لمدير امر العائلة علم تام بما يلزمها وما يلزم لها
 حالاً واستقبالاً وان يكون ذا بصيرة بمجواتد الامور وتقلبات
 الدهور لبني قوانينهم على قواعد متينة واصول ثابتة مكينة ويسلك

العديدة ومن زعم في المشرقين غير ذلك فقد اخرج الحق عن موضعه اما لعداوة او حسد او نحو ذلك بقصد تحويل الافكار عن طريقة الحق الى طريقة الباطل ولم ينكر احد من النوع البشري فضل الاسلام وتقدم اهله في اي الفنون والصنائع فهذا امر لا ينكر وظاهر كالشمس في رابعة النهار بل اظهر لان الاسلام كان سبباً في احياء ما اندرس من الفنون والصنائع وجمع ما تفرق منها في اقاصي المواضع احيا التمدن القديم بدرياق اسراره النافعة وازال ظلمة الكون بانواره الساطعة اذ هو الاساس الحقيقي والمنبع لما يسمونه بالتمدن الجديد المتدع فلولا دين الاسلام وعلماء العرب لضاعت العلوم القديمة باسرها لانا نرى في الكتب العربية القديمة كثيراً من المستكشفات التي تعزى الان الى الافرنج ومن تتبع كتب السير والتواريخ وجد صحة ذلك وهل ينكر احد ظهور شردمة قليلة من بلاد العرب ملكت اكثر بلاد الدنيا في ظرف مدة يسيرة وفي اقل من مائة سنة صارت دولة اكبر من دولة الاسكندر واظهرت تمدناً ابيه من تمدن اوروبا في عهد اغسطوس اكبر القياصرة ولو نظر لحال العلم قبل الاسلام عند اليونانيين والرومانيين ونحوهم من الهند والصينيين لوجد انه كشجر بلا ثمر او سحاب بلا مطر فبظهور علماء الاسلام ظهر اصله واتضح وشاع نفعه ورجح وبعد ان كانت المخلوق غارقة في مجار الاوهام لا يتخلون العلوم الا كاضغاث احلام ظهر لهم بظهور هذا الدين

المدينة) الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله شيئاً فقال له
اما في بيتك شي قال بلى جلس (اي فراش) نلبس بعضه ونبسط
بعضه وقعب (اي اناء) نشرب فيه من الماء فقال صلى الله عليه
وسلم ائني بها فاتاه بها فاخذها بيده فقال من يشتري هذين فقال
رجل انا اخذها بدرهم فقال صلى الله عليه وسلم من يزيد على
درهم مرتين او ثلاثا فقال رجل بدرهمين فاعطاها اياه واخذ
الدرهمين فاعطاها الانصاري وقال اشتر باحدهما طعاماً فانبذه الى
اهلك واشتر بالآخر قدوماً فائني به فاتاه به فائت فيه رسول
الله صلى الله عليه وسلم عوداً بيده ثم قال اذهب فاحنط بوع
ولا اريئك خمسة عشر يوماً ففعل ثم جاء وقد اصاب عشرة دراهم
فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم هذا خير لك من ان تجيء بالمسئلة نكتة في وجهك يوم القيامة
وكان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول لان يحنط احدكم حزمة
على ظهره خير له من ان يسأل الناس وكان صلى الله عليه وسلم
يقول كثرة المسئلة كدوح (بضم الكاف اي قروح) في وجه صاحبها
وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول اني لأرى الرجل
فيعجبني فاقول هل له حرفة فاذا قالوا لا سقط من عيني

أبعد هذا كله يتوهم ان اندثار بعض العلوم والصنائع في
بلاد العرب من جهة من سلف من علماء الملة مع انه ما من فن
الآ ولم فيه التأليف المفيدة ولا حرفة الآ ولم فيها الاختراعات

العالمين إلا وكان له صنعة يتقوت منها

فقد سئل بن عباس عن صنائع الانبياء فقال كان آدم حراثاً وكان ادريس خياطاً وكان نوح نجاراً وكذلك زكريا وكان هود تاجراً وكذلك صالح وكان ابراهيم زراعاً وكان اسماعيل قناصاً (اي صياداً) وكان اسحق راعياً وكذلك يعقوب وشعيب وموسى وكان يوسف ملكاً وكذلك سليمان وكان هارون وزيراً وكان الياص نساجاً وكان داود زراداً (اي يعمل زرد درع الحديد) وكان عيسى سياحاً وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين مجاهداً ولذلك قال جعل رزقي تحت ظل رمحي وكان صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل يحب المؤمن المحترف ومن امسى كالأمن عمل يده امسى مغفوراً له

وكان صلى الله عليه وسلم يحث على البكور (اي السعي في اول النهار) في طلب الرزق وغيره من حوائج الدنيا ويقول اللهم بارك لامتي في بكورها . وقال الشافعي رضي الله عنه احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس . قال حكيم من دلائل العجز كثرة الاحالة على المقادير وقال بعض الحكماء الحركة بركة والتواني هلكة والكسل شوم و كلب طائف خير من اسد رابض ومن لم يحترف لم يعتلف . وسأل معاوية سعيد بن العاص عن المروءة فقال العفة والحرفة

قال انس رضي الله عنه جاء رجل من الانصار (اي اهل

بالتار ومنهم من نفي من وطنه فبقي طول عمره في قيد الذل
 والمسكنة ومع هذا كله فبعد زمن غلبت عصبية الحق لانهم كلما
 رأى الناس اهانتهم عطفوا عليهم ومالوا بقلوبهم اليهم فزادت شهرتهم
 ورغبت الخلق في سماع اقوالهم ونصروهم واحفوا بهم حتى كبر جاههم
 وعلت كلمتهم وظهروا بمذاهب فاتبعها الناس لما وجدوه فيها من
 المنافع حتى انتشرت بذلك علومهم لما رؤا فيها من الاشياء النافعة
 والاختراعات المفيدة كالمطبعة فقد اوصلتهم لشرط طرقيهم وعلومهم
 بين الناس وظهرت الكتب من كل فن من جميع الاجناس
 وتحصل عليها الفقير والغني والذكي والغبي وامتدت بها اغصان
 شجرة العلم الى اطراف البلاد فاستوى في اقتطاف ثمارها سائر العباد
 ومن ذلك اخذت العلوم في الاتساع وكثر المخترعون والمؤلفون
 حتى كان من المشتغلين في كل فرع من العلوم والصنائع
 والحرف عدد غير متناهٍ وما من يوم الا وتظهر كتب جديدة
 واختراعات مفيدة

فقال الشيخ تبين من هذا الكلام ان المانع من تقدم العلوم
 والصنائع في البلاد الاوروبوية كان من قبل قسس الديانة
 العيسوية لكن الامر في البلاد الشرقية والديار الاسلامية على
 خلاف ذلك اذ ليس في احكام الديانة ما يمنع من التقدم في اي
 علم من العلوم النافعة ديناً ودنيا بل كتاب الله واحاديث انبيائه
 وسائر رسله امرة بذلك وما من نبي من المتقدمين ولا عالم من

تسبح بالارض فلا يرون بشيء الا رسموه ولا يرون اثرًا الا تأملوه
وربما شرحوه وفي بلادهم نشروه وبهذه المثابة وصلت اهل اوروبا
الى التقدم في العلوم واستكشاف بقاع مستحجة فاستخذوا عليها
وتغلبوا على اكثر البلاد الهندية والصينية وجلبوا بهذه الطرق الى
ارضهم جميع خيرات البقاع وجمعوا في بلادهم معارف الملل المتفرقة
فوق سطح الارض وفي وسط البحار المتسعة فوصلوا بسعيهم
واجتهادهم الى اعلى درجة في التمدن حتى صاروا في عصرنا هذا
منفردين باكثر الصنائع متمتعين بين جميع الملل بالرفاهية والحرية
التامة رأبهم في كل امر نافذ وقوتهم ليس لها معارض ولا منابذ ولا
شك ان الذي اوصلهم الى هذه الدرجة ليس الا العلم وكثرة
السياحة اذ لو اقتصرنا على معلوماتهم الاولية ومعارف ابائهم في
الجاهلية لما وصلوا لشيء من ذلك بل كانوا الان مجهلون كيفية
زرع النبات خصوصًا النافع منه لغذاء الانسان وقوته فانهم انما
تعلموا ذلك من المشرقين كما تعلموا منهم اصول التجارة والملاحة
هذا ولم يكونوا في سابق الزمان على ما تراه الان من تحرير العلوم
والبحث في مسائلها واستخراج ثمراتها وتضمينها الكتب ونشرها في
العالم بل كانوا لا يشتغلون بغير كتب الديانة محظورًا عليهم
النظر في غيرها كائنًا ما كان فمن كان يتكلم بخلاف ما يتكلم به
الفسس في الكنائس ووصل خبره اليهم كان عرضة لانواع مختلفة
من الاهانة . فمنهم من مات مسخونًا ومنهم من قتل ومنهم من حرق

الايام تكثر طائفة اهل العلم وتعلو على طائفة اهل الجهل وتقدم
 الملة شيئاً فشيئاً وتوضع البركة في ارزاقها وتوسع ثروة اهلها بانساع
 دائرة العلم بين علمائها وساسة امورها وتكون كغيرها من الملل
 المتمدنة . الا ترى ان البلاد الاوروبوية بعد ان كانت في حالة
 التوحش والخشونة قد انتقلت الى درجات الكمال وبلغت في
 الاعتبار والسطوة ما لم يبلغه غيرها من الملل . هل لذلك سبب غير
 اتساع دائرة العلم والمعلومات عند اهلها مع ما اضافوه الى ما تعلموه
 ما اخذوه من الامم المجاورة لهم خصوصاً ما اخذوه عن اهل الشرق
 فانا نرى في كتب التواريخ ان حرب القدس الذي امتد زمناً
 طويلاً كان سبباً عظيماً في اخلاط اهل اوروبا باهل اسيا ومن
 ذلك نشأ اتساع دائرة العلم باوروبا واخذت من ذلك الوقت
 جميع سبل الثروة في النمو والزيادة ولذلك حصل في جهاتهم
 للفلاحة والتجارة والصناعة والملاحة التقدم الذي لا مزيد عليه
 فهذه الواقعة وان تلف بها كثير من الاموال والانفس الا انها
 كانت سبباً في تقدم اهل اوروبا لانهم تعلموا من المشرقين ما
 عندهم من المعارف والعلوم فنقلوه الى بلادهم واشتغلوا بهذه المعارف
 واستعملوها في ارضهم بمناسبة اقطارهم فمن وقتئذ الى الان لم تنقطع
 سبل الاخلاط بل زادت زيادة بالغة بسبب الطرق والوسائط
 التي استعملوها لتسهيل السياحة في البلاد البعيدة براً وبحراً وازداد
 بينهم الامن والالفة وما من سنة تمر الا وترى الوفاً من اهل اوروبا

والارض قائلين بلسان الاعبار ربنا ما خلقت هذا باطلا انما
 هنالك قوم كالسوقة ان عرضت لهم بذلك قدحوا في عقيدتي ورموني
 بما لست فيه فهم اناس دأبهم العناد والسعي في الارض بالفساد لا
 يملون للمعارف ولا يحسنون من الاشياء غير الزخارف حظ
 احدهم ان ياكل وينام ويتزيا بزي اهل الاسلام اذا سمع وصف
 البحار والجبال قال ذلك لا يثبت الا بمحض الخيال وكل ما
 ليس في كتاب الله ضلال والاشتغال به بئس الاشتغال غافلا
 عن قول رب العالمين . وفي الارض آيات للموقنين . وفيهم من
 يجشى من صولته وَيُرْهَبُ من هيبته فرما كان داعية للكتمان
 وسببا من اسباب الحرمان

فقال الانكليزي لا يخفى عليك ذم الجهل ومدح العلم وانها
 ضدان لا يجتمعان وان الجاهلين لاهل العلم اعداء وهذا امر مجمع
 عليه بين اهل الملل فلا يتاخر محب العلم عن تعلمه وتعليمه ونشره
 لنفع اهل وطنه وغيرهم لخوف مضادة بعض افراد او عدم اتباعهم
 لرايه ومتى كانت الحمائم ثابتة بالبرهان العقلي او النقلي عن اساتذة
 افاضل فلا عليه من انكار المنكرين وذم الجاهلين فلا يمنعه ذلك
 عن ارشاد اهل وطنه واخبارهم بما وقع تحت نظره وشاهده خصوصا
 اذا كان لهم في معرفته فائدة بل الواجب عليه حينئذ الافصاح
 به واشهاره فانه وان لم يصدقه الكل فقد يصدقه البعض فيكون
 معضداً له فتحصل له به المساعدة في نشر معلوماته وعلى تداول

توجب الاشتغال بها وكذلك في بعض الاوقات كانت الطلبة
تخوض في هذا الحديث فكان يقع بينهم الاختلاف ويطول النزاع
ولكون الجامع الازهر هو المدرسة العامة يهاجر اليها طلب العلم
من جميع الاقطار كجزائر العرب وارض الحجاز وبغداد والعم
والتتر والأتراك والبربر وبلاد السودان والمغرب فكان الكلام
بينهم في هذا المعنى يوجب الكفاح بسبب اختلاف آرائهم فمنهم
من يعد مثل هذه الحوادث مستحيلاً ومنهم من يجوزه ولا يقيم
عليه دليلاً ولعدم أهمية مثل هذه المسائل بيننا كما نرى ان المنازعة
فيها والاصغاء اليها لا طائل تحته ومن كان في نفسه
على يقين من ذلك لكونه رأها في بلاده كان مجبوراً على عدم
التكلم فيها بالكلية لانفراده وكثرة الاخرين واذا اضطر الى الكلام
فيها قال يقول العموم لئلا يجرح نفسه الى ما يوقعه فيما وقع فيه
غيره ممن خالف راي الاكثر لانه يوجد في بعض الاحيان من
جملة المنكرين بعض من اهل الاعتبار والشهرة ولا يخفى ان مخالفة
رأي مثل هؤلاء ربما توقع في ضرر وقد استولت على الليلة الفكر
فلم اتم الاقريب السحر فرصت الزمن في التأمل في صنع اللطيف
المخبير البديع التدبير من جبال نصبتها وفي مواقعها رتبها وبحار
ازخرها ولمنافع الناس سخرها وسيرها وفي بطون الودية وشواهد
الجبال صرفها وقدرها ولو اردت جمع ما علمت ضمن كتاب
لكان هدية لاولي الالباب الذين يتفكرون في خلق السموات

كما تقدم قال له من باب المزاح لا تذكر لوالدتك تقدمك عليّ
 في اللغة فضحك برهان الدين وطأطأ راسه حياءً منه فقبله الشيخ
 بين عينيه وسأل الله ان يفتح عليه ثم انحاز كل منهما الى مضجعه
 ولما حان وقت نداء الفلاح واسفر نور الصباح قام الشيخ على
 حسب العادة وصلى ما كتب عليه وقرأ اوراده وكذلك ولده
 برهان الدين صلى وقرأ ما تيسر من القرآن ثم حضر الخادم لهم
 بالشاي واللبن على حسب العادة الانكليزية فأخذ كل منهما
 ما تيسر وبعد ذلك خلع كل منهما ثيابه ولبس ثياباً نظيفة لعلهما
 بالخروج من السفينة في هذا اليوم ثم خرجا الى ديوان السفينة
 الذي هو محل اجتماع الركاب فاقاما به برهة مع الناس واذا
 بالخوaja قد حضر وحياتها وسألها عن صحتها فشكرها

وقال الشيخ ان الذي ذكرته فيما يتعلق بجبال النار وكيفية
 ثورانها وانواع مواد مقذوفاتها والقوى الفعالة في جوف الارض
 وما ينشأ عنها من المحوادث الفظيعة لعجيب ولولا ان الارادة
 الربانية اقتضت مشاهدتي لهذا المهب والدخان وسماعي لذلك
 الدوي والهيجان لم يكن في علمي من ذلك اثر ولا كنت اثق فيه
 بخبر غير اني كنت رأيت في بعض الكتب بعض كلمات تدل
 على ان هناك جبلاً شامخاً واخرى نارية لكنها كانت غير مفيدة
 للعلم اليقيني الذي علمته بالمشاهدة وتفصيل حضرتكم وكت لا
 ادقق النظر فيها لاني كنت في ذلك الوقت لا اري لها اهمية

واحبوه ولذلك فطنته وقوة حافظته كان ما يحفظه في اليوم
 الواحد يعدل ما يحفظه غيره في ايام فتقدم تقدماً تاماً وحفظ
 كثيراً من الكلمات والعبارات فاعجب والده حسن حاله فباسطه
 وسأله عن صحته فاجابه انه بعناية اللطيف الحبيب وبركة دعائه
 في صحة تامة لا يعتره ملل ولا فتور ولا كسل ثم اخبر والده
 انه سجع من بعض الركاب انهم في غد يقربون من البر وتظهر لهم
 المدينة التي هي نهاية مقصدهم وانه من امس اشتغل بكتابة مکتوب
 الى والدته ويرغب ان يذكر لها فيه بعض نوادر رآها وامور
 غريبة عن والده وعن الخواجا رواها خصوصاً وقد عثرت في السفينة
 على شخص سبق له اسفار كثيرة في جميع البحار وعابن من اهوالها
 احوالاً وكابد في اسفاره ما لم يكابده احد وله معرفة بتليل من
 العربية تعلمه في بعض جهات سواحل افريقيا فكتبت عنه
 كثيراً ما سمعته وذلك الشخص اسمه جس اي يعقوب وانه رغب
 في مفارقة البحر الان وان يتأهل ويقيم في احدى الجهات ليستريح
 من مشاق البحر لكنه لا يتيسر له ذلك لكونه فقيراً لا يملك شيئاً
 غير ما عليه من الثياب وله تاريخ عجيب ذكر لي بعضه واخبرني
 انه يرغب في بقاءه عند الخواجا صاحبنا بصفة خادم وهو
 يرجوك في التوسط له عنده فان فعلت ذلك اكتسبت ثوابه واظن
 ان الخواجا لا يخالفك فوعده والده بذلك واثنى عليه مكافأة
 على تذكره لوالدته ودعائه بالبركة ولتقدمه عليه في اللغة الانكليزية

المأمرة التاسعة عشرة
شذور

وبسبب دخول الوقت انقطع بينهما الكلام وانصرف الشيخ
ليقضي ما عليه من فرائض الاسلام وبات تلك الليلة متفكراً في
صنع الله متدبراً في اصناف المخلوقات وعجائب الكون والكائنات
وفي كيفية الاسباب المدبرة بقدره الله وعظمته سبحانه وتعالى
ووجود هذا النظام في طبقات الارض السفلى وفوق سطحها وفي
السموات العلى وان لا حركة الا وهو مبدعها ولا ذرة الا وسبق
في علمه مستقرها ومستودعها لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في
السماء يعلم عدد الرمال ومكاييل البحار ومناقيل الجبال لا اله
الا هو وهو بكل شيء عليم

وبينا هو يناجي ربه ويهمل واذا بولده برهان الدين لتقبيلا
يده قد اقبل وعلى حسب عاداتها من وقت نزولها بالسفينة في
تشاركها في تعلم اللغة الانكليزية حصلت بينهما المكاملة فيما تعلماه
وما اكتسباه من اللغة الانكليزية ولكن كان ولده قد فاق عليه
لانه كان طول يومه بين ركاب المركب والمراكبية فكان يسال
عن اسم كل شيء رآه وعن معنى كل لفظ سمعه ويكتبه وللطيفه
ولين طبعه وعذوبة الفاظه وادابه مالت اليه قلوب من بالسفينة

الاحوال فان كانت القوى الفعالة قريبة من سطح الارض ودفعت
 مواد ذائبة الى فوهات البراكين تكون فيها شبيهة ببرك الماء
 تزيد وتنقص تبعاً لقوة السبب وضعفه وكثيراً ما يحصل كسر
 الجروف بحسب قوة سيلان المواد المتدفقة على الارض المجاورة
 وتخرّب أكثرها وتارة يكون انصبابها في البحار فتجعل فيها
 لساناً ممتداً الى بعد عظيم من ساحله الاصلّي ويتغير شكل شواطئه
 وبحسب التأثير الواقع على المواد فاما ان تكون صلبة واما ان
 تكون طينية ويختلف لونها ورايحها بحسب المواد فان كان التأثير
 الباطني واقعا على برك من الماء مخزونة في جوف الارض دفعته في
 هيئة البراكين واسانه كما هي حالة الشلالات وكثيراً ما وجد
 في هذه المياه حيوانات صغيرة واسماك لا تعيش
 واما وجود الماء الحار بانقرب من الماء البارد وعدم صلاحية
 الاول للشرب وصلاحية الثاني له فسيبه ان اصل البارد المياه التي
 تشربها الارض من الامطار والثلوج وغيرها واصل الحار من
 المياه السفلية واخذ الاف طعمها ولونها من المعادن والمواد التي
 تركبت منها الطبقات السفلية التي مرت بها في طريقها فكيفت
 بكيفيتها ويجوز ان يكون ما تخيلت بعض الاسباب فانها ظنون
 متفاوتة قوة وضعفاً

ازدادت حرارته وكانت كحرارة الطبقات الصخرية التي يمر بها
واستدلوا بالتجربة على ان حرارة الماء تزداد كلما ازداد انخفاضه
في الطبقات الارضية بقدر ثلاثين متراً فاكثروا اذا وصل الماء
في الانخفاض الى عمق الف متر كانت درجة حرارته مائة درجة
ومع هذا تبقى سائلة بسبب ثقل الطبقات التي فوقها ولا تتغير
المياه عن حالة السيالان الا اذا سفلت وانخفضت الى الف
وخمسمائة متر فينبئذ تكون درجة حرارتها هناك خمسمائة درجة
تقريباً بمقتضى الحسابات ويوجد في هذه الابخرة قوة على دفع الماء
الذي ارتفاعه الف وخمسمائة متر ما لم يطرأ مانع وفي هذه الحالة
تصعد الابخرة وتتدفق من خلال الطبقات الارضية وتخلط
بغيرها من الطبقات الصخرية المحترقة الذاتية بالحرارة وتهي بلغت
قوة الابخرة حد العظم في الذاتية من الصخور دفعتها الى اعلا
وقدفتها من الفوهات النارية الموجودة قديماً ان كان التأثير عند
فتحتها نحوها والاثرت على ما فوقها وفتحت فتحة فيما حاذها تكبر
وتصغر على حسب القوة الموجودة وربما بلغت ثلاثين الف متر
في الطول ومائة وخمسين الف متر فاكثروا في العرض فتخرج
المواد المتدفقة منها الى سطح الارض وبتماذي الزمن وتراكم المواد
المتدفقة من جوف الارض وسقوطها في بعض الفتحات ينسد
معظمها ولا يبقى منها الا فتحة او بعض فتحات وعلى طول الزمن
ينشأ عنها سلسلة جبلية او جبل عظيم او غير عظيم على حسب

يكون حاراً جداً لا يستطيع الانسان وضع يده فيه حتى ان بعض
 القاطنين بالصحاري القريبة من هذه العيون يسوي طعامه على
 حرارته فكل هذه الاختلافات تدل بلسان الحال على العجز عن
 البحث في هذا المجال وغاية ما وصل اليه فهمي وتخيلته وهي قياس
 ما ثبت بالعيان على ما ورد في القرآن من قوله تعالى في كتابه
 المكنون الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه
 توقدون وعلى ما نقل عن العرب من قولهم في كل شجر نار وعلى
 ما قيل في خشب المرخ والعفرار وما نوعان من شجر البادية اذا
 احنك منها غصن بغيره صار نارا فاظن ان نار هذه الجبال
 وما ينشأ عنها من الاحوال من هذا القبيل وان السبب هو
 احنكاك بعض الصخور بحكمة يعلمها العالم القدير فتصادف بعض
 مواد نارية كالكبريت او غيره فينشأ عنها ما ذكر من البراكين
 فقال الانكليزي قد ذكرت لحضرتكم السببين اللذين نسب اليهما
 علماء هذا الفن جميع الاحوال البركانية سواء كانت المواد المنذوفة
 صلبة او مائعة وها الماء والنار وان من قال بالاول يقول ان
 في جوف الارض اخلية عظيمة كالمغارات يعلو بعضها بعضاً
 وبين تلك المغارات والبحر فتحات موصلة بعضها ضيق وبعضها
 متسع وهذه الموصلات تارة تكون متفرقة كالانهر والجحجان وتارة
 تكون غير متفرقة بينها وبين بعضها اتصال وكذلك بينها وبين
 البحر والفيجوات والمغارات وان ماء البحر متى انصب في هذه الموصلات

الدخان من فتحات بالسطح او يقفل عليها فيرتفع سطحها في هيئة
مخاريط تعلو سطح الارض فيحبس البخار الى ان تغلب قوته
تماسك المادة فيقذفها ويخرج الى الجوى ويستمر الحال على ذلك الى
ان ياتي فصل الشتاء فنذوب المواد الطينية وتكون كما كانت
في العام الماضي وهكذا

وقد شوهد في بعض جبال البحر الهندي ان هناك ارتباطاً
بين اوقات القذف واوقات المد والجزر فيزداد القذف في اوقات
المد حتى يسمع له دوي وقرقعة داخل الجبل وربما تكون المواد
المقذوفة حارة وفي الغالب لا تزيد على الحرارة الجوية ويتص في
اوقات الجزر

فقال الشيخ وهل الى الان لم يصل احد لمعرفة الاسباب
المؤثرة في جوف الارض على المواد المتراكمة منها طبقاتها حتى انها
تقذف تارة مواد جامدة مع دخان وهب وتارة ماء ومواد طينية
وتارة لا يكون الا ماء وتارة طيناً يشبه الوحل فلا بد لهذا
الاختلاف من اسباب مختلفة لانها لو كانت واحدة لكان خروج
الماء بكيفية واحدة وقد قرأت في بعض الكتب فرأيت فيها ان
بعض التجار مر ببعض الحبال فرأى فيها عيون ماء بعضها حار
وبعضها بارد ولم يكن بين مجراها الا مسافة شبر وحكى بعضهم
ان هذه العيون منها ما يكون نافعاً للشرب والري ومنها ما لا
يتففع به لتغير طعمه ورأئخه وقال بعضهم ان من هذه العيون ما

تويجوراها فقد نقل ان الجبل انشق من اعلاه الى اسفله فتدهدت
منه جهة فاعتبها اندفاق المواد الطينية المحبوسة في جوفه فملاّت
مسافة هناك بين جبلين وارتفعت الى مائتي متر في عرض ثلاثمائة
وحبست المياه التي كانت جارية هناك

وبالتأمل في حوادث هيجان هذه الجبال المائتة وكيفياتها
والجبال النارية ومدفوفاتها نجد ان لا فرق بينها الا انها تارة
تذف من اعلاها وتارة من جوانبها وبذلك يستدل على ان
القوى الفعالة في بعضها لا تخالف القوى الفعالة في الاخرى الا
في زيادة القوى وعدمها

وغالب هذه الجبال لا يوجد الا بالقرب من شواطئ البحار
وسواحل الجزائر وهي كثيرة والمشهور منها باوروبا الجبال الموجودة
في نواحي جبل قامار على ساحل بحر الخزر والجبال الموجودة
في جهتي بنغاز بانيكالي الجامع بين البحر الاسود وبحر ازوف فما
كان في جهة الشرق فمواده طينية مختلطة بغازات نارية وقذفه
منتقطع وما كان في جهة الغرب ليس كذلك بل قذفه مستمر في
أي الفصول الا ان قذفه في الصيف اكثر منه في الشتاء وهناك
جبال اخر مثل ما ذكر اعرضنا عن ذكرها لاجل الاختصار

وهذه المدفوفات منها ما يكون في فصل الشتاء فتكون
المواد المدفوفة طينا مائعا لاختلاطها بمياه الامطار ويخرج معها
دخان وتكون شديدة الحرارة تتصاعد المياه وتجهد بالسطح ويخرج

تظهر فيها عيون يخرج منها طين اسود مختلط بالماء الحار ويرى
من جميع مسام الجبل دخان ويسمع له اصوات تشبه صوت المطرقة
ولذلك سمي هناك بجبل المطرقة

والجبال الشامخة يندر فيها اتصال سيل المياه والمواد الصلبة
بل الغالب فيها ان تكون منقطعة وبعضها لا يقذف الا طيناً
او مادة تشبهه كما يشاهد ذلك في جبل (اكوا) اي جبل الماء وهو
مرتفع فوق سطح البحر باربعة الاف متر فلا يقذف الا ماء ولذلك
سمي بجبل الماء

وكذلك سنة ١٥٤٠ ميلادية فتح فيه فوهة فخرج منها ماء
دفعه واحدة فكان سبباً لازالة جزئه الاعلى وتمزيقه ومن كثرة
سقوط احجاره وقذف مواده تعدى ضرره الى ما جاوره من البلاد
فاتلف اكثرها واضطرت الاهالي لقل التخت بعيداً عنه وكثير
من جبال جزيرة جافا وجزيرة فيليبينه لا تقذف في هيجانها الا
طيناً مختلطاً بمواد بركانية واكثره منجمد بمواد قابلة للالتهاب
تستعملها الاهالي وقوداً للنار

وفي سنة ١٧٩٢ في جزيرة كنوبوقذف احد جبالها النارية
مقداراً عظيماً من الماء والطين فاتلف بذلك جميع الاراضي
المجاورة له واغرق خمسة وثلاثين الف نفس
واكبر من هذه الحادثة ما حصل في سنة ١٧٩٧ في احد
جبال دائرة الاستواء بالقرب من كينوم من جهة الجنوب من جبل

تدل على عدم الاتصال وذلك لانه لو كان بينها اتصال لفار
الجميع عند فوران احدها والواقع غير ذلك اذ لم يشاهد ذلك
في جبال اتنا والويزوف وغيرها من الجبال النارية التي بالبحر
الايض المتوسط لان كثيراً ما شوهد هيجان جبل اتنا مع عدم
تحرك جبل ويزوف مع ان الاول مرتفع عن البحر ثلاثة الاف
وثلاثة مئتين متر وارتفاعه اكثر من ارتفاع الثاني ثلاث مرات فلو كان
بينهما اتصال وكان منبع هيجانها واحداً لحصل الهيجان فيهما معاً
وايضاً فالمواد المتذوفة من الاثنين مختلفة ثم ان هول الجبال التي
تذف ماء وطنياً ليس اقل من هول الجبال التي تذف ناراً
ولهذا بل هي مثلها او اعظم فان ما حصل من جبال النار من
الاتلاف والمضار حصل مثله من جبال الماء كما هو مذكور في
التواريخ وقد شوهد انه انفتحت فوهة من هذه الجبال بعض
ساعات وقذفت ماء وطنياً فاغرقت مدناً وقرى واتلفت ولايات
واغرقت اهلها وصيرتها بعد ان كانت معمورة بالناس واصناف
التجارة قحمة خراباً لا تجد فيها يوماً ولا غراباً مثل ما اتفق في سنة
١٧٩٢ من الميلاد في جبل بابانريانج اعظم الجبال النارية بجزيرة
جافا وهوان الجزء الاعلى من الجبل تمزق واتذفت منه قطعة
بقوة وارتفعت في الجو ثم سقطت على الارض فاهلكت اربعين
قرية باهلها وخرج من الجبل قناة كبيرة من الماء الساخن فملاّت
فجوة كبيرة ولم تزل سائحة في جميع الجهات وفي بعض الاوقات

ووجد في سواحل بلاد العرب والمهند اثار مواد نارية تدل على انه مضى على هذه الجهات زمن كانت فيه متهيجة ومنتقدة وعرضة للحوادث والاهوال كالحجرات التي يشاهد فيها ذلك الان ويوجد ايضاً حول البحر المحيط الاتلنتيكي فوهات نارية بعضها يخرج من جبال سواحله وبعضها من جبال جزائره ولكن براكين هذا البحر في الجهة الجنوبية اقل منها في غيرها عدداً وقد طفئ اكثرها وسكن

وعدد البراكين التي فوق سطح الارض الان في جميع جهاتها بناء على قول العالم (هومبولد) ما تان وثلاثة وعشرون وزعم غيره انها تزيد على هذا وان كانت لا تبلغ مائتين وسبعين لكن لا يخفى انه لا يمكن الجزم بقول واحد منهما ولا ترجيحه لان كثيراً من الجبال سكن زمناً طويلاً ثم هاج وتأجج بقوة اكثر مما كان وبعضها بسبب عظم قوته كان يظن به انه لا يسكن فسكن وطفئ كأن لم يكن ولعدم العلم بقواعد يستدل بها واسباب يستند اليها لا يمكن الحكم باحد العددين بل تزيد وتقص باسباب واحوال واما ما كان منها في الازمان السابقة مشتعلاً ثم طفئ فكثير جداً كما علم ذلك من وجود المتذوفات حول الفوهات المتعددة الباقية الى الان

وكثير من الناس يزعم ان غالب الجبال النارية متصلة ضها من تحت قاع البحر ولكن لا قرينة على هذا الزعم بل القرانين

البغاز الموصل الى الاسترالي بارض الهند الصيني مائة وتسعة
جميعها يقذف مواد بركانية . فمنها ما يقذف دخاناً ولهباً ومعادن
متنوعة . ومنها ما يقذف رمادا ناريا . ومنها ما يقذف طينا . وفي
الغالب يترتب على هيجانها انخساف اراض وابتلاع مدن باهلها
وسكان هذه الجزيرة دائماً في رعب وخوف لما يحصل لهم من هذه
الحوادث المهولة

وفي جهات امريكا يشاهد خروج اللهب والدخان والمواد
البركانية من فوهة جبل مستلى المرتفع عن سطح البحر الملح بقدر
خمسة الآف واربعمائة متر ويرى الدخان واللهب من بعد عظيم
كانه عمود من نار قاعدته في البحر ورأسه في السماء يستر ظله جزءاً
عظيماً من الارض فلا يرى عليها لاشعة الشمس والضوء ادنى
اثر ويوجد في ارض مكسيك اكثر من ثلاثين فوهة

وفي مواضع كثيرة من جهة امريكا لانزال الارض في تزلزل
واضطراب وفي بعض اوقات تنفجر ويخرج منها لهب وجميع هذه
الجبال يشبه بعضها بعضاً في هذه الحوادث . فمنها ما يقذف دخاناً
ولهباً واحجاراً . ومنها ما يقذف مع ذلك تراباً . ومنها ما لا يقذف
الأماء حاراً يرتفع الى السماء ثم ينزل الى الارض

والجبال النارية في ساحل البحر الجنوبي اكثر منها في ساحل
البحر الهندي فالجبال النارية لم تنزل فعالة بقوة في جهات جزيرة
سومتره وجزيرة زانغا .

حجرًا او صخرًا يتكون منه الجبال . ثانيها ما قاله بعضهم وهو ان
جوف الارض من جهة المركز مشتعل بالنار على الدوام
وان جميع المواد ذائبة والابخرة المتصاعدة تخرج بقوتها من الفوهات
البركانية . هذا ما قيل ولم يعلم ايها اصح ولكن رجح كثير من اهل
العلم القول الاول لقربه من العقل على الثاني لبعده عنه لان
المشاهد ان تركيب البخار المتصاعد عين تركيب بخار الماء سواء
بسواء

واخبر احد المهندسين ذلك فوجد ان في كل جزء من البخار
تسعمائة وتسعة وتسعين جزءًا من الماء والجزء الباقي مواد اخرى
كما هو كذلك في بخار الماء وفي الهيجان الاخير الذي حصل
في جبل اتنا قدر احد المهندسين الماء الذي تحصل من البخار فوجد
ان الجبل يقذف في كل دفعة ٦٠٠٠٠ متر مكعب وبما انه
كان يقذف في كل اربع دقائق مرة في مدة مائة يوم يكون
مقدار الماء المقذوف ٢١٦٠٠٠٠ متر مكعب وقد شوهد في مواد
الفوهة البركانية جميع المواد التي يتركب منها الماء الملح وغير ذلك
فان غالب جبال النار التي استكشفت على سواحل البحر او في
الجزائر موجودة الى الآن . منها ما سكن ومنها ما هو على حاله
وكثير ما سكن هذه الجبال يخرج منه عيون ماء حارة متفاوتة
في الحرارة والتركيب المعدني

والجبال النارية كثيرة جدا ففي البحر المحيط الاعظم وفي

يسكن الجبل تارة. ويهيج اخرى ولم كانت الاسباب الفعالة غير مستديمة بل تقوى تارة فتظهر وتضعف اخرى فتستر وقد ذكرت لي انه شوهد جبال بقيت زمانا تقذف من جوفها ناراً ودخاناً ثم طفتت وسكنها الانسان والحيوان من بعد وصارت بالحيوان والانسان معمورة وبالنبات ورونق البهجة مغمورة فاما ان تكون انتقلت عنها اسباب الهيجان الى غيرها او انها عدت دفعة واحدة او تدريجاً في مستقرها حتى لا يبقى لها عودة في المستقبل او انها تسكن ثم تعود كحالتها الاولى

فقال الانكليزي انه الى الآن لم يقف احد على حل هذه المشكلة ولا على دليل، لفهم المسئلة وغاية ما قيل احتمالات وعلل لم تطرد في نفي ولا اثبات . احدها وهو اعتقاد قديما سكان هذه الجزيرة وكثير من اهل العلم الآن يعتقدوه وهوان مياه البحر تنصب في اغوار عميقة من قاعه وكلما ازداد عمقها ازدادت حرارتها فاذا اشتدت حرارتها اتقلبت بخاراً وبعرض حوادث اخرى واسباب خفية تؤثر فيما تلاقيه من طبقات الارض فتخرجه عن حاله وبقوة التأثير المتوالية والقوى الفعالة عليها من اسفل تقذف الى جهة سطح الارض فتخرج من تلك الفوهات ممتزجة بالمواد التي اثرت عليها في مرورها بين طبقات الارض وتكون عنها المواد البركانية والدخان والمهب وباقي الاحوال التي تشاهد حين صعودها الى الجو وتأثير الجو عليها تجود شيئاً فشيئاً حتى تصير

وجرت بها عيون وانهار ونبت فيها زروع واشجار وسكنها الانسان
والحيوان فكذلك هذا الجبل يمكن ان يأتي عليه زمن يحصل
فيه التوازن بين القوى الفعالة تحت الجبل وانتقال المواد التي
قذفها فيطفأ كما طفء غيره من قبل وربما يحصل لارض الجزيرة
اتساع عن حالتها الاولى وبما تكتسبه في كل هيجان في المستقبل
تكون في حالة احسن وتكون حالة من يسكنها الطف من حالة
سكانها الآن كما شوهد ذلك في كثير من امثالها

فقال الشيخ اني لا عجب من ارض تشرب وبها اشجار تزهو خاصة
بالنبات والانسان ويخرج من جوفها هذا اللهب والدخان وهذه
المواد السائلة التي تشبه في اندفاعها اندفاق الماء من اعلا الصخور
والنابع من عيون الارض فمن اين تخرج هذه المواد وما مستودعاتها
الحقيقية فهل جوف الارض مملوء بهذه المواد وهل ذوبان المواد
الصلبة منسوب لاسباب دبرت بالقدرة الالهية والحكمة الربانية
فتؤثر على المواد الجمادة فتذيبها في جوف الارض فان كان كذلك
فما كيفية انقذافها بهذه القوة الى ظاهرها ولاي شيء يخرج من
بقعة دون اخرى وعلى قول اهل شريعتنا وملتنا لا يسعنا الا ان
نقول تحيرت الالباب في صنع رب الارباب وانه لا يحصل لاحد
على هذه معرفة ولا وقف الا بطريق الولاية والكشف واما على
طريقتكم ومتنضي فكرتكم فهل وصل انسان لمعرفة حقيقة ذلك
وشرح احوال هذه الحوادث كما وصل لشرح غيرها ولاي شيء

وكثير من المزروعات واحضي ما تلف من الاشجار التي كانت
 هناك فبلغ مائة الف شجرة وتكوّن من لهب ودخان ما حرقته
 هذه المواد مع لهب ودخان الحجيل شعلة كان الملاحون وسكان
 السواحل يرونها في البحر مسير عدة ايام وحصل لاهل صقلية من
 ذلك ما لا مزيد عليه من الضرر وحزنوا حزناً شديداً على ما تلف
 من غاباتهم واراضي زراعتهم التي هي سبب سعادتهم وهذا الهيجان
 والاضطراب الذي شرحه لحضرتكم لم يكن شيئاً بالنسبة لما هو
 مذكور في اخبار هذا الجبل العجيب فان المؤرخين ذكروا
 انه هاج خمساً وسبعين مرة في ظرف الف سنة واقبلها حصل عنها
 امتداد المواد المتذوفة الى عشرين الف متر اعني ضعف ما حصل
 في هذه الدفعة الاخيرة وستر من اراضي الزراعة ما ضلعه مائة
 الف متر وكانت في الازمان السابقة معمورة بالزراعة والناس وعليها
 من المدن والقرى عدد كثير ولم يزل يكتسب الجبل ارتفاعاً
 وامتداداً حتى صار قدر مجسمه الاصلي اربعة الآف مرة

فقال الشيخ مقتضى ما ذكرته ان ياتي زمن تنعدم فيه هذه
 الجزيرة بالكلية لما انها في كل هيجان يتلف كثير من سكانها ومساكنها
 وتنعدم خصوبة ارضها

فقال الانكليزي لا يمكن الحزم بذلك لان كثيراً ما شوهد
 في بقاع الارض جبال نارية مثل هذا الجبل او اعظم منه في
 الهيجان وبعد عدة قرون بردت وسكنت سكوتاً تاماً الى الآن

اصوات المواد السائلة كان يظن قيام الساعة ويلحق المحلق رعب
كثير وبعد زمن خشع ذلك وصار بعد ان كانت المواد المقذوفة
تصعد الى الجوالق وسبعائة متر تنازلت الى مائة متر ثم حصل
الهدوء كالاول وقدر بعض العلماء المواد المقذوفة من فوهاته في
السته ايام الاول فوجدوا ان الحجيل اخرج في كل ثانية تسعين
متراً مكعباً وكانت سرعة سيلان المواد في الدقيقة الواحدة نحو
سته امتار وكلما بعدت عن فم الفوهة تجهدت وقلت سرعتها
فتكون عنها في جميع جهات الحجيل اخاديد وتفرع من كل
اخدود فروع ومنها غيرها وهكذا وقدرت مساحة بعض الاخاديد
فوجد منها ما عرضه ثلاثمائة وخمسين متراً في المبداء وعمقه خمسة
عشر متراً وبعده عن فم الفوهة ستة آلاف متر وفي بعض الجهات
كانت المواد تقع في اودية ووحدات منخفضة من الارض فكان
يسمع لها دوي كدوي المياه عند انصباها من الشلالات وقد
قيس بعض تلك الوحدات بعد ان طفت منها المواد السائلة
فوجد عمقه خمسين متراً وبلغ امتداد بعض الفروع عشرة آلاف
متر في الطول وفي وسط شهر فبراير ضعف سير المواد السائلة
المتخللة بين الصخور فكان يظن سكون الحجيل فينبجر ثانياً على
حين غفلة بالقرب من فوهته الاصلية ويملا من المواد المقذوفة
اودية واراضي واسعة فيتلف كثيراً من اراضي الزراعة والمساكن
المنفصلة عن البلاد وعدة كفور كانت بالقرب من هذه الجهة

فكان ذلك امرًا عجيبًا ومنظرًا غريبًا خصوصًا في الليل فكانت الأشكال التي ترسمها المواد المتذوفة ترى بصور تشبه الصور التي تحدث عن الصواريخ في ليالي المهرجان والافراح واستمر على هذه الحالة الى اوائل شهر يناير سنة ١٨٦٥ فازداد تزلزل الارض وتموجها في الجزء الشرقي من جزيرة صقلية وانفتحت في طول الفين وخمسمائة متر في راي العين وخرجت منها المواد المحبوسة من فتحة مستطيلة ثم في اواخر الشهر المذكور اجتمعت قوة الهيجان في نقط من خط الانفجار فتكوّن عن تراكم المواد المتذوفة عدة تلال منها ستة كبيرة والجميع كان بحافة المزق وبسبب توالي المواد السائلة والرماد والكنل النارية وسقوطها من فوق تلك التلال الى الارض تجمع اكثرها ببعضه وصار كسلسلة جبلية غير منتظمة ثم انقطع خروج النيران من كثير من نقطها وبقي في البعض فكان يشاهد كأن الفوهات العليا تقذف كتلاً جسيمة متجمدة وان الفوهات السفلى تقذف ناراً ولهباً ومواد سائلة على شكل مستدير حول الفوهة الاصلية فاستمر الهيجال على ذلك ثم سكن هيجانه بعض سكون وصار لا يرى فيه الا دخان وبعض لهب في بعض الاوقات وفي بعض الايام كان يسمع تحت الارض هدة وارتجاج ودوي كدوي الرعد وبعض تموج وتزلزل مزعج ويمتلاء الجو بالدخان ويتغير لونه وتجب الشهب وكان يسمع على بعد اصوات متنوعة وباختلاطها مع

وهذه النيران وارت كان يحدث منها مضرات لمن جاورها في بعض الاوقات لكنها لا تخلو عن حكم اخمص بها من هو بها اعلم ولهذا الجبل اوقات تنهب فيها النيران فتاخذ سعة من الارض تكبر وتصغر على حسب قوة الهيجان وضعفه ثم بعد ايام تسكن ولا يبقى الا دخان وبعض لهب كما هي حالته الان بخلافه وقت هيجانه فانه يكون في حالة فظيعة وصفات مستغربة ترتج منها الارض ويسمع لها دوي وقرقعة على بعد عظيم وفي هذه الحالة تقذف مواد قترتفع الى الجو ويعلو اللهب والدخان حتى لا يدرك البصر غايته ومن شدة هوله تظن سكان البقاع المجاورة له زوال بلادهم وخسفتها ومن شدة رعبهم يضطرون الى الفرار وقد ذكر احد سكان الجزيرة حالة الجبل في شدة هيجانه فقال بينما انا في قرية بالقرب من هذا الجبل والناس مشغولون بامورهم وكان ذلك في شهر اغسطس الافرنجي سنة ١٨٦٢ واذا بارض تنزل وترتج والجبل قد انفجر من اعلاه وخرج من فوهته مواد سائلة فكانت تسيل على سفح الجبل فهدمت منزلاً كان هناك يعرف بمنزل الانكليز وكنت ارى قطعاً عظيمة حجرية تصعد من الفوهة ثم تنزل وتثد الى سفح الجبل وكان يخرج مع الدخان تراب ناري فينزل على سفح الجبل وبسبب ضعف القذف كان يقع في فم الفوهة فكانت تعطل المواد وتجسها ولذلك انفتح الجبل من جوانب الفوهة وخرج من كل فتحة دخان ولهب ومواد

من البلاد المشرقية ان ثم جبالا شاهقة منها جبل يسي دبقاوند
ويقال دماوند لا يزال يخرج منها النار ويشتد في بعض الاوقات
دون بعض سيما ذلك الجبل فانهم يخبرون عنه ان فيه اثنتي
عشرة فوهة يسمع منها دوي كدوي الرعد يخرج منها رياح شديدة
الحرارة لا يمر بها شي الا اهلكته غير ان لها سكوتا في بعض الاوقات
وربما ترصد ذلك من يغرر بنفسه من المشتغلين بالكيميا فيصعد
اليها للبحث على كبريت ذهبي صاف يوجد هناك يعتقدون انه
يدجل في الصنعة ويصفون ما يشاهدون هنالك من عجائب
صنع الله تعالى

واهل مصر لعدم تعودهم على الاسفار وعدم وجود مثل هذه
الحوادث في تلك الديار لا يوجد عندهم بهذا خبر ولا يصل اليهم
منه علم ولا اثر لما ان بلادهم بلاد الرحمة قد خصها الله من فضله
بالنعم الوافرة والالطاف الجمّة المتكاثرة

فمن نظر لهذا الجبل وهذه النيران وعلو لهبها وكثرة الدخان
الذي سد الافق وحجب ضوء الشمس اقر بقلبه واذعن بعبوديته
لربه فسبحانه ما اعظم شأنه.

فقال الانكليزي وفي هذه الجزيرة ايضا جزء غير مسكون
وهو ما قرب من الجبل وبقاياها معمور بالناس وفيها كثير من
الحيوانات وانواع النباتات وبسبب اعنياد الناس على هذا الجبل
صار خروج النار منه عندهم كالعيون والآبار من الامور العاديّة

المسامرة الثامنة عشرة
في البراكين

وبيناهم يخوضون في هذا الباب ويتأملون في صنع رب
الارباب واذا بالملاحين ومن بالمركب من المسافرين يشخصون
بابصارهم الى جهة من الافق وقد كثر بينهم اللغظ وكأننا رأوا
شيئاً من السماء سقط والبعض ينظر ببصره والبعض بيده نظارة
فلاح من الشيخ التفاتة فنظر الى الجهة التي ينظرون اليها فرأى
دخاناً كثيفاً صاعداً الى السماء مختلطاً بلهب ولبعده كان يظهر
له انه يخرج من الجرفدهش من ذلك وعن مسألة المرحان
اعرض وسأل الانكليزي عن هذا الذي في الافق تعرض
فقال له ان هذا الذي رأيته دخان يخرج من احد الجبال
النارية ويعرف بجبل اتنا عند اهل الجغرافية وهو بالقرب من
جزيرة تعرف بجزيرة سيسيليا وهي صقلية وهناك جبال اخرى
بالبحر الابيض بعضها طفيء من زمن والبعض امتد الى الآن
مثل جبل ويزوف بالقرب من جزيرة تعرف بجزيرة سردينا
فقال الشيخ قرأت في بعض الكتب فوجدت فيها نحو ذلك
وهوان برية من الشام تفجرت وخرج منها دخان اقام بعض
ايام ثم طفيء وسمعت من بعض اخواننا الواردين على الازهر

قدرها الحق جل جلاله وعز شأنه وكاله فيتكون منها هذه المادة اللطيفة واللون العجيب

ومن تكرر الاستكشاف ظهر ان الحيوانات المكونة للفرع الواحد تارة تكون من محض الذكور وتارة من محض الاناث وقد يتحد الذكر مع الانثى في الفرع الواحد وان الانثى تقذف بيضها من فيها ففي المبدأ يكون ديداناً صغيرة جداً ثم يتدبىء في النجس واخذ الشكل الحقيقي شيئاً فشيئاً وكما يوجد المرجان بافريقيا والاندلس كذلك يوجد بسواحل ايتاليا وفرانسا وكيفية استخراجة عند الجميع واحدة تقريباً وذلك ان المركب المخصصة لذلك مصنوعة بغاية الاحكام وكذلك الاشخاص المستعدة لاجراجه اولوا قوة لمعاونة المشاق لانه يحتاج لتجربة وتعود على معرفة محاله واما الآلة المستعملة لذلك فهي عبارة عن صليب مركب من قطعتين من خشب معلق بهما حجر ثم يربط فيها الشباك المعدة لذلك ويعلق في ذلك خطاطيف لتمسك جميع ما يعثر به فاذا ظن الصيادون وجوده يحمل رموا شبابهم فيه ثم يسبرون الى امام او خلف ومعهم دواليب ارفع الآلة بكيفية يعلمونها فياخذون ما تعلق بها وينظفونه

منها نحو المركز صعب قابل للكسر وهو الذي تستعمله الصاغة
 والجمهورية فهذا في الأصل حيوان واحد نبت فوق صخرة فتولد
 منه غيره ومن الغير غيره وهكذا حتى يتكون فرع صلب لا تتغير
 صلابته في قاع البحر ولا في الهواء بل صلابته فيها واحدة كما قيل
 والحيوان المذكور اسطواني الشكل ايض اللون يعلو طرفه ثمانية
 افرع على كل منها شعرات خفيفة دقيقة جداً وفي الغالب تكون
 الفروع او الاوراق متحركة وكثرة احساسها تنطبق وتنضغط بعض
 الاوقات اذا كان التأثير الواقع عليها كبيراً وتغيرت اتجاهاتها وتارة
 تنطبق على الجسم ويظهر في وسطها ومن اعلاها فتحة صغيرة
 كسنتين هي فم ذلك الحيوان ومنه يتجه داخل الجسم قضيب
 اسطواني يتد الى وسطه بحيث يرى كأنه معلق به وارتباطه من
 الفم بثنيات واصلة من فروعه الثمانية بالانتظام وكل من هذه
 الثنيات مقابل لاحد الفروع على الاحكام فالجزء الظاهر هو ما
 يسكنه الحيوان وبينه وبين الجزء المركزي علائق قوية من حيثية
 التغذية والتكوين لانه مركب من منسوج دقيق محيط بالجسم ومن
 انابيب مختلفة الغلظ فالاكثر غلظاً ملتصقة بالمركز والاقبل منها
 فوقها والمنسوج فوق الجميع والمادة الغذائية تصل اولاً للمنسوج
 الظاهري ومنه الى ما تحته وهكذا حتى تصل الى المنافذ الملاصقة
 للمركز بمعنى ان المادة المكونة له لا تصل الى المركز الا بعد استيفاء
 كل قناة ومنفذ قسطها فتمر من السطح الى ما تحته الى المركز بكيفية

في سياخه من سواحل افريقيا صيادي المرجان فاخرجوه له
 فاطلع عليه وامتنحه امتحاناً تاماً بان وضعه في اجانة وملاًها بالمياه
 البحرية ونظر اليه بالنظارة المعظمة فرأى حيوانات كثيرة خرجت
 منه حية وتجمعت فكادت تشبه الازهار فمن ذلك ظهر له ان
 الازهار التي اشيع عنها انها اغصان المرجان عبارة عن هذه
 الحيوانات الصغيرة وان المرجان لم يكن الا بيوتاً تصنعها هذه
 الحيوانات لما واها ولما ثبت عنده صحة ذلك بالامتحان اعلن به
 مجلس العلماء فشاع ذلك بينهم لكن لم يصدقوه لجزمهم بصحة ما
 قاله لم التلياني اولاً ومع ذلك فقد اشتهر بين الناس ما ظهر
 للحكيم فصدقوه لانه لم يقل ذلك الا عن امتحان فبين من ذلك
 صحة قول الحكيم من ان الازهار لم تكن الا عبارة عن حيوانات
 صغيرة جداً تظهر على ظاهر العود متى غمر بماء البحر المالح بعد اخراجه
 من البحر فعند ذلك يظهر فوق سطحه نقط شكلها نجوي مركب من
 ثماني اوراق منفصلة عن بعضها في اخر كل ورقة شعور دقيقة
 كالاهداب فمن ذلك الوقت بطل الاعتقاد القديم وثبت عند
 الجميع ما قاله هذا الحكيم فتراه يتفرع فروعاً كفروع الاشجار
 الصغيرة لونها احمر وصلابتها كصلابة الحجر الاصم قابلاً للجلاء
 ومقطعه يشبه مقطع بعض النباتات مركب من طبقات ثلاثية
 متحددة المركز وما يكون منها نحو الظاهر هش قليل الصلابة لونه
 احمر وفيه عيون صغيرة هي مساكن تلك الحيوانات وما يكون

فيكون ما حكيم في المرجان ليس موضعاً للانكار غير ان صورته وكونه فروعاً واغصاناً تخرج منها ازهار تقرب القول بانه نبات

فقال الانكليزي يا حضرة الشيخ ان اعتقاد الاورباوين كان كاعتقاد الام الماضية انه نبات كما هو مذكور في كتب اليونانيين والرومانيين والهنود والصينيين وغيرهم فجميعهم كان يزعم انه نبات ينبت في قاع البحر ليناً ثم يتجهد وفي حالة كونه في الماء تفعل فيه الامواج كما تفعل الرياح بالاغصان البرية فيتميل نحو الشمال واليمين وجميع الجهات لكن لا يخفى على حضرتكم ان كثيراً من الاعتقادات القديمة بطل الان بالكلية بسبب الاستكشافات الجديدة وكذلك كثير من الامور النظرية والتواعد العلمية صارت لاغية لا اعتداد بها بسبب ما حصل من التقدم واتساع دائرة معلومات الخلق فبعضها وجد باطلاً لا اصل له والبعض هجر واستعيز عنه باحسن منه ومن ذلك مسألة المرجان وحقيقته وكيفيته ففي اوائل القرن الثامن عشر للميلاد اخبر احد علماء ايطاليا انه استكشف زهر المرجان واتشر عنه ذلك في جميع البلاد وكتب به مرسوم الى مجلس العلماء هناك وارسل مع المرسوم فرع منه وعليه ازهار وبناء عليه ظن العلماء حين ذاك انه قد ازيل الشك واتضح الحق وثبت عندهم ان المرجان نبات لانه لو لم يكن كذلك كيف يكون وجود الازهار به ثم في سنة ١٧٢٥ احضر احد حكماء الفرنسيين

وسلم الى ناحية ساحل البحر فنجد زادهم فينما هم يوماً يتظرون رزق الله اذا هم بذاك الحيوان طافياً على وجه الماء فاخرجوه واكلا منه ثمانية عشر يوماً وماءوا مزادهم واجربتهم من شحمه وقديده وحين ارادوا الانصراف الى المدينة امر امير الجيش ان ينصب ضلع من اضلاع تلك السمكة فكان كالقنطرة ومرتحنه اطولهم راكباً نافقه ولكن كثرة الخلاف في الشيء تؤدي الى الجهل به او الشك في حقيقته . وكالمرجان مثلاً فقد نقل عن ارسطوانه نبات وعن غيره انه معدن من قبيل الياقوت والماس والمغناطيس وانه يستخرج من سواحل افريقية ونقل المفسرون عند قوله تعالى (يخرج منها اللؤلؤ والمرجان) عن ابن عباس ان المرجان صغار اللؤلؤ وان كبار اللؤلؤ يسمى دراً وعن ابن مسعود ان المرجان الخرز الاحمر فهذه هي الكلمات الدائرة بين الناس في امر المرجان انما حيث كان سر الحياة سارياً في جميع الموجودات حسب استعدادها وما يناسب موضعها فلا يبعد شيء مما قيل فيها ومن ذلك ما يحكى ان السمند حيوان يشبه خالق الطائر يخلقه الله في النار وبها حياته وله وبر حريري يعمل منه مناديل وان المناديل التي تصنع من وبره اذا علاها الوسخ نلقى في النار فتخرج نظيفة كما كانت وعلى ذلك قول الشاعر

لو أصلي الياقوت نار صبايتي * لتغيرت احواله وصفاته
او قرب الطير السمند لمهجتي * لقضى عليه وعطلت حركاته

النامة وبعد زمن ترتفع فوق الماء وتكون تلك الحشائش جزيرة
وارضاً يسكن بها الانسان ويعمل بها آثاراً عجيبه فانظر لحكمة الله
وعظته

فقال الشيخ قد اكثر الناس من وصف العجائب البحرية
ونقلوا انها اكثر من العجائب البرية وما ذلك على الله بكثير فاشد
الاشياء قوة واكبرها جسمًا لا يزيد في الخلق على الضعيف الصغير
وقد اختلف الناس في كثير من الاشياء التي تجلب من البحر كالعنبر
فمن قائل انه بعض فضلات حيوان بحري استحبال الى صلاح
كاستحالة الدم لبنًا في البهائم ومسكًا في بعض الغزلان ومن قائل
انه صمغ نبات ياكله ذلك الحيوان فيبقى الصمغ في ثمه فيلفظه
وتجده الناس في السواحل ومن قائل انه مادة تكون بنفسها في
قاع البحر وتبلغ مقادير عظيمة حتى تصير كالصخور فيبتلعها الحيوان
المشهور عند اهل عمان ونواحيها بالافال وهو الذي تسميه العرب
العنبر فاذا ابتلعها قتلته وعند ذلك يطفو على وجه البحر فيراه اهل
تلك الجهات فياخذونه ويستخرجون تلك المادة من جوفه وتارة
يهيج البحر فيقذف بالعنبر على السواحل واهل الشحر من بني مهرة
وهم الذين تنسب اليهم الابل المهرية يركبون ليلا في طلبه فيقال
ان النحيبه من الابل اذا احست بالعنبر بركت فيطلبه راكبها وياخذه
وذلك الحيوان الذي يقال انه يتلع العنبر ربما يبلغ طوله اربعائة
ذراع فاكثر ويروي ان جيشًا من الصحابة بعثهم النبي صلى الله عليه

ما تحار فيه العقول فانه تارة يصنع بيوتاً فترتفع من قرار البحر الى
 سطح الماء ويمد طبقات وما يستعين به في عمل تلك البيوت من
 المؤنة لا علم للانسان به ولا بكيفيته ولا تركيبه فسبحان من خلقه
 وابدعه وفي قرار البحار اودعه وبسبب حسن شكل هذه المنازل
 الفاخرة والوانها العجيبة الزاهرة اشتغلت بها افكار المخلوق في جميع
 الازمان وتنج من ذلك خرافات كثيرة ومن المستغربات ان هذا
 الحيوان الدقيق لا يصنع بيته في المياه ذات اللجج الكثيرة الامواج
 ويبعد عن المياه الكدرة والراكدة واول اساس يصنعه في عميق
 الماء ومن سنة الى اخرى وقرن الى قرن اخر يصل الى ان يخطط
 بمساكنه وبيوته الصخرية ساعات عظيمة من قاع البحر وفي بعض
 الجهات يوجد داخل هذه الصخور بحيرة متسعة لا يكون للرياح
 ولا للامواج عليها ادنى تأثير وتكون في هدوء وسكون دائمين ومن
 عادة هذا الحيوان ان لا يعلو بمساكنه سطح الماء وذلك لانه متولد
 منه فهو ملحق بالحيوان البحري ولا طاقة له بمقاولة الهواء والشمس
 وكثيراً ما ترى هذه الصخور في البحر عند دائرتي الانقلاب في صور
 واشكال عجيبه ويرى في وسطها هذه الجوائر الراكدة وحوها الامواج
 الهائلة تتصادم وربما سمع للبحر قرقعة ودوي عظيم وفي داخل
 الادوار التخنية وعليها تجلب امواج البحر جنوباً وحشائش من
 اجناس متنوعة فيها بيض طيور مختلفة الجنس وكثير من انواع
 الحشرات والطيور بأوي البها وتربي بها صغارها مع الامن والراحة

ما بين نبت الماء والقراصي الاصلية وكتب الجردا العيون الرصاصية
 والنمرذا المعرفة والذكاء والترمسة كلاً في مكانه ومحل راحته وما منه
 وما من نوع منها الا وهو راصد لغيره اما لتحصيل قوته واما للفرار
 من عدوه فهذا بمغزاه راصد لتحصيل غذاه وهذا خائف من اعداء
 غيره واذاه فهذا بقوته يكر وهذا بضعفه يفر ومع ذلك ففي الماء وتحت
 الغابة وعلى فرووعها وخلال اشجارها محاربة مستمرة بين الطوائف
 كافة ولو امعنت النظر لوجدت اموراً اخرى غريبة وهي انك ترى
 انواع الحمار مجتمعة متلاصقة منها الكبير ومنها الصغير ولا تسأل
 عما جاورها ولا تشتغل بما بعد عنها بل هي مقيمة في مقرها غير محتاجة
 الى الانتقال ولا تخشى من تقلب الاحوال عالمة كغيرها بان الله
 خانها ودبر لها رزقها كما دبر لغيرها وبقدرته تعالى جعل لها قماً
 فتكتفي بما تاخذه من الماء بما يلزم لها في تجديد الهواء وشفاء الدم
 وغير تلك الانواع والاجناس من المخلوقات ويوجد في البحر عوالم
 لا يوجد مثلها في البر ومنها الحيوان المسمى بالمرجان فقد قيل انه
 اول ما ينشأ يظهر فوق حجر من الاحجار القارة في قاع البحر فرع
 يشبه اصلاً نباتياً مسكون بحيوان ثم يخرج غيره ويذهب مثل الاول
 وهكذا فيتكون على طول الزمن وتوالي الطبقات عود المرجان
 وقد شوهد فرع من هذه الفروع عليه حيوان صغير جداً شكله
 الظاهري يشبه زهر النبات في شكله ولونه ومن دأبه ان يخرج من
 المحجر ويعود اليه وهذا الحيوان وان كان صغيراً جداً لكن يفعل .

تفكها ومنها ما ينفع لداء الصدر وكثير من الطيور لا تقتات إلا
منها وذلك في بحر الهند ومنها نوع سكري يمتد الى عدة اميال
فروعه رفيعة كالخيط وورقه عرض اليد ويستخرج منه عصارة
سكرية ويوجد على سطح البحار القطبية الشمالية حشائش طولها الف
قدم واوراقها حمر وردية يحملها الماء بواسطة شبه عوامات موجودة
تحت عقد الفروع تمنعها من الانغاس وفي بعض الجهات شوهد
حشائش شبيهة بشجر التفاح ذات فروع حاملة مقداراً عظيماً من
الفاكهة وجذورها متماسكة بالصخور واوراقها مدلاة في فروع تشبه
فروع شجر الصنّاف ومع هذا كله ففي قاع البحر انواع مختلفة
لا يحصرها الا موجدوها ومن اجتماع هذه النباتات مع بعضها
تحدث اشكال غريبة ورسوم هندسية عجيبة فمنها ما يلتصق ببعضه
فيكون قباًباً كروية كبيرة تارة وصغيرة اخرى ومنها اشكال مخروطية
فتارة تكون شكلاً هرمياً مربعاً او مثلثاً ومنها ما يسبح على سطح الماء
ويكسو منه جزءاً عظيماً فيمنع نفوذ الضوء والحرارة ومنها ما يكون
خامات منفصلة عن بعضها وتارة متقاربة تجمعها اخرى وبسبب
كثرة الالوان والاختلاف في الطول والشكل وكيفية التعشق
والتداخل يتشكل منها هيئات وتكون لعالم البحر كالمدن والمساكن
ياوي اليها ويتحصن ببعضه من بعض ويتقي بها من شره ومن
يبصر تلك الغابات ويتاملها يرى اموراً عجيبة تدهشه لانه يرى على
اغصانها ديداناً تسبح نحو الوراق لتتغذى منه ويرى عجل البحر جاثماً

في كل عام الوفا مؤلفة من كلاب البحر لاخذ دهنها وزيتها وفي
البحر من النباتات ما لا نهاية له فمنها ما ياخذ في شكله صوراً
متعددة ويتلون بالوان مختلفة لطيفة حتى يتكون منها بساتين
عظيمة تفوق في ظرفها البساتين البرية وكما تميل اغصان الاشجار
البرية تبعاً للرياح كذلك تميل اغصان النباتات البحرية تبعاً
لامواج البحر حتى انها في بعض الاحيان تطلع من اصولها وتسير
الى مسافات بعيدة وتتراكم ويتركب منها طبقة كثيفة فتغطي جزءاً
عظيماً من البحر وربما منعت السفن من العبور ومواضع هذه
النباتات معلومة فمنها ما يكون ثابتاً بالصخور فلا تؤثر فيه الامواج
ولا تقلعه الا ومعه صخوره ومنها ما ينبت بالقرب من السواحل
واذا نبت بعيداً عنها لا يتجاوز في بعده اربعين باعاً وتنت في
جميع البحار ولكن الاكثر ان هذه النباتات لا تكون الا في البحار
الجمهورية فتنت فيها وتمتد الى نحو الف وخمسمائة قدم وتارة تمتد
على سطح البحر وتغطي ماء بالكلية وتستره حتى تكون سمعتها ثلاث
مائة ميل في العرض وتنتشر الى خمس وعشرين درجة في العرض
وقد قطع (كولومب) ثلاثة اسابيع كاملة في مروره منها حين
ذهب لاستكشاف الامريكا وهذه الحشائش عبارة عن مادة هلامية
اي لزجة مغطاة بقشرة كالجلد وتتشعب الى ما لا نهاية له وكل
شعب يتفرع كذلك وهكذا حتى يتكون من ذلك شعاب عظيمة
والجميع يسميها بالوراني وفيجة الاطراف ومنها ما ياكله الانسان

النوع يكون في جميع طباق البحر ولكل من هذه الحيوانات
والديدان بقاع تسكن بها وطرق تسلكها عند انتقالها تابعة في
سيرها تيارات مجهولة تنتقل من الاقطاب الى دائرة الاستواء ومن
قطب الى قطب ومن الغريب ان الهائشة التي جرمها قدر جرم
الفيل خمس مرات فاكثر تحتاج لهذه الديدان لغذاءها فلا يهنا لها
عيش الا بالحصول عليها فتراها تهاجر خلف هذه الديدان وتسير
مسافات بعيدة حتى تحصل منها على ما يلزم لها

فانظر لحكمة الله التي احوجت العظيم للتحير حتى الهائشة التي
هي اكبر حيوان صارت محتاجة في غذائها لاحترشيء وهو الديدان
ولم يكن في جميع انواع المخلوقات ماله اكثر ميلاً للاسفار من السمك
فمنه انواع تنحدر الى الجهات الجنوبية واخرى تصعد الى الجهات
الشمالية وهذه تنجبه الى الشرق وهذه الى الغرب وبعد ان يقضي
كل اربه يرجع الى ما هاجر منه ثم يعود مرة ثانية في وقت اخر
وبعضها يخرج من البحر والماء المالح الى النهر والماء العذب
كالسردين اي صغير السمك وربما كان في كثافة عظيمة بحيث
يمنع جريان الماء ومنها ما يكون في غاية الملازمة فلا يكون للسارة
عليه تأثير وما تاكله الطيور وما يموت شيء لا يحصى ومع ذلك فما
يجري تليجه وادخاره لاجل الائتداه به عند الحاجة اليه اكثر وفيه
اكبر المخلوقات ومنه الهائشة وقد مرت والدر فيل والترمسة التي
تبلغ الف امة فاكثر وسكان جزائر البحر المحيط الجنوبي يضطادون

وطيور فكذلك يكون في البحر ما يشبه الذئب وما يشبه الاسد
وما هو كصاحب السيف وما هو كصاحب السنان وغير ذلك
وربما كانت اشد افتراساً وقسوة ولما عندها من الحيل تراها
تغتال في الدفعة الواحدة الوفا مؤلفة من الانواع التي اعدّها
الله لقوتها ومع ذلك كله فلا يسمع لها صوت ولا وجيب وغاية
الامر انه يظهر في بعض الاحيان على سطح الماء كلون الدم وترى
اسماك مقتولة عائمة فوق سطحه فيكون ذلك علامة على معركة
او مقتلة جرت بين طوائف الاسماك في جوف البحر

فقال الانكليزي كذلك وقد شوهد امور اخرى غير
هذه وهي ان ماء البحر يتلون بالوان مختلفة فيكون باللون
الزيتوني كما في البحر المحيط الجنوبي ويكون اخضر كما في سواحل
العرب ويكون وردياً كما في جهة الكاليفورنيا بالامريكا واحمر
كما في البحر الاحمر وجميع هذه الالوان قد تكون مكتسبة من
الوان النبات والاعشاب النابتة في بتاع بحار هذه الجهات او من
الوان الحيوانات الدقيقة المحسوسة المتخللة بين جواهر الماء فيكون
اللون شديداً او غير شديد تبعاً لتكاثف الطبقات وتراكم هذه
الحيوانات وهناك حيوانات تجعل لون الماء اسود كما في جهة
مالديف واخرى تكسبه لونا ابيض كما في جهة غينه واغرب من
هذا كله ان هناك نوعا من هذه الحيوانات له لمعان شديد ومتى
اجتمع مع بعضه ظهر على سطح الماء لمعان يشبه ضوء النار وهذا

الاشكال وبطل هذا الاعتقاد وما بني عليه من الاقوال
 فقال الشيخ ان من يطلع على ما في داخل الجار وينظر
 اسكان طباقه بيمين الاعتبار وما كمن في خلال قراره ونجوده
 واغواره واجام الاعشاب الطافية على سطحه علم قدرة القادر وعظم
 شأنه وخضع لجلالته فثم ما لا تسعه العقول ولا تفهمه بحصره
 ارباب النقول نرى بحارا عميقة وبها حيوانات هائلة واخرى دقيقة
 لا يعلم منتهاها الا الله فيها وحولها بواقى ما ابتلعه البحر من مخلوقات
 ومعادن ومصنوعات ومكان ما ابتلعه من الازمان السابقة فترى
 الآت الحرب وبواقى القتل وقطع السفن وكذا الذهب والفضة
 اللذان هما نقود الامم السالفة واللاحقة ومعادن مختلفة كل ذلك
 تحت الصخور وفي فجوات البحور

وفوق ذلك وتحته وداخله انواع مختلفة من المخلوقات باشكل
 وصور وكيفيات لا نهاية لها فمنها الحيوان الدقيق الذي لا يرى
 وما هو اكبر منه وهكذا الى الهاشمة التي لا شبيه لجسمها في
 المخلوقات الارضية وما يستغربه الانسان دوام المعركة بين جميع
 هذه الانواع وبعضها فتارة تكون طاردة وتارة تكون مطرودة
 وتارة آكلة وتارة مأكولة وتارة غالبية وتارة مغلوبة هذا دأبها مع
 بعضها في جميع فصول السنة وبهذه الكيفية يكون تحت طباق
 الماء سواء كان في هده او سكون محاربات ومحاورات وهجوم
 ومدافعة وممانعة ووجوم وكما يوجد على الارض انواع حيوانات

الصنديل يمكنه ان يغمس احدى يديه في الماء البارد من جهة
ويده الثانية في الماء الحار من الجهة الاخرى وكم من عجائب خفية
تحت طباق الماء يمر فوقها الانسان ويقطع جميع هذه البحور ولا
يحصل منه ادنى التفتات اليها ولا شعور ولا يعلم ما في قراره من
الغابات التسعة والوديان المظئنة والجبال المرتفعة والبراري الهائلة
فكم في قاع البحور من ارتفاعات ووهداث وانخفاضات وكم فيه
من صحاري ووديان ومغارات وصخور فتارة يكون بسيطاً عظيم
الاستواء مجرداً عن النبات في بعض الجهات وتارة يكون عامراً
بالنبات والعشب في جهات اخرى وترى قاع البحر كسطح الارض
فيه المرتفع والمنخفض والتحلل والنخس وقد شوهد في جزيرة
ستمبيلينه بالمحس ان عمق البحر اربعة عشر الفا وخمسة وخمسون
قدماً وعند القطب الشمالي وصل المحس الى عمق ستة وعشرين
الف قدم وستائة قدم وذلك عبارة عن خمسة اميال وهذا
الغور لا يوجد مثله في سائر البحار التي على سطح الارض وفي
هذا العمق العظيم ترتفع جبال وصخور وجزائر وغيرها

وكان شاهد ان سطح الارض دائماً في التغير فبعضه يرتفع
وبعضه ينخفض فكذلك قاع البحر وذلك محسوس خصوصاً في
البحر المحيط الجنوبي فقد ثبت علماً ومشاهدة ان استواء الماء في
المحيط ثابت وان الارض هي المتغيرة خلافاً لرأي المتقدمين فانهم
كانوا يعتقدون عكس ذلك وقد انقطع الان هذا الشك وزال

من ذوي العلم وهو تأثير حرارة الشمس الذي يكون به الماء سائلاً فان الماء كسائر الاجسام قابل للتخلخل والتكاثف فاذا زاد تأثير الحرارة فيه تتخلخل وكبر حجمه وخف حتى يصير بخاراً مناسباً للهواء واذا نقص تأثير الحرارة فيه تكاثف وصغر حجمه وثقل حتى يكون وزن ذراع من حار اقل من وزن ذراع ما دونه في الحرارة ولا يزال الماء سائلاً ما دامت حرارته في الدرجة الثالثة فما فوقها فتمت تقصت عن ذلك صار بازياد تكاثفه مادة لزجة وكلما اخذ في البرودة ازداد جموده وخفته حتى يصير حجراً مناسباً للارض فالماء جوهر دائريين ان يكون ارضاً وان يكون هواً متبادلاً عليه الجمود والسيلان والثقل والخفة وكل ذلك ناشيء من صحبة الحرارة له وامتزاجها به ومن مفارقتها اياه وخلوه منها ثم انه علم بالتجربة ان الحرارة انما تصل من عمق البحر الى غاية ثلاثة آلاف وستائة قدم

وبناءً على هذا القانون فسطح البحر دائماً في حركة مستديمة وتبادل بين طبقاته فتمت ثقل بالبرودة نزل الى اسفل وصعد ما تحته فووقه وكل ذلك ناشيء عن تغير الحرارة واختلفها في درجاتها ومن هنا نشأت التيارات العظيمة الحارة والباردة التي تشاهد على سطح البحر في كثير من الجهات فان السياحين شاهدوا ان حرارة ماء التيارات المذكورة ثمانى درجات مع ان درجة حرارة الماء الراكد الملامس لها احدى وعشرون ولذلك قالوا ان راكب

ثبت علماً وعملاً ان القمر بسبب قربه من الارض يؤثر على سطح
 البحر المحيط فيجذب ماء نحوه فيحدث من ذلك تموجه ثم يرتفع
 بعض اقدام فوق سطحه ثم يسير على اتجاء الكوكب في جوف
 السماء وبعد ان يقطع مسافة في سيره ينصدم بين ارض هولاندة
 وبين ارض اسيا الجنوبية وبسبب انحساره ينساب التيار بقوته
 وينقسم الى تيارين احدهما يتجه جهة سواحل الافريقية وبعد ساعة
 من ظهور القمر تكون تلك الامواج وصلت الى ارض فاس
 ومراكش وبعد ساعتين تكون بينغاز الطارق وتمر بسواحل بلاد
 البرتغال وفي الساعة الرابعة تكون وصلت الى السواحل القربية
 من بلاد الانكليز ولا تصل الى سواحل ارض اسويج الا في الساعة
 الثامنة لانها لتعطل في سيرها بالجزائر الموجودة في بحر الشمال
 والثاني ياخذ اتجاء سواحل امريكا الغربي بسرعة فيقطع في الساعة
 الواحدة مائة وعشرين ميلاً ومتى تصادم بارض السواحل المذكورة
 اتجه الى الشمال فينجس هناك بين جزائر متعددة فترتفع امواجه
 ارتفاعاً يقرب من ثمانين قدماً ويكون اكبر من ارتفاع الامواج
 التي تحدث عند اعظم الفورتونات بخمسين قدماً لانه لم يعلم الى
 الان ارتفاع الامواج باعظم العواصف اكثر من ثلاثين قدماً كما
 ذكر في التواريخ

والقانون الثاني وان كان ثابتاً بالعلم ولا شك فيه لكن
 اكثر الناس تجاهله لانه غير مخبرين ولا يدركه الا اولوا الابصار

الثوب فهي الخريق فاذا كانت حارة فهي الحزور ليلاً والسمور
 نهراً فاذا كانت بين بين فهي السبع فاذا لم تلغ شجراً ولم تسبق
 مطراً فهي العقيم فاذا كان هبوبها من المشرق فهي الصبا وعن
 يمين المتوجه للشرق الجنوب وعن شماله الشمال والشمال ومن
 المغرب الدبور فاذا خرجت بين مهبي ريحين من هذه الأرباع
 فهي النكباء فان كانت بين الجنوب والصبا فهي الجربيا بكسر
 الجيم وان كانت بين الصبا والشمال فهي الصابية وان كانت
 بين الشمال والدبور فهي الازيب كجعفر وان كانت بين الدبور
 والجنوب فهي الهيف بفتح الهاء وكانت العرب تنادي بها لكونها
 تيبس النبات وتعطش الحيوان وتنشف الماء وفي المثل ذهبت
 هيف لاديانها يضرب لسيء الاعمال اذا جرى على عوائده ولبعضهم
 نظم الاصول والنكب وهو هذا

صبا ودبور والجنوب وشمال

بشرق وغرب واليمين وللضد

ومن بينها النكباء ازيب جربيا

وصابية والهيف خاتمة العد

فشكره على ما افاد ثم قال ان اثار الحرارة التي عليها مدار
 ما اسفلنا شرحه هي احد القوانين التي بها ربط الله جميع احوال
 البحر

القانون الاول المجذب الواقع على البحر من الكواكب فقد

وإنما يقال للرياح البحرية قواصف لأنها قد تفعل القصف وللرياح
 البرية عواصف لأنها قد تحمل العصف وهو ما ييس من أوراق
 الأشجار وكلاهما ليس من قبيل الاسم بل من قبيل الوصف كما
 يقال للرياح التي تلعق اناث الأشجار من ذكورها اللوائح والمختلفة
 الشديدة المحواشك والحارة في الصيف البوارح والتي تقدم المطر
 فتجيء بلبلة المبشرات والتي مع المطر المعصرات والتي تثير الاغبرة
 الأعاصير والتي تحمل السفا وهو دقيق ما تحت من النبات
 السوافي وهذه الاسماء أكثر ما وردت بلفظ الجمع ويقال للريح
 اذا هبت لينة الريدة والريدانة والنسيم فاذا تباغت مستمرة في
 الرخاء واذا سمع لها صوت كحنين الابل فهي الحنون فاذا ابتدأت
 بشدة في النافحة والسيهج والسيهوج والسهوج فاذا سمع لها مع
 الشدة صوت فهي الزفازف فاذا اشتدت حتى قلعت الخيام فهي
 الهجوم فاذا زادت حتى قلعت الأشجار او دون ذلك بتليل فهي
 الزعزع والزعزاع والزعزعان واذا حملت الحصباء اى الحصى فهي
 الحاصب فاذا درجت حتى ترى لها ذيلاً في الرمل كالرّسن
 فهي الدروج فاذا كانت شديدة المرور فهي التّوّج فاذا اسرعت
 فهي الجفل والجافلة فاذا هبت من الارض نحو السماء كالعمود فهي
 الأعصار والزوبعة فان حملت غباراً فهي الهبوة فان حملت التراب
 وترددت به ويسمى المرر بضم الميم فهي الهوجاء فاذا هبت باردة
 فهي المحرجف والمصرصر والعربية كغنية فان اشتدت حتى خرقت

فقال الانكليزي ان الانسان مع كثرة اشغاله اللازمة لحفظ حياته على قصر عمره لا يمكنه ان يحيط بتحقيق جميع فنون العلم مع كثرتها وتشعبها واخلاف الآراء والمذاهب في اصولها وفروعها وغاية ما يمكن للانسان البازل وسعه واقصى همته ان يتقن الفن او الفنين ومن ذلك كان الناس حسب الوضع الالهي منقسمين الى الطوائف فكل طائفة اشتغلت بما استعدت له واراده الله منها على تفاوت افرادها في ذلك فتمت منافع الناس واستقام امر وجودهم فكان مجموعهم بمنزلة شخص واحد يصرف اعضائه في مصالحه فلم يكن لطائفة ان تنكر على طائفة افكارها واعمالها كما انه ليس للرأس ان ينكر على اليد اعمالها التي لاجلها خلقت بل على كل طائفة ان تكل علم ما جهلت الى الفرقة التي بذلت همتها وانضت اجسامها في تحصيله وتشييد اركانه واطاعة برهانه لا يزري احد على احد عمله ولا ييادر كالاغمار بانكار ما جهله فتبين من ذلك ان الواجب على علماء الملة ان يتقنوا اصولها ويحفظوا فروعها غير متعرضين لاقوال غيرهم واعمالهم لا بالتسليم ولا بالانكار ما لم يوافق او يخالف ما ثبت عندهم بالبراهين الموجبة لم علم اليقين او يتعرض بعض الاغرار كما حكيم لنقض اصل او ابطال فرع وكان قد سبق بين حضرة الشيخ وصاحبه معاهدة على انه متى سمع منه كلمة غير موافقة للغة ارشده اليها واتم الفائدة بحكاية اشكالها فقال الشيخ جرى في كلام حضرتكم لفظ عواصف الرياح

يكونون تحت الغمامة يطرون والذين يكونون فوقها يكونون في
 الشمس واما اذا كانت الابخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فاذا
 ضربها برد الليل كثفها وعقدتها ماء محسوساً ونزل مبلولاً متفرقاً
 لا يحس به الا عند اجتماع شيء يعتمد به فان لم يجهد كان طلاً
 وان جمد كان صقيعاً ونسبة الصقيع الى الظل نسبة الثلج الى المطر
 واما تكون السحاب من انقباض الهواء فذلك عند ما يبرد الهواء
 وينقبض وحيث تحصل منه الاقسام المذكورة والجواب انما لما
 دللنا على حدوث الاجسام توصلنا بذلك الى كونه قادراً مخزناً
 يمكنه ايجاد الاجسام لم يمكننا القطع بما ذكرتموه لاحتمال انه سبحانه
 خلق اجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الذي ذكرتموه وايضاً فهب
 ان الامر كما ذكرتم ولكن الاجسام بالاتفاق ممكنة في ذواتها فلا
 بد لها من مؤثر ثم انها متماثلة فاخصاص كل واحد منها بصفته
 المعينة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة
 لا بد له من مخصص فاذا كان هو سبحانه خالقاً لتلك الطبائع
 وتلك الطبائع مؤثرة في هذه الاحوال وخالق السبب خالق
 المسبب فكان سبحانه هو الذي يزجي سحاباً لانه هو الذي خلق
 تلك الطبائع المحركة لتلك الابخرة من باطن الارض الى جو الهوا
 ثم ان تلك الابخرة اذا ترادفت في صعودها والتصق بعضها ببعض
 فهو سبحانه هو الذي جعلها ركماً فثبت على جميع التقديرات ان
 وجه الاستدلال بهذه الاشياء على القدرة والحكمة ظاهر بين

من تكاثف البخار وفي الاقل من تكاثف الهواء اما الاول فالبخار الصاعد ان كان قليلاً وكان في الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فتلك الابخرة متصاعدة اما ان تبلغ في صعودها الى الطبقة الباردة من الهواء او لا . فان بلغت فاما ان يكون البرد هناك قوياً او لا يكون فان لم يكن تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر فالبخار المجمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والديمة والوايل انما يكون من امثال هذه الغيوم واما ان كان البرد شديداً فلا يخلو اما ان يصل البرد الى الاجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبات كباراً او بعد صيرورتها كذلك فان كان على الوجه الاول نزل ثلجاً وان كان على الوجه الثاني نزل برداً واما اذا لم تبلغ الابخرة الى الطبقة الباردة فهي اما ان تكون كثيرة او تكون قليلة فان كانت كثيرة فهي قد تتعقد سحاباً مائراً وقد لا تتعقد اما الاول فذاك لاحد اسباب خمسة احدها اذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الابخرة . وثانيها ان تكون الرياح ضاغطة اياها الى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام الريح . وثالثها ان تكون هناك رياح متقابلة متصادمة فتمنع صعود الابخرة حينئذ . ورابعها ان يعرض للجسم المتقدم وقوف لثقله وبطء حركته ثم يلتصق به سائر الاجزاء الكثيرة المدد . وخامسها لشدة برد الهواء القريب من الارض وقد نشاهد البخار يصعد في بعض الجبال صعوداً ايسيراً حتى كأنه مكبة موضوعة على وهدة ويكون الناظر اليها فوق تلك الغمامة والذين

قليلاً قليلاً ومنه البضاعة المزجاة التي يزوجها كل احد وازجاء السير
 في الابل الرفق بها حتى تسير شيئاً فشيئاً ثم يؤلف بينه . قال الفراء
 بين لا يصلح الاً مضافاً الى اسمين فما زاد وانما قال بينه لان السحاب
 واحد في اللفظ ومعناه الجمع والواحد سحابة قال الله تعالى
 (وينشئ السحاب الثقال) والتاليف ضم شيء الى شيء اي يجمع
 بين قطع السحاب فيجعلها سحاباً واحداً ثم يجعله ركائماً اي مجتمعاً
 والركم جمعك شيئاً فوق شيء حتى تجعله مركوماً والودق المطر
 قاله ابن عباس وعن مجاهد القطر وعن ابي مسلم الاصفهاني الماء
 من خلاله من شقوقه ومخارقه جمع خلل كخيال في جمع جبل
 وقرىء من خلله والمسئلة الثانية اعلم ان قوله يزوجي سحابا يضمحل
 انه سحابه ينشئه شيئاً بعد شيء ويضمحل ان يغيره من سائر الاجسام
 لا في حالة واحدة فعلى الوجه الاول يكون نفس السحاب محدثة
 ثم انه سحابه يؤلف بين اجزائه وعلى الثاني يكون المحدث من
 قبل الله تعالى تلك الصفات التي باعتبارها صارت تلك الاجسام
 سحابا وفي قوله ثم يؤلف بينه دلالة على وجوده متقدماً متفرقاً اذ
 التاليف لا يصح الاً بين موجودين . ثم انه سحابه يجعله ركائماً
 وذلك بتركب بعضها على البعض وهذا مما لا بد منه لان السحاب
 انما يحمل الكثير من الماء اذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من
 عجائب خلقه ودلالة ملكه واقتداره قال الطبائعيون ان تكون
 السحاب والمطر والتلج والبرد والطل والصقيع في اكثر الامر يكون

بالاستدلال على حدوث العالم ونسبة جميع الحوادث ابتداء للاحكام
الحاكمين مقررین ذلك بين العامة والخاصة حتى صارت كتب
الفلسفة منكراً والمشتغلون بقراءتها كفرة واشتد ذلك في القرون
المتوسطة حتى كان يكتب في عهود تولية الخنسين امرهم والتشديد
عليهم بالتفتيش عن تلك الكتب والهجوم على بيوت من يعلم ان
عنده شيئاً منها وكان ذلك سبباً لتعطيل المسلمين عقولهم عن
استعمالها فيما يمكن للانسان علمه فانتدب المهرة المتوغلون في معرفة
الفنون كحجة الاسلام ابي حامد الغزالي ونصبوا انفسهم لفصل ما
يضر ما ينفع ويميزوا ما لا يصح ان يسهل من كلام الحكماء عن غيره
وسردوا ما يستحق الرد ووضعوا في ذلك كتباً واكثرها وخطأوا
راي من اطلق القول في الانكار على الحكماء وقالوا ان هذا النوع
من نصر الدين اضر عليه من طعن الملحدين وبين كثير من فتناء
المتأخرين كجلال الدين الدواني صحة اشياء كثيرة مما ابطله نحو
الغزالي بتفصيل ما اراده المتقدمون فيه وتحقيقه فمن الطعن على
القرآن ما حكاه محقق المفسرين فخر الدين الرازي متصدياً للجواب
عنه ونص عبارته (الم تر ان الله يزجي سحاباً ثم يولف بينه ثم
يجعله ركماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من
جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء)
اعلم ان هذا هو النوع الثاني من الدلائل وفيه مسألتان . المسئلة
الاولى قوله الم تر بعين عمالك والمراد التنبيه والارجاء السوق

الازهار وبسبب ما في الارض من الجفاف تمتص ما سقط على
سطحها وتبتلعه فيجري الى مستودعات يجمع بها حتى اذا امتلات
وضاقت عن احتمال المدد الدائم التلاحق تفجرت عيونًا وطلبت
مياها الأمكنة المطيئة حسب اقتضاء طبيعة الماء واجتمعت مع
المياه السائلة من الامطار فكانت المنابع والانهر والخجان التي تمر
بالبلاد التي نساكنها والارض التي نزرعها فيكسوها ثوب الخصوبة
ويلطف الجو فيعتدل هواء البقاع وبعد ان استحوذ الانسان على
تلك المياه وجعلها في اسره وتصرف فيها على حسب رغبته ولوازم
اعماله تعود الى البحر ومعها السفن حاملة مصنوعات الانسان
ومحصولات اعماله

فقال الشيخ . شرحتم فافدتم وادعجتم فاجدتم وزدتم بيان سبب
تكون السحاب الذي يدور عليه امر الحيوان في جميع المعمورة من
اخراج غذائه وتلطيف هوائه وايداء نمائه وتحسين روائه فما احسن
هذا الكلام كاشفًا عن حقيقة المرام غير ان اناسًا من ضعفة العقول
ليس لهم من العلم كبير محصول ادعوا لانفسهم الفطنة والذكاء
وان لهم كمال الاطلاع على حقائق الاشياء بقراءة بعض الكتب
المترجمة من كلام القدماء توهموا ان قواطعها البرهانية تخالف
نصوص الشريعة الغراء وادخلوا ذلك على بعض الازهان
وتسلطوا بالطعن في محكمات آي القرآن حتى احتاج علماء الملة ان
ظهروا بصورة المنكرين على جميع كلمات المتقدمين مشغولين

بما اعطاه الله من العقل وقوة الفكر الى معرفة السياحة في البحار
 بالسفن البخارية والشرعية واستكشف كثيراً ما فيها من بقاع
 الارض وغيرها الا ان ما جهله اكثر مما علمه ففي كل يوم يوجد
 في جوفه ما لا يحصى من الخلق وهذا الهدء والسكون الذي رايته
 لم يكن الاً ظاهرياً اذ تحنه عجائب مستورة عن اعين الناس لجسامة
 طباقه وغور اعماقه فلا تمر عليه لحظة من الزمن الا وهو في فعل
 مستمر وحركة مستديمة منها تأثيره على الكرة الارضية فتارة يوتر في
 الطبقات الظاهرة وتارة في الطبقات الباطنة ويتقلبه المستمر ياخذ
 من جهة الى اخرى ومن ارض الى غيرها فاهو الاً كما مور من
 قبل الحق فما ياخذه من هذه يعطيه لغيرها وهذا دابه من ابتداء
 خلق العالم الى ما شاء الله فلا هده له ولا استقرار ولا سكون له
 بالليل ولا بالنهار ولعضمه لا يظهر لعواصف الرياح تاثير الاً على
 سطحه وهول امواجه الظاهري ليس شيئاً بالنسبة لما يحصل من
 حركة جسمه بتمامه فانه ينشا عنها ارتفاع سطحه الى عنان السماء
 وسقوطه الى تخوم الارض فتحلل منه ابخرة ترتفع الى السماء ثم يدفعها
 الريح الى جهات بعيدة فتحلل منها الاملاح وتصير عذبة وتظهر
 بصورة جديدة فتارة تكون سحاباً فيسير الى الجهة التي قدر الله
 انصابه فيها فتخصب به ارضها وتتغذى به اهلها وتارة تكون سيولاً
 جارفة فيتسبب عنها التلف والمضرات وتارة تكون مطراً لطيفاً
 واخرى تكون ندى كما يشاهد على اوراق الاشجار وبين طبقات

الاسرار فكان من كلام الشيخ ان قال مستفتحاً هذا المجال املاً ان
 يزيد علمه ويصل الى ما غاب عنه ففهم سبحان من اجمل صنعه
 واحسن كل شي خلقه واثقن وضعه واجرى مواخر البواخر تشرح
 متون الماء وسخر لعباده كل ما اشتملت عليه الارض والسما ومن
 علينا في مدة هذا السفر الحميد بغير ما كنت اخاف منه وعنه احيد
 فلقد كنت انفاً اقراء في بعض كتب الاخبار متاملاً بما تضمنت من
 عجائب الليل والنهار
 فيشتت الافكار ما قاسى الورى

من هول هذا البحر عند ركوبه
 من امواج ثلاطم ودفعات على اتساعه تتزاحم ودوائر ببعض
 السفن تدور لا يتظر من دارت عليه الالهة النشور فقد قيل
 داخله مفقود والمخرج منه مولود فنسأل الله دوام المبرة حتى تنقضي
 بالسلامة هذه السفرة كما نساله دوام العناية حتى نبلغ في كلاته
 اكرم غاية لا نرى البحر الا رهوا ولا ننظر الجو الا صحوا
 ولكن حب الاطلاع سبأ في صحبة مثل حضرتكم يهون كل صعب
 فاحب ان نتكلم في امر هذا البحر فلقد رايت في بعض ما قرأت
 ان الجهة الجنوبية من الارض مغمورة بالماء وان للبحر جرياناً مع
 كونه اخذاً نهاية تمدده متوازناً في مقره وقد ذكر لذلك اسباب
 اختلف القول فيها فما عندكم فيه فاتم ابناء البحر وعندكم يقين علمه
 فقال له الانكليزي اعلم ايها الاستاذ ان الانسان ولو وصل

مجتلاً بين أقرانه وخوجاته فميزونه ويعدونه من أهل الفضل
وإذا خرج عنها إلى أعماله وأشغاله يتقدم في درجات الشرف
ويعد من أهل العدل بحسب صداقته واستقامته وحسن إدارته
ففرح الإنكليزي بما أقامه ابن الشيخ وشكره وعظم من ذلك الوقت
شأنه وقدره حتى إنه اضمر في نفسه أنه بعد دخوله بالمدارس
يساعده ويقوم بكل ما يلزم له من كتب وأدوات وإن يجعل
له من طرفه مكافأة كل ما ظهر في ميدان الامتحان فوقاته على
الأقران وإن يغتنم فرصته ويؤكد رغبته مدة إقامته في البلاد
الأوروبية ويطلع على جميع أحوال تلك البلاد وأسباب
ثروة أهلها حتى يكون من ذلك على معرفة تامة لما يراه من الأشياء
ويقف على حقائقها وإن يريه المعامل والفبرقات وأماكن اللهو
والترسانات ليؤكد ميله ورغبته وأخبر بما اضمر إياه فأطال
شكره له وثناه عليه

المقامة السابعة عشرة
في البحر وعجائبه

ثم أخذنا في شجون الحديث وتناقلاً أخبار القديم والحديث
حتى جرى بمناسبة المجال ذكر البحار فتواصفا غرائب ما أودعته من

حارتنا هناك فوجدت بها تراتيب ونظامات النفا قلبي واخذت
بلي فمن ذلك الوقت وددت ان اكون من زمرة من بها لما فيها
من الامور المرغوبة في حسن التربية وهي تسمية القوى الباطنية
وتقوية المحافظة والتصور والعقل وتهذيب الاخلاق مع رعاية ما
يلزم لحفظ الصحة من الصون عن اسباب الامراض والعاهات
بملاحظة حكما موظفين لذلك لا يزالون متعبدين اغذيتهم
واماكن مبيتهم ومواضع مدارسهم ومحل تفحصهم وترويج انفسهم
لتجديد نشاطهم وتقوية قرائحهم بالنظر لما اشتملت عليه من الاشجار
والمياه والازهار والتردد بين ظلالها وذلك الى ما اخضت به من
افاضل المعلمين والمؤدبين ورأيت ان الانسار ما دام فيها لا
يكون مشغولاً بشيء غير التعلم واما الامور الضرورية فموكولة الى
خدم مخصوصة ملزمة بأدائها في اوقاتها وسمعت ان الانسان اذا
تم ما فرض عليه في مدرسة انتقل لغيرها على حسب درجة استعداده
وما ابداه في الامتحانات العامة والمخاصة الى ان ينتهي المفروض
على الشخص معرفته وتكون فيه قابلية واستعداد لخدمة وطنه فعند
ذلك تعطى له الرتب اللائمة به ويحظى بمرتباته ويعد من رجال
الملة وبحسب ما يديه في خدمته من حسن الادارة والصدقة
يندرج ضمن افاضلها فبناء على ما ذكرته متى كان الانسان كثير
الاجتهاد متخلفاً بالاخلاق الحميدة كان آمناً على نفسه خبيع عمره
من عاهات الدهر وتقلبات الايام لانه وهو بالمدرسة يكون محبوباً

الله له التمام ورجوه حسن الختام انما المقصود منك ان تفصح لنا
 عما اخترته لنفسك من الصنائع

فقال ابن الشيخ لم يكن في امكاني ولم يحم بحباني معرفة ما يوافقني
 من الصنائع فانها كثيرة ومختلفة ولم امارسها حتى اعلم المناسب منها
 لسني وبنيتي وحيث رأيتا انه لا يد للانسان من صنعة يكتسب
 منها مع الشرف والوقار وحفظ الناموس والاعتبار فلا مانع وقد
 فوضت تعيين الصنعة الى الله ثم اليكما فكلما اخترتاه واقع عندي
 موقع الصواب بما اعتقده فيكما من ممارسة احوال الناس وكثرة
 التجارب والعلم بما يفيد وينفع وما علي الا ان اكون مثلاً لما
 تأمراني به وان ابذل غاية جهدي للاحق ما ظننته في فان
 رأيتا ادخالي بالمدارس الميرية فانا راض به راغب فيه خصوصاً
 لما رأيت به بنفسي من احوال من سبق له الدخول بها فاني لم اجد
 احداً منهم الا وهو في ثروة ورفاهية لم يكن فيها غيره واظن ان
 والذي يعلم ذلك فان بالحارة التي نحن بها في مصر جملة منهم
 لم درجات مختلفة اقلها بمراتب كافية وفيهم من بلغ المناصب
 الرفيعة والرتب العالية وله مراتب جسيمة ينفق منها على الاهل
 والاقارب ويتصدق على الجار والصاحب فضلاً عن الصدقات
 المربوطة للفقراء والمساكين ورايت جميع اهل الحارة بل واهل
 الحظ يراعون خواطرهم لمعروفهم وكرمهم ومساعدتهم الخيرية وليس
 فيهم ابن امير او شريف وقد توجهت ذات يوم مع تلميذ من ابناء

كان مضرًا بعد ان كان نافعًا فكذلك حال الملة واهلها اذا زاد
 الدخيل وكثراهل الزور والاباطيل نقهر امر المستحقين ونقص
 عددهم وربما ضرَّ بهم كضرر الداء الدفين لان الدخيل لعدم
 وقوفه على الحقيقة في الاحكام قد يخرجها عن موضوعها ويستعملها
 في غير مواضعها وبسبب ان قوتهم الاصلية هي القوة العلية تسير
 خلفها الملة فتهمي بهم في مهاوي التلف والدمار وتكسوها بعد
 الشرف ثوب المذلة والعار وهذا الامر ليس خاصًا بطائفة دون
 طائفة بل هو عامٌ بجميع الطوائف على اختلاف اهميتها وصغرها
 وكبرها في كميتها ولكن حيث ورد (من حسن ايمان المرء تركه
 ما لا يعنيه) فعن هذا الكلام نعرض وتترك الامر فيه لله ولن
 صرفه في خلقه وعليمهم ولاه فانهم المسئولون عن امر انفسهم ورعاياهم
 واول واجب عليهم اصلاح حال انفسهم وحال رعاياهم فهم الملمزون
 بتفقد الاحوال واجراء الامور على احسن منوال والبحث عن
 الطرق التي يكون بها ثبات هذه النسبة في حدودها حتى يستقيم
 كل انسان في محله ويوضع كل شيء في موضعه لان اكثر الضرر
 الذي ينتج من اهل امراء الملة وتساھلهم لا تعود عاقبة امره الا
 عليهم فيكون اسفهم بقدر ما كانت درجة سعتهم في سلطتهم فمتى
 تفقدوا بانفسهم احوال الرعية وراعوا للشرع حتى يوقه المرضية دامر
 لهم السرور واشرقت بهم مالكمهم واملاكهم ودارت بالسعود افلاكهم
 وقد ترى ما اشرق به الزمان ومنه تجدد اعتدال الاوان فنسأل

ما تراه من الاحوال والصفات والترتيب والذوات وقد اقام
الله الخلق فيما اراد ولا معقب لحكمه ولا راد وليس لنا مناقشة
فيما قدره ولا اعتراض على ما دبره فان لم تصل عقولنا الى حكمة
ما وقعت عليه حواسنا فالواجب علينا التسليم وتفويض العلم الى
العليم الحكيم فرب شيء يظن فيه الخير وهو في الحقيقة ضير
وبالعكس

وما ندري أني الامر المرجى * ام الامر الذي نخشى السرور
واعلم يا بني واعز شيء علي ان النظام الحقيقي هو هذا
النظام ومرور القرون العديدة والدهور المديدة على النوع الانساني
مع عدم تغيير كيفية تركيبه دليل على ان هذا النظام هو ما اراده
الحق جل جلاله وكما يلحق الصدا الممدن كذلك يكون العلم
محفوظاً بالجهل والحق بالباطل والخير بالشر والحياة بالموت فلا
نجد شيئاً الا وهو مقترن بصدده وهذا التلازم ضروري اذ لا تعرف
الاشياء الا باضدادها فكذلك الحق والباطل ولنا ان نقول ان
النسبة بينهما كسبة العناصر التي تتركب منها الاجسام الى بعضها
اعني ان بينها تعادلاً وتوازناً فان تغيرت هذه النسبة بالزيادة
او النقص بطل التوازن وفسد امر الملة كما يفسد الجسم المادي
بتغير النسبة بين اجزائه وكما ان الماء لا تكون صفاته ولا توجد
فيه خواصه الا بوجوده في حالته الاصلية التي فطره الله عليها
ومتى خرج عن هذا الحد تغيرت صفاته وتبدلت خواصه وربما

لصاحبها الى مكابدة العناء ولبعضهم مساع مزرية لا تليق باهل
 القوة والعافية كقراءة الختمات في البيوت بالاجرة وهي ان اجازها
 امام فقد حرمها امام وكثرة بعض الاصحاء الاقوياء على المقابر
 مع كونها لا تليق الا بالضعفة العجزة الجهلة الذين حفظوا بعض
 القراءة فلم تكن لهم قدرة على ما ينفع الناس الا من هذا الطريق
 كما قال علي بن الرومي من تقدم بهم الزمان يهجو طبيبا
 افنى واعى ذا الطبيب بطبه

ويكمله الاحياء والبصراء

فاذا نظرت وجدت من عمائه

امما على امواته قراء

وارى بين اصحاب الوظائف الميرية رتبا عالية ولها مراتب
 كافية وافية وليس فيها ما يذم فان جميع تلك الوظائف منوطة
 بخدمة الاهالي واعانتهم وحفظ حقوقهم فمنهم من وظيفته اصلاح
 الزراعة وري الاراضي ومنهم من هو محافظ على صحتهم وصيانتهم
 من الامراض واخرون لسماع دعاويهم والحكم بينهم واصلاح ذات
 بينهم وايصال المحقوق لاربابها ولكل من اصحاب هذه الوظائف
 مراتب على حسب درجاتهم تؤدي اليهم سنويا او شهريا فهم
 بذلك في امن على معيشة عيالهم وجميعهم في ظل المتصرف في امر
 الجميع فان كنت اخنار صناعة لم اعد صنائع هذه الجماعة
 فقال له والده يا ولدي اعلم ان الحكم الالهية اقتضت جميع

لانه لا بد انك شاهدت امورا اثرت عليك تاثيرات مختلفة
منها ما جذب قلبك فرغبتة ومنها ما نفر منه طبعك فكبرته فلا
تكلم عنا ما نسخ بفكرك واظهر لنا ما كمن في سر. فالتفت الولد
نحو ابيه واراد ان يصرح بما كان يخفيه

فقال اني مذ عقلت لم اجد امثلا من طريقتك ولا تمنيت
ان اكون على غير خيلتكم لاهيا عن جميع الحرف موقنا ان ليس
لحرفة ما لحرفتنا من الشرف وبقيت على ذلك برهة لا تعترضني
فيه حجة ولا شبهة حتى رأيتك في بعض الاوقات تشكو شذائ
الايام متضجراً من ضيق المعيشة والعجز عما نحصل به لعيالك
بعض المرام فاستشعرت ان سأصير الى ما اليه صرت وان سوف
اكبر مثل ما كبرت وربما خلفت كما خلفت وتكلفت جميع ما
تكلفت فاخذت حينئذ اتفكر في جهات الاكتساب وما يكون
لحسن المعيشة احسن الاسباب فوجدتها دائرة بين الامارة والتجارة
والزراعة والصناعة وما لاحداها سبيل وهي دون المساعدة عسيرة
التحصيل فطقت انظر محاسن الحرف ومعانيها واعد مثالب
اهلها ومتاقبها فما رأيت لحرفتنا مثلاً ولا تصورت كاهلها اهلاً
فانها النياية عن الرسول في تربية العقول واهلها حفظة الدين
ومعادن العرفان واليقين واكثر من نراهم على تلك الحالة
عادلين عن سبيل الهداية الى طرق الضلالة حتى استر الحق
بالباطل وبذلك صارت حرفتنا ابعد الحرف عن الثواء وادفعها

وإدخله اذا عدنا المدارس لاكون ملاحظاً احواله ومراقباً اعماله
مريحاً بذلك خاطري وخاطر امه واما الصنعة فلست ادري ما
يليق به على نخافة جسسه

فقال الانكليزي الاصوب ان نسأل الغلام فانه اطلع على
كثير من الاشياء فلعله وقع استحسانه على بعض الصنائع ومال
طبعه اليها وهو يثني ان يكون من اهلها المنتفعين بها والحياة يمنعه
من اخبارك بما كمن في نفسه فاستحسن الشيخ ذلك واحضر ابنه
واخبره بما دار بينهما في امره وانها وقفا الجزم في ذلك على استطلاع
امرهم واستكشاف سره

وقال له يابني قد عرفت الوظائف الشرعية والسياسية
واطلعت على صنائع طوائف الناس العلية منها والدينية فهل
تجد في نفسك الميل الى بعض الصنائع وتحيل افكارك فيما لاحداها
من المنافع فاني مسيرك الى ما فيه ترغيب ومساعدك على كل ما
مال اليه قلبك

فقال الولد اني طوع امرك فلا ارضى الا ما ترضاه ولا ارى
خلاف ما تراه ولحدائة سني انت ادري بما فيه صلاح لسأني
مني وشفتك علي كافلة بما يعود نفعه الي فان اتفقنا على صنعة
اقمت بها

فقال الانكليزي ان ما قلته دليل على حسن عقلك وكمال
ادبك وفضلك لكن مرادنا ان نخبرنا بما يميل اليه قلبك

اليهم من اساتذتهم لتوهم المحرمان من درجة التمييز او العقاب او الحجز
 عن الاهل والاقارب والمنع من روية التملقين من الاحباب
 الذين يترددون على المنازل فيرتدع الطفل ويزيد ميله ووجه
 لما فيه خير له وتجري بينهم محاورات ومجادلات فيما يلقي اليهم
 فيكون الحق مع احدهم تارةً ومع غيره اخرى وهكذا كل يوم
 فتقوى عندهم اسباب النشاط والاجتهاد ويتنافسون في موجبات
 التقدم والرشاد وبسبب تنوع الفنون لا يلحقهم ملل ولا يعترضهم
 من كثرة العمل فتور ولا كسل بل قد يتلذذ الطفل من
 الانتقال من الاعمال الجسمانية الى الاعمال العقلية فتتم قواه
 البدنية والروحانية وترسم في فكرته اخلاق اساتذته فيعتادها ولكون
 الاساتذة منتخين من احسن المربين لا يقع منهم ما يجمل بشأن
 التعليم وان فرض كان نادراً فيكتسب الطفل في زمن قريب
 محاسن الاخلاق واخلاق الرجال وتساوي الجميع في الهيئة
 الظاهرة وطرق التعلم والتعليم فتأكد بينهم الاخوة ويعطف بعضهم
 على بعض بما ينسون به رافة الامومة والابوة والتدرج ينزل
 ولد العظيم عن تعاضه بعظمة اهله ويرتفع ولد الفقير بادابه
 وفضله فهل ترى طريقاً احسن من هذا وان لم تتبعه فماذا

فقال الشيخ ان شفقة الوالدين بولدهما موجب مشقة اقامته
 بغير بلدها وان كنت اعلم ان بقائه للتعلم في بلاد الانكليز ما
 يؤول به ان وفق الله الى غاية التكرم والتعزير ولكن استخير الله

يوجد له ذلك وهو بمنزل اهله فان شفقة الاهل تؤدي الى اهاله
 والتغافل عن هفواته ولعبه وربما كانت هذه الشفقة سبباً في فساد
 خصاله التي قصدت اهله ان تجرده عنها بالتربية ولو فرض
 وخصص له مودب في منزل اهله فاشتغاله بامورهم المنزلية
 والديوية يلهمه عما يفعله كل منها ويدفع اهله الاجرة يظنون
 حصول المقصود واي حجة اجمع بها الطفل وتعلل يقبلونها منه
 سواء كانت صحيحة او غير صحيحة فتمنع المودب عن تاديبه والطفل
 عن الاشتغال بما فيه نفعه ومن المعلوم بالبداهة في شان العائلات
 ان الاباء يخفي عليهم عيوب اولادهم حتى ان الامهات لزيادة
 شفقتهم على اولادهم قد يرين ان اولادهم يعلمون زيادة عما
 يلزم وكذلك الخدم تخفي على ساداتهم ما تعلم من عيوب اولاد
 سيدهم كالخيانة وقلة الادب وعدم الائتفات وكثرة اللعب
 واصحاب البيوت على اختلاف درجاتهم في الثروة لا يخجلون من
 تردد المناقنين والمتلقين على منازلهم فتسري طباعهم الى ذريتهم
 فيتعلمون من اخلاقهم وطباعهم ما يزرى بهم فاذا بقي الطفل في
 المنزل بين ابيه وامه مقيداً مع المودب طول يومه وربما يسأم فلا
 يتعلم او يسأم المودب فلا يعلم ولطول مدة الملازمة عليها قد
 تنشأ الكراهة بينهما ويضيع الزمن بخلاف المدارس العامة فلا
 يوجد فيها شيء مما ذكر بل تكون الاطفال فيها محفوظة من جميع
 هذه العوارض وتدب فيهم الغيرة من بعضهم في حفظ ما يلقي

فاختراهما احب اليك من غير حكم عليك احدهما ادخاله
 باحدى المدارس الميرية والآخر ابقاؤه باحدى مدارس لوندرة
 ليتربي فيها كما تربي اولادنا فان اخترت منها واحدة برئت من
 واجب تربيته لانك ان ابقيته معك فلست بضامن لنفسك
 البقاء حتى نتم تربيته واذا اراد لك المولى بانقضاء الاجل والموت
 قبل ذلك فكيف يكون امره ومن يكون كفيله وهو مجرد عن
 العلم والجاه افلا تكون مسئولا عن هذا الاهمال وهل كان حبك
 له الا سببا لوقوعه في اسوء الاحوال واشق الاعمال وان سلمته
 لاحد المودبين فلا تدري هل هو كفو تربيته ام لا والاعتبار
 بالظاهر لا يكون دليلا على الباطن فرما كان عالما لكنه سيء
 الخلق فيسري طبعه الى ولدك فيكون ضرره اكثر من نفعه وعلى
 اي حال فالموذبون غالباً لا يسلكون طريقة مستقيمة متفقا على
 صحة نتيجتها بل طرقهم مختلفة بحسب نيتهم وليس لنا حاجة لمعرفة
 اسباب اخلافها ان كان لتصد نفع التلامذة او نفعهم او للافتخار
 او لظهار الاجتهاد لاجل زيادة الاجرة بخلاف المدارس الميرية
 فانها لم تكن تابعة لشهوة اجد وما نتج منها موجب للاذعان بصحتها
 ولزوم اتباعها فان طريقتها هي الجارية عند جميع الملل المتقدمة
 وسلكتها جميع العقلاء فمنها اصول الضبط والربط الذي يجب
 على كل عاقل ملاحظته والتمسك به من ابتداء شبيبته والاستمرار
 عليه بين ابنا عشيرته حتى يدخل في ميدان الاعمال بينهم ولا

فيها في كتاب الله وسنة نبيه وقد اتفق العلماء والعقلاء من كل
 ملة على ان قدر كل انسان وقيمه بقدر علمه وعمله وعلى حسب ما
 اكتسبه فاذا يضر لو علم الانسان بلسان قومه وقواعده وعلم دينه
 ومذهب بلده حتى يكون على بصيرة في ادارة اموره وتقوية برهانه
 وضم الى ذلك السنة ملل اخرى واقتننها لتجذب اليه قلوب
 الاغراب فيضيف معلوماتهم الى معلوماته لتزداد رغبة اهله فيه
 وعلم مع ذلك تاريخ بلاده وضم الى ذلك تاريخ بلاد غيره واحوالها
 اذ بذلك يكون على بصيرة من الروابط المؤلفة بين الملل وبعضها
 والاسباب التي توجب النزاع والوفاق بينهم وضم الى ذلك علم
 الجغرافيا والنباتات والحيوانات والحجادات والهندسة والفلك وجر
 الانتقال وهكذا فتتسع دائرة معلوماته ويقف على النواميس الابدية
 المؤثرة في الموجودات وكيفية التأثير فيها فتتسع بصيرته وتعلو
 بذلك بين البرية شهرته فان تعلم الطب وقف على اسباب الامراض
 وكيفية علاجها ووظائف الاعضاء الظاهرة والباطنة وارتباطها
 بالقوى الباطنة وعرف قدرة الباري المصور لها فيعظم شان ربه
 وخالقه ولا يلزم ان يتجرب بل يكفي ان يعرف من كل فن ما ينبغي
 معرفته على كل ذي فطنة من الخلق حتى لا يكون على جهل منها
 فيزداد بذلك قدره في كل مجلس من مجالس اهله ويعلو قدره
 بين الامراء وتجذب اليه قلوب اصحاب الحاجات والمخاضات
 لعلمهم انه يهديهم الى الرأي الصواب ولا اري لولدك الامرين

ولا حيلة فيما قضاه واحده واشكره على ما من به علي من صحبتكم ولا
يخفى على جنابكم ان الناس بالسنتهم ليسوا غافلين عن بعضهم
فربما يقع الانسان في شباكم فيستط من اعينهم وينقص قدره فيما
بينهم فان اخرجت ولدي عن طريقي وعمما كان عليه اجداده قبله
اخلفوا علي اقوالاً تزري وعبارات ربما تخل بامري ولا اقل من
ان يقولوا باع الدين بالدنيا

فقال له الانكليزي ليس الفضل خاصاً بطائفة من الناس
دون طائفة ولا باهل حرفه دون حرفه بل الفضل صفة تقوم
بالانسان على قدر ما يجوز من العلم والادب فكما تكون في الفقهاء
تكون في المهندسين والحكام وكما تكون في التجار واهل البضائع
تكون في احاد الخلق من الفلاحين واهل الصنائع فليس الانسان
باصله وحسبه بل بكمال عقله وحسن ادبه فكم من امرء مقطوع
النسب وصل بأدبه الى اعلى المناصب والترتب وكم من ذي نسب
واصل هوى به جهله الى درك الهوان والذل وكم من حقير ازال
بكمال عقله دناسة اهله واصله وهل يليق بالعاقل ان يلتفت لاهوام
الناس وابطالهم ويؤثره على ما رآه عقله حسناً وصواباً وهل
يقندي البصير بالضرير او هل يستوي الاعمى والبصيرام هل
تستوي الظلمات والنور واي نقص يعتري الانسان اذا كان ذا
علم وله صنعة يعرف بها فلا يجل بشرف الاصل ان يتقاد الانسان
رتبة كالجندية وعلم الحكمة والهندسة بل هذه العلوم ونحوها مرغّب

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها

فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا

فقال له الشيخ انه لا يكون وراء ما ذكر الآ صنائع ووظائف
 تقوم ليسوا من حرفتنا ولا طائفتنا وعشيرتنا كالمهندسة والمحكمة
 والجنديّة ونحو ذلك من الصنائع الدنيوية فهل تظن ان تعلمه
 صنعة من هذه الصنائع وتخرجه عن طريقة اهله واجداده مع اني
 سمعت من ابي عن جدي ان عائلتنا شريفة ثم وجدت في امتعة
 والدي رحمه الله بعد وفاته نسبة الشرف فلم اجد فيها احداً من
 اجدادي احترف بحرفة من الحرف او خرج من وطنه بل تتبعتها
 فوجدت ان كل من نبيغ منهم اتبع طريقة سلفه وقنع بما ساقه الله
 اليه من الرزق قليلاً كان او كثيراً ووجدت في النسبة لكل
 منهم مناقب ومزايا تدل على زهده وورعه وقد رأيت فيها من جملة
 ما اوصى به بعض اجدادي من يأتي بعده من اولاده اعلموا ان
 الدنيا مثل ظل احدكم ان طلبتموه فرّ وسبقكم وان تركتموه تبعكم
 كما قيل

مثل الرزق الذي تطلبه * مثل الظل الذي يمشي معك

انت لا تدركه متبعاً * فاذا وليت عنه تبعك

الخبر كله في بيت واحد ومفتاحه الزهد في الدنيا . والشركه

في بيت واحد ومفتاحه حب الدنيا

وقد قضى عليّ الرحمن من دونهم بالغرابة ومفارقة الوطن

صناعة تكون له في المستقبل عوناً على حسن معيشته فما اضمرت على تعليمه من الصنائع فقال الشيخ احب ان يتقن اللغة العربية ويتم قراءة الكتب الادبية فاذا وصل التمام وبلغ من ذلك المرام تفكرت فيما يحسن حاله ويبلغ به ان شاء الله آماله بحيث لا يخرج عن الوظائف العلمية ولا يشتغل عن الاعمال الدينية سيما وهو بمعونة حضرتكم آخذ في تعلم لغتكم فاذا تم له اتقان اللغتين كانتا له خير صنعتين وبأيتها يكون اكتسابه ما يكفيه غير خارج عن حرفة جده وابيه

فقال له الانكليزي كانك تقول ان ولدك اما ان يصير اماماً او خطيباً في جامع او ترجماناً او نائب قاض في بعض المواضع وعلى كل فما يرد من هذه الوظائف لا يقوم ببعض الكفاية فضلاً عن كونه يستمر في اسر غيره فينسبونه الى التقصير في اداء وظيفته او الجهل بما يلزم لها او عدم معرفته باداء المقصود والذي اذكره لحضرتكم ان الوظائف درجات منها الشريف والذني والاعلى والعلوي وانك الان مخير بين ما يكون به ولدك رئيساً واميراً وبين ما يجعله تابعاً لغيره واسيراً ولكن محبة الوالدين لاولادهم لا ترغب الا فيما فيه زيادة شرفهم فيجب عليك ان تجيل الفكر وتدقق النظر حتى تعرف الصنعة التي يزيد بها شرفه فقد قيل في الامثال الناس لصاحب المال الزم من الشعاع للشمس وهو عندهم اعذب من الماء وارفع من السماء واحلى من الشهد واذكى من الورد

واني وان لم استوف هنا غرضي لكني آتيتك بكتاب فيه كفاية لهذا
الغرض فان اتبعته وسرت على مارسمته لك فلا يمضي عليك قليل
من الزمن الا وقد تكلمت باللغة الانكليزية وبمشيئة الرحمن عند
العود تجدد ان لا فرق بيني وبينك في التكلم فشكروه الشيخ على نصيحه
وعمل بمقتضى وصيته واخذ هو وولده الكتاب منه وصارا يتلقيان
كل كلمة في الكتاب عنه وحذا الولد حذو الوالد فكانا لبعضهما
نعم المساعد والمساعد وصارا ما بين سائل ومسؤل الى ان نالوا
من تلك الجهات الوصول وقد قسموا اليوم اقسامًا بعضها للفسحة
في ظهر المركب وبعضها للاكل وبعضها للحفظ والباقي للمحادثة
والمذاكرة والاجتهاد صاحبه الانكليزي في تسهيل امر السفر عليه
كان لا يفارقه الا عند الضرورة وكان لا يخاطبه الا بكلام
يطيب به خاطره وتشرح منه ضمائر محافظًا على مرضيه آتيا بكل
ما يحبه ويرغب فيه وبذلك تاكدت بين الشيخ وبينه الالفة
وارتفعت من بينهما اسباب الكلفة فينبأها في بعض الاوقات
يتحدثان ولاحوال طوائف الناس يتواصفان اذ جرى ذكر الصنائع
والحرف وقدر تفاوت السلف فيها والخلف وما آلت اليه من
الاتقان وتم لاربابها من الاحكام والاحسان

وطال بينهما الكلام في وصف محاسن الايام فكان ذلك
داعيًا للانكليزي ان قال يا حضرة الشيخ ان ولدك الان قد بلغ
اشده وحصل من العلوم العربية طرفًا صالحًا وهو يحتاج الى تعلم

ان يطالع في كتبه ياخذ هو وولده في اللغة الانكليزية على صاحبه
دروساً وبسبب اجتهادها في التعلم قدرا في زمان يسير على التكلم
فيها

واخذ الانكليزي بحسن له التعلم ويرشده الى كفيته ويشجعه
عليه بقوله ان من موجبات التقدم في اللغات اموراً منها المحفظ
والتطبيق بالممارسة والمخاطبة فان جمعت كل يوم بين هذين ثبت
بذهنك كل ما حفظته واعدت النطق به وفي قليل من الزمن
تصل الى معرفة الكثير ومنها ترتيب المطالعة في الكتب بان يتدأ
اولاً بالكتب المؤلفة لتعليم الاطفال لحنه الفاضل وعباراتها ثم بما
فوقها وهكذا. وكيفية التعلم كما لا يخفى على حضرتكم ان يتدأ
اولاً بمطالعة الدرس ويقف على كيفية النطق بالفاظه ثم يكرره
الى ان يثبت في ذهنه ويستمر على ذلك حتى يكون عنده محصول
من الكلام ثم يبحث عن قواعد تصريف الافعال وامثلتها ثم ينظر
لمثال كل قاعدة ويمثل من نفسه امثلة ويطبق كل مثال على
قاعده ولا يكفي في ذلك مجرد التلفظ بل لا بد ان يثبت ذلك
في كتاب صغير الحجم ليسهل عليه استصحابه فيطلع عليه اي وقت
اراد ثم اذا تقدم في اللغة يلزمه حفظ كثير من الاشعار ونوادير الاداب
لما فيها من مزيد الثبات بخلاف العبارات السائرة والاولى ان
يختار من كتب الاشعار ما تلتذ منه النفس ويميل اليه الطبع وان
يجنب ما فيه تعقيد او صعوبة الى ان يحسن النطق والتكلم باللغة

ياكل في قمرته فاجابوه ولتعظيم صاحبه وحق رعايته كان كل من
 بالسفينة مبادراً لكرامته واستمروا على ذلك طول السفر حتى
 وصلوا جميعاً بالسلامة الى البر

المسامرة السادسة عشرة
 التعلم والتعليم

ولعلم حضرة الشيخ بان من عرف لغتين وان كان في الصورة
 واحداً فهو في معنى اثنتين ولما عرفه من حث النبي صلى الله عليه
 وسلم على تعلم الالسنه بقوله من تعلم لسان قوم أمن من مكروهم ولما
 رواه في الحكايات من ان رجلاً حجازياً سافر الى اليمن مرة ودخل
 مدينة ظفار وبلغ خبره ملكها فلما حضر عنده باعلى قصره قال له
 الملك ثب يامره بالجلوس بلغة حمير ففهم الحجازي انه يامره بالظرة
 كما هو بلغة الحجاز فقام الحجازي وقال ليعلم الملك اني سامع مطيع
 وطرفاتي نفسي من اعلى القصر فقال الملك ما بال هذا قبيل له
 ان الوثب في لغته ما فعله فقال الملك من ظفر حمر يريد من
 دخل ظفار وجب ان يتعرف لغة خمير فاستفاد من هذا ان من
 دخل اي بلد لزمه ان يتعلم لسان اهلها فلهذا كان كل يوم بعد

اتجاهها وسلامتها حتى صار علم الملاحة علماً نفيساً فانظر كيف
امكن الانسان بقوة فكره وغزارة عقله ان يتقل من حالة الى
حالة ومن فكرة الى فكرة حتى وصل الى ما تراه في شان السفن
وعلم الملاحة أفلا يكون هذا دليلاً كافياً على ان تقدم جميع الفنون
والصنائع جار على هذا النمط وان الاصل في ذلك كله ضرورات
الانسان واحتياجاته وميله لحب الانتفاع والوقاية الشخصية وقد
امتد بينهما الفال والهيل في هذا المعنى ونحوه من هذا القبيل
فاحب الشيخ ان يتبع المحبر بالنظر ويشاهد اماكن السفينة بالبصر
لئلا يكون فيما سمعه مقلداً ومتبعاً اذ ليس من رأى كمن سمع
فاجابه الانكليزي الى ما طلت وقام معه الى قبرة القبودان ليريه
ما احب وكلمه ببلغته وعرفه بمقصود الشيخ ورغبته فامر احد الصباط
ان يكون لحضرة الشيخ اوفق مرافق وان يوقفه على كل ما اشتملت
عليه السفينة فسار معه وراه فوق ما كان سمعه واطلعه على
الات السفينة واحدة واحدة ولم يترك منها شاة ولا شاردة مبتدئاً
من مؤخر المركب الى مقدمه مبيناً له فوائد كل واحدة باسمها
وبين له اقسام السفينة وما لبضائع التجار وما للمسافرين وما
للمستخدمين بها وما للمطبخ وما للاكل ونحو ذلك ولم يذر محلاً
في المركب الا اطلعه عليه واخبره بمنفعته فشكر الشيخ على صنيعه
واثنى على القبودان الكبير ثم استاذن ودخل فمرته وادى ما يجب
عليه من العبادة الموقنة وكان قد حان وقت الاكل فاحب ان

واستعاضها بدائرة مقسمة الى اقسام متساوية وعليها مسطرة تحمل
 عضادة بها ثقب صغير فتى أريد استعمالها علت الدائرة في السفينة
 وجعل مستويها في مستوي الشمس ثم تحرك المسطرة الى ان تمر
 اشعة الشمس بالثقب فيظهر على المحيط الدرجة الدالة على
 الارتفاع المطلوب وبهذه الآلة توصلوا الى الآلة المستعملة الآن
 المعروفة بالاكتان عند الملاحين بادخال ما استفيد من قواعد
 العلم من التحسينات في تركيبها فصارت مستوفية لجميع شروط
 السهولة والضبط فبناءً على ما مر يظهر لحضرتكم ان الانسان قد
 اكتسب علم الملاحة وضبط سير السفن في البحار بالتدرج فان
 الاصل في ذلك كله شجرة القاها الريح في التيار فجرت معه فنظر
 اليها احد المخلوقات فاستعملها كما هي فراه غيره فقلده واستعملها
 بكيفية احسن من الاولى وهكذا على حسب الاحوال والضرورات
 البشرية وما زالت تنتقل من حالة الى احسن منها حتى
 تم حسنها وعظمت دائرة اهميتها واعنى بها الخلق فوصلت الى
 الحالة التي نراها عليها الآن ولا شك ان كل صورة من هذه
 الصور اشتغلت بها الافكار مدة واطهرت فيها تغييراً فاخترعت
 صورة احسن من الاولى ووقعت موقعها فاذا رأوا في الثانية عيباً
 اجتهدوا في ازالته بقواعد علمية واختراعات عملية حتى اجتمع من
 ذلك علوم شتى منها ما هو متعلق برسم السفن وشكلها ومئاتها
 ومنها ما هو متعلق بسيرها وسرعتها ومنها ما هو متعلق بتحرير

القطب يكون منطبقاً على الافق متى كان الراصد فوق دائرة
 الاستواء ومتى اتجه الى الشمال ارتفع القطب فوق الافق بقدر
 بعد الراصد عن دائرة الاستواء وبناءً عليه فعرض اي نقطة هو
 ارتفاع القطب فوق الافق واهل وقتنا هذا تابعون للسالفين
 ومخذون النجمة الاولى من الدب الاصغر دليلاً على القطب
 فيمتدون به لكن لما كانت هذه النجمة في كثير من الليالي
 مغموسة ومغبية في السحاب غير ظاهرة وفي كثير من البقاع
 يكون الجو غير صاف فيصعب العمل حين ذاك رغوا في
 معرفة العرض من رصد الشمس لانها تكون دائماً ظاهرة تمام
 اليوم او بعضه ولذا اقتضى الحال معرفة بعدها عن القطب وقت
 الزوال وبسبب تغير هذا البعد في جميع اوقات السنة حرره
 اهل العلم في جداول مضبوطة يراجعها الملاحون في اعمال
 الملاحة وحسابها ووضعوا آلة مركبة من مسطرتين عموديتين
 على بعضهما لقياس ارتفاع الشمس فكان الملاح يضع نقطة تقاطع
 المسطرتين على ارتفاع البصر ثم يرصد افق البحر بالمسطرة الافقية
 ويجعل الشمس خلفه ويقدم او يؤخر المسطرة الراسية الى ان
 ينطبق ظل نهايتها على نقطة معينة من المسطرة الافقية ويحسبون
 الارتفاع على مقتضى ذلك كما كانت المصريون في الازمان
 السابقة تعين ارتفاع الشمس بواسطة المسلات التي نراها الى الان
 قائمة امام الهياكل والمعابد وفيما بعد صار تحسين هذه الآلة

بالنقطتين المفروضتين وبواسطة البوصلة تسير على ميله بالنسبة
 للخطوط الجانبية فيصل الى الغرض المطلوب اذا لم يكن هناك
 موانع تعرض لها في اثناء سيرها فتعطلها مثل الصخور والاهوية
 غير الموافقة والمياه الثقيلة وغير ذلك فمن هذا نشاء لاجل التخلص
 من خطر تلك الموانع مسألة معرفة الموضع الذي تكون فيه
 السفينة في اي وقت من الليل والنهار بالنسبة لاي البحار
 واول شيء خطر بالبال معرفة قدر سرعة السفينة في زمن
 معين لانه متى علم استدل منه على المسافة الكلية من وقت اتيام
 ومن ثم يعلم محل السفينة بعد مدة من سيرها بالتقريب فاشتغل
 بهذه المسألة علماء الفن واخترعوا الآلة البسيطة المستعملة الى
 الان وهي عبارة عن حبل مقسم الى عدة اقسام متساوية منسوبة
 للميل في طرفه قطعة من خشب مثلثة الشكل متقلبة في قاعدتها
 بالرصاص فتفي رغب قبطان السفينة قياس السرعة الفاه في
 البحر فتغيب الخشبة راسية في الماء والحبل يكر من على مغزله
 مدة كالدقيقة فيكون مقدار الحبل في البحر عين سرعة المركب
 ولما لم يكن ذلك شافياً اضطر الملاحون الى معرفة الخط الجانبي
 والخط الموازي التابعين لها في السير حتى نعين لهم نقطة التقطع
 وهي النقطة التي تكون فيها السفينة وبناء عليه تج مسألة تعيين
 العرض والطول فاشتغل بجلها العلماء كما اشتغلوا بغيرها وظهر
 لهم من بحثهم ان مسألة العرض لا صعوبة فيها لانهم شاهدوا ان

متجهة نحو الشمال دائماً او نحو الجنوب دائماً واما اذا كانت متجهة
 نحو الشمال والغرب مثلاً فالجزء الاول من خط السير يكون
 جزءاً من دائرة عظمى ميله في نقطة المبدأ من المخطط الجانبي خمسة
 واربعون درجة ثم بعد ذلك يتغير ويقطع المخطوط الجانبية
 الاخرى في ميول مختلفة تكبر بالتدرج الى ان تكون تسعين
 درجة فلو تبعت السفينة في السير خط ميل ثابت بالنسبة لجميع
 المخطوط الجانبية لرسمت على الكرة خطاً حلزونياً وبعد عدة
 دورات تصل الى قطب النصف الذي ابتدأت السير منه ومن
 ذلك رأوا ان السفينة تقطع في سيرها على خط ثابت الميل مسافة
 تزيد وتقص عن طول قوس الدائرة تبعاً لعرض البلاد ويكون
 المخطأ كبيراً كلما كان فرق عرض تقطعي المبدأ والنهاية كبيراً
 فبناءً على ذلك ظهر لاهل ذاك الوقت انه يلزم تغيير الميل لمن
 يرغب في اتباع قوس دائرة عظيمة وحيثذا فلا بد من معرفته
 ويكون ذلك بطرق بسيطة حتى يكون سهل التناول للملاحين
 وبسبب ما فيه من الفائدة والاهمية اشتغلت مجل مسئلة العلماء
 الافاضل فمنهم من وضع لمعرفة طرقاً حسابية وجداول مخصوصة
 للاقتداء بها ومنهم من حول المسألة الى طرق رسمية فتعددت
 من ذلك طرق الاشتغال وجال فيها الفكر فظهر من ذلك المخرط
 التي ويستعملها الملاحون ولا يمكنهم الاستغناء عنها لما لهم فيها من
 المنافع والفوائد التامة فانه يكفي ان يرسم عليها المخطط المار

يلزمهم الانحراف اليها والخروج عن الخطوط التي توجب تلك
الآلة المشي عليها فكيف اهتدواؤهم لذلك
فقال له الانكليزي ان البوصلة بمفردها غير كافية لانها لا
تعين إلا اتجاه احدى النقط الاصلية فقط ولا تدل اصلاً على الاتجاه
اللازم للوصول لنقطة محددة الا بمساعدة وقد عرف ذلك جميع
الملاحين في القرون الماضية لكنهم اقتصروا على هذا واستعانوا
عليه بما استفادوه من التجارب والاسفار فكانوا يهتدون بذلك
للوصول الى ما يقصدون من البقاع كما يفعل الآن الملاحون
في الانهر والمخجان في بعض جهات من اقسام الدنيا وكما يفعل
ملاحو النيل فانهم يسبرون فيه من غير بوصلة بالاتباع لبعض
علامات في البرور والجزائر وكما يفعل ملاحو العرب القاطنة في
شاطئ البحر الاحمر والصيدون في بعض البحائر المتسعة وكانت
علماء الجغرافية والفلكيون في القرن الخامس عشر من تاريخ
المسيح غير واقفين وقوفاً تاماً على جنس خط سير السفينة فكانوا
يزعمون ان الخط الذي ترسمه السفينة بين تقنطين بعيدتين
عن بعضهما هو قوس دائرة عظيمة ثم ظهر لهم امور لم يمكنهم التعبير
عنها . مثلاً رأوا ان السفينة في سيرها في اتجاه واحد وميل واحد
لا ترسم دائرة عظمى على الكره بل ترسم احدى الموازيات فعند
ذلك اشتغلت العلماء بجلها وتطبيق الحسابات عليها فظهر لهم ان
خط سير السفينة لا يكون دائرة عظمى الا في حالة ما اذا كانت

اوروبا على الاستحواذ على غالب بقاع الامريكا وسواحل افريقيا
 وعدة بقاع من اسيا وعلى جميع جزائر المحيط الاطلنطيقي والمحيط
 الجنوبي والمحيط الهندي حتى صارت بقعة اوروبا اغنى البقاع
 واكثرها ثروة وصارت ملوكهم اعظم من غيرهم شهرة وسطوة وما
 ذاك الا بسبب الملاحة لانها فتحت لهم ابواب الرزق وزادت في
 اسبابه وطرقه ولو ان في كل بقعة حكامًا يتصرفون فيها ويحكمون
 على اهلها الا انهم هم ورعاياهم تحت تصرف ملوك اوروبا بسبب
 عظم قوتهم الحربية واتساع دائرة علومهم السياسية الآخذة في
 الازدياد والتقدم بسبب حيازتهم لكل ما يروونه من الصنائع
 واغداقهم على من دونهم باصناف البضائع ولم يفتروا عن هذا
 السير مجال من الاحوال بل هم ملازمون له ساعون بكليتهم
 في ازدياده فكان تأثيرهم على بقاع المعمورة عامًا

فقال له الشيخ قد فهمت مما افدتني ان الانسان بعقله هو
 الذي شكل السفينة من صورة الى صورة متبعًا في ذلك السير
 الطبيعي من غير تكلف وانه كلما كثرت احتياجاته اتسعت افكاره
 وازدادت رغبته في التامل حتى وصل الى معرفة سير السفينة
 بالبوصله في جميع البحار صغيرة او كبيرة فاستكشف الاراضي
 المجهولة وسكانها واستفاد من اعمالهم وعلومهم ما زاد في درجة تقدم
 اهل ملته ولكن ارى ان الآلة المغناطيسية غير كافية لضبط سير
 السفن حسب الحاجة فانهم اذا ارادوا ان ينتقلوا من بلد الى بلد

الشكل وجعلوا فوق الابرة دائرة من ورق مثبتة فوق الابرة
تتحرك بجركتها مقسمة الى اقسام متساوية وجعلوا جهتي الشمال
والجنوب على خط مستقيم مرسوم فوقها والشرق والغرب في نهايتي
خط عمودي على الاول وعلقوا العلبة في موخر المركب امام عين
ماموري الدفة ومن ذلك الوقت زالت جميع الصعوبات الاولى
وانقطع عرق الخوف والاشكال بالكلية وصار الامر على ذلك من
ابتداء القرن الثالث عشر الى الان لا يعتره تغيير ولا تبديل
الا في كيفية تعليق العلبة وتحسين صورتها مما لا يتوقف عليه امر
الملاحة وليس من ضرورياتها ومن ثم انتظم امر الملاحة والتجارة
فحسنت بذلك جميع الاحوال وصلاح شأن الناس في الحال والمال
وحصلت المساعدة الكلية لاحوال الزراعة فاخذت في التقدم نحو
النمو وكثرة الثروة والرفاهية من ذلك فترتب عليه زيادة التمدن
والتقدم وبعد اقتصار الخلق على جواز البحيرات والانهر الصغيرة
والسفر في البقاع القريبة جازوا المحيط نفسه فانكشف لهم الغطاء
عن جزائر وسواحل معمورة بام شتى عارين عن التمدن واسبابه
فحاربوهم ووضعوا اليد عليهم وادخلوهم بالقهر تحت طاعتهم
واستخذوا على ارضهم واستعملوهم في خدمتها لنفهم ونفع بلادهم
لا لنفع اهلها فزادت بذلك شهرتهم وقويت سطوتهم على
مت جاورهم ولما راي الغير اتساع دائرة عيشتهم رغب
في السير على اثارهم وهكذا . فكان هذا هو اول باعث لاهل

الاوروباوية الا من القرن الثاني عشر بعد المسيح وان كان معلوماً
 قبل ذلك في بلاد المشرق عند سكان السواحل الشامية وشواطئ
 بحر العجم فلم تكن خاصة جذب حجر المغناطيس للحديد خفية عند
 الامم السالفة وربما كانوا يعلمون الخاصية التي يكتسبها الفضيبي
 الصغير من الحديد بعد المغطسة اي بعد مسه لهذا الحجر وهذه
 الخاصية هي ان لا تتغير اتجاهاته بل يكون دائماً على اتجاه واحد من
 الشمال الى الجنوب ومن ذلك تعلم جهة الشرق والغرب الا انهم
 كانوا لا يعلمون خاصية اتجاهه دائماً الى الشمال فطبقوا هذه
 الخاصية على سير السفن بان رسموا خطين عموديين على قطعة
 ورق مستديرة وثبتوا الفضيبي فيها فاهتدوا بذلك الى النقط
 الاربع من الافق وبقي الامر على ذلك مدة الى ان علمت خاصية
 اتجاه الابرة الى جهة الشمال دائماً متى كانت متحركة موضوعة فوق
 مركز في اي نقطة من نقط الكرة وعند ذلك زالت الصعوبة التي
 كانت تلحق الملاحة وسهل على الملاحين جواز البحار وامنوا من
 جميع الاهوال ثم اكتفوا عن قطعة الورق المذكورة باتخاذ علبة
 مملوءة ماء وثبتت الفضيبي في قطعة من خشب الفل تعوم فوق
 الماء واستعملوها في معرفة الاتجاه لكن بسبب ثقل السفينة على
 الدوام وعدم وجود الثام تام للالة كانت الابرة قليلة التوازن
 ودلالتها تقريبية فمن ذلك اشتغل كثير من الامم بتحسين امرها بان
 جعلوا الابرة متحركة فوق محور راسٍ مثبت في علبة اسطوانية

علم الانسان منفعتها صار يتفكر في كيفية اتقانها ويدبر في اصلاح شأنها الى ان جعلها في صورة لائقة لنقل بعض الاشياء المعتاد مبادلتها بين عشيرته بان استعملوا روامس مركبة من خشب وبوص كما يصنعه الى الان اهل صعيد مصر والسودان وكثير من بقاع امريكا ويقطعون الاصول الغليظة من الاشجار ويجوفونها ويسافرون فيها او يعملون قوارب صغيرة يكسونها بجلود الحيوانات وربما كان هذا دليلاً على ان الامم السالفة كانت تستعمل هذه الكيفية في حمل اتقانهم وعند ارتحالمهم وعلى انها مضى عليها سنون لا تعرف غير ذلك ولما كثر تردد الخلق على بعضهم وكثرت الفتمم واخلاقهم وظهرت بينهم علايق جديدة اوجبت اتساع دائرة الملاحة اخذت السفن في التقدم وصارت في حجم اكبر من الاول واحكم غير انها كانت لا تسير الا بالقرب من السواحل لجهل الناس حين ذاك بما يهديمهم اذا ساروا على سطح البحر ولعدم معرفتهم بمن سكن وسطه او بساحله المقابل لهم ويغلب على ظني ان ارتفاع الخلق بالملاحة كان قاصراً على اجنيز البلاد الموجودة على السواحل فقط وان الامر بقي على هذا الحال الى ان صار استكشاف حجب المغناطيس وخواصه وعند ذلك امكن الخلق تطبيقه على استعمال خاصة الملاحة باضافة البوصلة اليها ومن هذا الوقت تجاسر الملاحون على مفارقة الشواطئ والتوغل داخل البحور فطافوا جميع بقاع الارض وساروا حيث شاؤوا ولم يكن هذا الامر معلوماً بالبلاد

وارادته يحول كل ما يريد الى ما يريد حتى تجاسر على ركوب
البحر وتحصل بسبب ذلك على جل مقصوده آمناً من ثقل امواجه
وتشعب افواجه لا يبالي بالعواصف وشدتها ولا بالظلمة وقتتها

فقال له الانكليزي . سيدي انه قد مضى على نوع الانسان
احتماب عديدة وازمنة مديدة وهم في انفصال عن بعضهم وعزلة
وتوحش وخشونة وقلة لجهلهم بعلم الملاحة فكانت كل امة مقيمة في
البتعة التي هي فيها لا نتعدها ولا علم لها بخلق سواها فكان كل
محروماً عما عند غيره من المنافع وغاية ما هنالك ان من كان منهم
قريباً من السواحل والجزائر انما كان يتتبع بالصيد من الشواطئ
واذا انتقل انما يتقل الى موضع قريب منه وبمقتضى ما يشاهد من
تجدد الاحوال حسب الاحياج يتعقل ان اول من اشتغل بالملاحة
سكان السواحل واقرب ما بعث فكرهم الى ذلك تكرار مرور
الاشياء الساقطة من الاشجار على وجه الماء من غيضات تكون
بجزائر قريبة منهم فلما راوا الاخشاب تمر على وجه الماء ركبوها وهي
على صورتها ثم بعد ذلك صوروها في صورة نقي من البلل بان
سطحو جرمها او الصقولي بها غيرها ففسارت مع التيار اما لجلب منفعة
واما لدفع مضرة كالفرار من عدو طالب او الهجوم على غريم كما
هي عوائد الاوائل قبل اتساع دائرة المدنية والعمارة وكما هو دأب
القبائل الباقية على الحشونة الى الان بسبب انعزالهم عن المدن
واقامتهم وسط الصحاري والبراري المنقطعة والبقاع الشاسعة فلما

وما هي إلا بلدة مثل بلدي * خيارها ما كان عوناً على دهري
وقوله وكل بلاد اوطنتك بلاداً

وغير ذلك مما لو استقصيته ما احصيته

ولما كان الشيخ من العلماء العاملين لم يكن عنده من هذه
الامور الا مجرد تذكر وخطور واما قلبه فكان في غاية الراحة
والاطمئنان مستحضراً تغيرات الزمان وتقلبات الحداثان دائماً التذكار
لقول الله الواحد القهار يقلب الليل والنهار ممثلاً بهجة وسروراً
منقاداً لقتضى قوله تعالى كان ذلك في الكتاب مسطوراً

فالتفت حضرته الى الانكليزي وقال له لا يشك عاقل ان
كل صنعة تدل على صانعها وعظما يدل على عظمه ومن اعظم
الادلة على عظم الخالق وقدرته خلق هذا البحر وتسخيره فانظر كيف
اجراه بقدرته وجعل له مسالك بتدبير حكمته وخلق فيه خلقاً
متنوعة الاشكال وجعله مقراً للجواهر واللال وخص كل نوع من
ذلك بمنافع واسكنه فيما شاء من المواضع فسبحانه ما اعظم شأنه
واظهر برهانه واعظم من هذا البرهان تسخيره كغيره لنوع الانسان
فانظر كيف هداه الله بعقله الى ان جعل السفينة في هذا الشكل
العجيب والوضع المحكم الغريب واطاف اليها من تفنناته وبديع
اختراعاته ما صارت به في ادارته وسارت بارادته ومكنه من العناصر
حتى صارت طوع يده فتري الريح مع قوتها والبحر مع ميوعته
والحديد مع صلابته والخشب مع مرونته كل ذلك طوع يده

من غير تلفظ ويتلو ورد البحر وتبرك وإذا بالمركب للسير تحرك
فتوهم الانكليزي انزعاج الشيخ من ركوب البحر كما كان عند ركوب
وابور البرفاتي اليه واقبل بعذب الفاظه يسليه وقال يا حضرة
الشيخ لا تنزع ولا يكن في صدرك من ركوب البحر حرج

فقال الشيخ يا حضرة الخواجا ومن كشف عن غامض العلم
سياجه ليس الامر كما فهمت وإنما تذكرت الامل والوطن فهمت اذ
لا يخفى عليك يا ذا البصيرة ان في هذا الوقت يتذكر الانسان
اولاده وعشيرته واحفاده ويحن الى احبابه ووطنه وملعب اترابه
وعطنه ويأسف على مفارقة ما لوفاته وما تعود عليه ايام اول حياته
وقد انضم الى ذلك ما خطر ببالي ما يكون اليه عند انتهاء السفر
مالي وكيف تكون هناك الاقامة وهل اعود الى وطني بالسلامة
فقد قيل من علامات الرشد ان تكون النفس الى بلدها تواقفة
والى مسقط راسها مشتاقفة ولا يخفى عليك ايها الرفيق ما اوصى به
نبي الله يوسف الصديق ان يجعل تابوته ليدفن عند ابيه الى ان
جاء موسى الكليم فاخرجه من الم وحمله الى مقام ابيه ودفنه ثم
وما ذاك الا لحب الوطن ولكني تناسيت هذه الاوهام واسيت
قلبي من الم هذه الاستقام وتاسيت بما قاله الافاضل الاخيار في
مدح التفتلات والاسفار منها قول سيد البدو والحضر . لو يعلم
الناس رحمة الله للمسافر لاصبح الناس على ظهر سفر ويقال الحركة
وَلَوْ دُ وَالسكون عاقر . وقوله

بها وكيل الخوجا في اخر كل شهر كما حرره له بذلك واذا لزم
 الامر لاكثر فاطليه من الوكيل المذكور على سبيل الاستقراض
 فقد اذن له صاحبنا الخوجا بذلك اغدق الله عليكم خيره الجزيل
 وردنا اليكم الرد الجميل
 حرره بينانه وحرره بيانه
 الفقير علم الدين
 خادم العلم الشريف

المسامرة الخامسة عشرة
 الملاحه

وختم الجواب وظرفه وعند الصباح توجه الى الخوجا وسلمه
 له فاخذه منه ووضع داخل مظروفه وارسله الى البوسطة ثم
 توجهوا جميعاً الى مكتب الكومبانية لاخذ تذاكر السفر فاخذ
 الخوجا للشيخ وولده تذكرتين من الدرجة الاولى اكراماً لها ثم بعد
 ذلك توجهوا الى اللوكندة واخذوا امتعتهم وانزلوها بعربة وتوجهوا
 الى ساحل البحر ومن هناك اخذ الخوجا قارباً وساروا الى ان
 وصلوا المركب فتحولوا اليها واخذ كل منهم في ترتيب امتعته في
 القمرة المعدة لهم وبينما الشيخ يقرأ آيات التحفظ ويذكر ربه في نفسه

تخبريني بما عندك من اخبار البلاد لان الانسان في غربته يشنق
الى مستط رأسه واصل تربته وفيما سطرته في هذه الدفعة كفاية
وان شاء الله تعالى اشرح لك جميع ما اراه ويناسب ذكره من
الحوادث وامور البلاد التي نقصدها لتفني على اثارنا وليكون
عندك علم من اخبارنا

واما ما تعهدتني من اكيد الود وقديم العهد فهو باق لا يغيره
بعد ولا فراق ولو علمت ما بي من تذكري اياك حال اغترابي لم
ترقا لك دمعة ولم تهدهاء لك لوعة

اما وجلال الله لو تذكريني

كذكريك ما كفكفت للعين ادعما

وانت تعلمين ان هذا السفر لم يكن لي ببال ولم يكن له في
خاطري مجال ولكن ما قدر يكون وكما قدر بالسفر والغياب يقدر
بالعود والاياب

الناس في طلب المعاش وانما * بالمجد يرزق منهم من يرزق
فكوني من الصيانة علي ما اعهد واحفظي ذاك الود والمعهد
وتذكري ما كان من امر الطائي مع نديم النعمان وما جمعناه اوقات
المسامرة ولا بأس بتلاوته على الاولاد اوقات المذاكرة واستديمي
الاحتجاب واذا تناولت شيئاً فليكن من وراء حجاب وبلغني الاولاد
والاخوات اني راض عنهم ما داموا على الاستقامة وقد تركت لك
عشرين جنهما كل شهر عبارة عن ثمانية وسبعين الف فضة ياتيك

لمن اغنمها والمال لمن حرّمها ما دامت الهدية وايضاً فان الضرب
 بحرك الشهوات الغضبية عند الضارب فلا يقف في ضربه عند
 حدّ العقاب بل يتعداه لما يخطر في باله من سوابق ذنوب
 المضروب وربما اضر باعضائهم او ترتب على الخوف والرعب
 البحث عما يخلصهم من يده فيحتجون بكل ما امكنهم من الحجج من
 غير تمييزين قبيحها ومليحها حتى ينجوا من يده وربما الجأتم
 الاحججاجات والتعللات الى اسباب الدناءة وخسة الطباع فتبقى
 فيهم طول عمرهم وحيث ان مقصود الالباء في تربية اولادهم ليس
 الاً اكتساب الشرف فمن الواجب ان لا يعرضوا اولادهم حال
 صغرهم لما يخل بهذا المقصد وان يختاروا لتربية اولادهم مؤدبين
 موصوفين بالادب والرافة وحسن الفعال حتى لا يصدر عنهم
 الا ما كان حسناً وبسبب ما عندهم من الرافة يعاملون الاطفال
 بما يناسب سنهم فيبتدئون لهم بالكلمات الصغيرة والحكم القصيرة ثم
 منها الى ما فوقها وهكذا فيميلون من انفسهم الى التعلم وحب العلم
 خصوصاً اذا ارشدتهم الاستاذ على ما في كل كلمة او حكمة القاها اليهم
 من الفائدة الدقيقة واستعمل في مخاطبتهم الالفاظ الرقيقة فارجوكم
 ان تعلمي بنصحتي وان تخبريني في كل خطاب ترسلينه اليّ عن
 حال كل منهم ودرجته خصوصاً عن حال اخواتي البنات وقد
 اتفقت مع صاحبتنا الانكليزي على ان يكتب لصاحبه بمصر باسئلام
 ما ترغيبين ارساله من الخطابات وهو يرسله اليها ولا باس، ان

من الاخلاق المرضية تنعطف نحوهم القلوب وينتشر لهم بين الخلق
سيرة حسنة ومن حسن سيرتهم وخلوص نيتهم وسريرتهم يغفرهم الله
بنعمته ورضوانه ويدخلهم مع الذين انعم عليهم غرف جنانه واذا
اخرت مؤدباً فالاولى ان يكون موصوفاً باوصاف اهل الكمال
ذا فقه ووقار وسكينة وجلال وان يكون في فن الحساب كاشفاً
عن وجه مخدراته النقاب وفي فن اللغة والأدب كأنما حفظ لسان
العرب وفي العقيدة اشعرياً وفي الاخلاق احنياً وفي علم السير مجراً
وفي الحديث كأنما تحنث بحراً ولا يلزم ان يقيم معهم طول نهاره
بل يكفي ان ياتي لهم في وقت معين والاولى ان يكون بعد وقت
افطاره ثم يخرج بعد ان يقسم لهم اليوم نصفين نصف يشغلون
فيه بالمطالعة والمذاكرة والنصف الاخر يلعبون فيه والاولى ان
تكون حصة اللعب متخللة بين اوقات التعلم والمذاكرة لئلا يطول
عليهم الجلوس فتخمد فكرتهم وتضعف بنيتهم وارجوك منع الضرب
مطلقاً وان تسلكي بهم طرق النصيحة والاسباب الموجبة لزيادة
الاجتهاد وصفاء القرينة كان تهدي للمجتهد منهم بعض تحف
من ملبس او ماكل او كتب او مصحف ونحو ذلك مما تميل اليه
الاطفال على حسب ما يظن لك من الاحوال فان ذلك باعث
لغيرتهم وازدياد رغبتهم اكثر مما يكون بالاذى والضرب فان
الضرب يوتر في الاعضاء الظاهرة فقط وبعد برهة من الزمن
يزول كأن لم يكن بخلاف ذلك فانه يوتر في الباطن وتبقى لذتها

يكون بيده مفاتيح السهوة وهكذا ولا يخفى ان الطفل لقصر عقله
 لا يعلم ما فيه مصلحة لنفسه فيميل بطبعه للعب فكنا نحب خدمته
 اكثر من حبنا للتعلم فكان كثير من الاطفال تمضي عليهم عدة
 سنين بلا فائدة فان تعلم شيئاً كان ضرره اكثر من نفعه وربما
 اكتسب في مدة الإقامة اوصافاً ذميمة فتصير له كالطبع ويتعذر
 على اهله تحويله عنها فيما بعد فتستمر معه بقية عمره فارجوك ان
 لا تبغثي الاولاد الى الكتاب ولا عليك ما يلزم لهم من المصروف
 فقد غهرني الله بنعمته واجزل عليّ عظيم منته ولا يخفك ان من
 هم ما يجب على الانسان في ماله ما يصرفه بيرية اولاده وفلذ
 اكباده وانت تعلمين ان اولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم
 سماء ظليلة وارض ذليلة فان غضبوا فارضهم وان سألوا فاعطيهم
 وان لم يسألوا فابتدئهم ولا تنظري اليهم شزراً فيملوا حياتك
 ويتمنوا وفاتك وبحسن التربية ينصلح حالهم ويعلمو بين الناس
 شأنهم ولا شك في انك تحبين ان تظهري نعم الله عليهم فتاتي لهم
 بما يوافق حالهم من الملبس والماكل فان فعلت ذلك ورأفت
 بهم واشركتهم معك في الاقوال والافعال وسلكت بهم طريق
 التدرج ثبت في ذهنهم ما تلقينه اليهم من القواعد الدينية
 والالفاظ الادبية وكلما تقدموا في السن قويت قواهم البدنية
 وحواسم العقلية فاذا بلغوا اشد هم لا يكون للاوهام الفاسدة على
 عقولهم تأثير فيثبت يقينهم ويصح ايمانهم وبما يتعودونه في الصغر

ففيه الكفاية والاولى عدم ارسالهم الى الكتاب لتكون تربيتهم في المنزل تحت نظرك وتلاحظي حركاتهم وسكناتهم واخلاقهم فاني اخشى من اخلاطهم بغيرهم من الاطفال ان يتطبعوا بطباع غير مرضية فتضر بهم في كبرهم لانهم الآن في سن التعلم والواجب ان تصان طباعهم مما يخشى عليهم منه فان انتِ اخترتِ لهم محلات من محلات المنزل ونقيته من الاتربة والاساخ والقمامات ووضعت فيه حصيراً او شيئاً من المفروشات كان اولى من ان يتوجهوا الى الكتاب فتسبخ من التراب ملابسهم وتنضيق من التعود على البلاط منافسهم ويدب اليهم القمل من كل حذب فيخل بصحتهم وربما نشأ منه داء الجرب خصوصاً ولبعض المؤدبين عوائد قبيحة فلا نعرض اولادنا لها اقلها تكرار شتم الوالدين والاتيان بحكايات كاذبة وعبارات فاسدة يكررونها من اول النهار الى اخره ما دام الطفل عندهم فرما يحفظها فتضر بتصوره وعقله فاني الى الان راسخ في ذهني ما كان مرتبه عليّ مودبي في صغري ان اتى له بشيء من المنزل فكنت اتحايل اتحايل اللصوص حتى اخلسه وأتية به وان امتنعت او اتيت باقل ما طلب توعدني او ضربني وكان احياناً يعاملنا معاملة الخدم فنما من يخدم الزوجة فيملاء لها الزير ويكنس البيت وينفض الحميمير ومنا من يخدمه فهذا يهيئ له غذاه ويفليه وهذا يملاء السبيل ويوضيه وهذا يدق له النشوق وهذا يجمع له النوى من السوق وهذا يجمع القوالح للتهرة وهذا

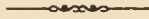
السيدة المصونة والذرة المكثونة من لاصرح باسمها ولا يغرب
 عن خيالي لطف طبعها ورسمها حضرة قرن العينين وزوجتنا
 ان شاء الله في الدارين . اما بعد بث الاشواق وابلاغ
 ما اكابد من الم الفراق فنعرفك اننا بفضل خالق البرية
 قد وصلنا بالصحة والسلامة الى نغر الاسكندرية وبمشيئة اللطيف
 القادر نركب البحر في غد ونسافر صحبة رفيقي وعزيزي حضرة
 الخوجا الانكليزي قاصدين بلاد الانكليز فلا تهمني بامرنا ولا
 تشتغلي بغيابنا وسفرنا وخلاصة القول بالاختصار والابجاز اننا
 في غاية من الاعزاز شاكرون من صاحبنا لزيادة التفاته وموانسته
 يزيد تفضلاً وازيد شكراً * فذلك دأبه ابدًا ودأبي

واما ما كان من امر ولدنا برهان الدين فقد اخذ في مبادي
 اللغة الانكليزية واصول اللغة العربية وان شاء الله ببركة دعاء
 والديه يتحصل على ما نقر به اعيننا وتشرح له خواطرننا واني
 لراض عنه لما فيه من الادب والامثال والاجتهاد فما من يوم
 الا وتظهر عليه بشائر الفلاح وعلامات النجاة والنجاح فنسال الله
 ان يقفه في الدين ويمن عليه بحسن اليقين حتى ينفع اهله
 والمسلمين

واما من قبل ما عندك من الاخوات والاولاد فارجوك ان
 لا تكتسي عنهم شيئاً من طرق الرشاد وان تكرر عليهم ما جمعناه
 في كتابنا المؤلف ايام طلبنا الموسوم بالارشاد لتربية الاولاد

نارنج الخطاب واما بهذه الكيفية فقد سهل الامر الا اني لا اعرف احداً من مشاهير مصر لاني مدة اقامتي بالجامع الازهر ما كنت اخرج منه الا الى منزلي بسبب اشتغالي بطلب العلم وكذلك نرة المنزل لا اعرفها لاني ما كنت ارى لمعرفة لزوماً خصوصاً والمنزل ليس ملكاً لنا فافظن ان الحاملة ما حالت والصعوبة ما زالت

فقال الانكليزي لا بأس عليك في ذلك ولا عدم الدهر وجود امثالك خطاباتك ارسلها مع خطاباتي لاحد احبائي بالقاهرة والزمه بتوصيلها الى اهل منزلك واؤكد عليه باخذ المکتوب منهم وارساله الينا فشكره الشيخ ودعاه وانصرف الانكليزي ليقتضي اشغاله



المسامرة الرابعة عشرة

المكاتب

واما الشيخ فاخرج الدواة والقرطاس واعتزل هو وابنه بعيدين عن اعين الناس وحرر خطاباً لزوجه ضمنه نصائح وحكماء من فكرته وصورته

البوسطة من غير انحراف ولا سوال من احد الى ان يصل المنزل الذي يقصده وذلك لان رسم المدن وخرطتها مبين فيه اسماء الحارات ومواقعها والعطف والشوارع وللمدينة قاموس وخرطة ودفتر مشتمل على اسماء السكان ووظائفهم فتمت راجع الخادم الخرطة والقاموس اهتدى لمقصوده فيتم ماموريته من غير مشقة الا ان القاهرة وان كان بها نمر موضوعة على المنازل والحارات والعطف لكنها غير كافية حيث لم يكن للبلد رسم ولا قاموس فن ذلك يحصل لخدمة البوسطة في اداء الوظيفة بعض مشقة لكن اذا اخذ المسافر قبل سفره الاحتراسات اللازمة بان اتفق مع بعض اصحابه او خادمه على التوجه للبوسطة في ايام معينة لياخذ الخطابات ان كان هناك امتنعت الصعوبة وكذلك اذا اتفق مع احد من الناس المشهورين ويحرر خطاباته ويجعلها في ظرف ويكتب علي ظهره اسم ذلك الشهير فيكون كالوكيل عنه

فقال الشيخ لم يخطر هذا الامر ببالي ولم اعرف غير ما كنت اعلمه من قبل حين كنت ارسل بعض خطابات لوالدي المرحوم فكنت اذا اردت ارسال خطاب انتظر اليوم او اليومين فلا اجد من ارسله معه وربما اتوجه بالخطاب الى ساحل البحر لأعثر ببعض التجار فلا اجد احداً من اعرفه فارجع ثم اعود واذا صادفت منهم احداً واخذه مني فكثيراً ما يفقد واذا سهل المولى ووصل الخطاب الى والدي لا يأتيني جوابه الا بعد شهر من

وإما في الأزمان السابقة فكانت المخاطبات والأخبار بطيئة الوصول
 لأنها كانت ترسل مع أحد الأحاباب أو المتوجهين للجهات فيطول
 الزمن ويضيع وقت انتهاء الفرصة إلى أن حصل بعض رفاهية
 وتقدم فاتخذت الساعة ثم الخيل وبعد ذلك وضعوا بسطا على
 أبعاد متساوية فكانت هذه الطريقة أسرع من الطريقتين قبلها
 لكنها كانت في مبداء الأمر خاصة بالملوك والأمراء ولم يصرح لعموم
 الناس بالانتفاع بها إلا بعد فانسع هذا الأمر واستعملته جميع
 البلاد وحسنت قوانينه فعم نفعه ولما فشا أمر التجاره واتسع في البر
 والبحر وزادت علائق التجارة بين الملل احناجوا جميعاً إلى استعمال
 هذه الوسيلة للحصول على مقصودهم في اقرب زمن وقد كان حتى
 صار من احسن نظمات الدول واكبر مولف بين الملل وكانوا
 قديما في البلاد المشرقية كمصر والشام يستعملون الحمام في توصيل
 الاخبار كما يعلم ذلك من اطلع على تواريخ المتقدمين ويقال ان
 اول استعماله كان من رشيد إلى دمياط وقد اختلف في اول
 من رتب الوسيلة ونظم لها اربطة موزعة في الطرق فذكر بعض
 المؤرخين انه (دارا) ملك الفرس وقيل (دارا) ملك (الديلم) وفي
 بلاد الروم (قيصر) وفي بلاد فرانساً شرماني فوسعوا في دائرتها وما
 زالت يتسع امرها شيئاً فشيئاً إلى ان صار لا يخلو قطر من الاقطار
 عن بوسطة حتى انه يوجد في بعض المدن الكبيرة مثل النخوت
 بوسطة مخصوصة بنقل الخطابات من حارة إلى حارة فيتجه خادم

المصلحة ومنها انه يتأتى بها للتجار الوقوف على حقيقة تجارتهم واجراء
 حركاتها بالسرعة التي يريدونها فان اراد احدهم الوقوف على
 امر شريكه او صاحبه او من يعامله ارسل الخبر بالتلغراف فيأتيه
 الجواب حالا ولا يستغرق الا بعض دقائق وان كان الامر يلزم
 له زيادة توضيح ارسله بالكفاية في البوسطة على الوجه الذي ذكره أولا
 وفي بعض الاحيان يرسل الخبر أولا بالتلغراف مجبلا ثم يتبعه
 بطريق البوسطة مفصلا فمن ذلك حصل لامور التجارة انقلاب
 حسن محسوس بسبب سرعة تواصل الاخبار بين مراكز التجارة
 وهذا بخلاف ما كان في الازمان السابقة لان الاخبار اذ ذاك
 كانت لا تصل الا بالمكاتبة فكان يمضي عليها ايام في اثناء السفر
 وربما لا تصادف الوقت المطلوب وبهذا كان يضع على التجار اغلب
 الفرص لانها كانت تابعة لسير تفويض لاحظ للنظر فيه كما تحكم
 به طبيعة الحال واما الان فقد تمكن التاجر في وقته وساعته من
 العلم بما يلزم مشتراه وما يجب التصرف فيه وبما راج منها وما كسد
 اذ بواسطة التلغراف والبوسطة في البر والبحر صارت جميع بقاع
 الارض متصلة ببعضها والاخبار واردة من جميع جهاتها مع السرعة
 التامة اذ في ظرف الاربع والعشرين ساعة تعم الاخبار جميع
 جهات المعمورة ولا يخفى عليك ان النوع الانساني بحسب ما
 جبل عليه من تطلبه زيادة السعة تجدد في معلوماته هذا السر
 الذي كان كامنا في الخلفة فاستعمله وانتفع به فزادت بذلك ثروته

بمعرفة ناظر المالية

فقال الشيخ وهل هذه المصلحة مخصوصة باهل مصر واسكندرية
أم اعامه لجميع الجهات المصرية من المدن والقري وكيف سهولتها
في النقل

فقال الإنكليزي انه سهل جدا بواسطة وجود السكة
الحديد لان المصلحة جعل لها جملة مكاتب في المدن وبعض
محلات شهيرة في الجهات البحرية والقبلية من القطر وفي المدن
الكبيرة مكاتب مركزية فالخطابات بعد نظريفها وختمها يوضع
بعنوانها الجهات التي يراد الارسال اليها واسم الذي تسلم اليه ثم
توضع في صناديق او علب على هيئة مخصوصة مثبتة في حائط
المكاتب ثم تجمع هذه الخطابات وغيرها في المكتب المركزي في
اوقات معينة وتوضع في مخال او علب تسلم لاحد مستخدمي البوسطة
مع النقود والاشيا الثمينة ان كانت بمقتضى سندات بيد اربابها
فياخذها احد الخدمة المذكورين ويسافر بالعربة المخصوصة
لذلك وعند مروره على كل محطة يسلم لوكيل البوسطة الذي
في تلك المحطة ما كان مخصصا مجتهه وهكذا ثم يصير توجيهها الى
اربابها بمعرفة الوكلاء بمقتضى سراكي معلومة بينهم واما الاجرة
فتارة تؤخذ من المرسل اليه وتارة تأتي له خالصة الاجرة اذا كانت
دفعت وقت الارسال ويعلم ذلك بعلامات توضع على ظهر الظرف
معروفة فيما بينهم وبما ذكر صار الامر هينا وهذه من فوائد تلك

قال الانكليزي كذلك يكون فان منبع الخير طهارة يقتدي به
من العلماء والامراء وهانحن قد تهيئنا للسفر فان كان في بيتك
تحرير خطاب للعائلة فاكتبه الليلة فان مركب البوسطة يقوم
بعد ظهر غد ومتى طلع النهار اشتغل الانسان بأمر شتى فربما
يطرا عليه ما ينسيه او يحصل له شاغل يلهيه فقال له الشيخ جزيت
عني خيرا فقد اظهرت ما اضمرت في نفسي ان اسألك عنه



المعامرة الثالثة عشرة البوستة

فقال الانكليزي الامر الان ممكن من غير صعوبة لان البوستة
بالديار المصرية وكذلك في البلاد الاوروباوية مصلحة قائمة بذاتها
من شأنها استلام الخطابات والجوابات من اربابها باجرة معلومة
على حسب وزنها وهي ملزومة بتوصيلها الى محل ارسالها مع غاية
الامنية وهذه المصلحة ليست مخصوصة بتوصيل المخاطبات بل
تستلم النقود والجواهر والفواتير المرسلة من قبل التجار كذلك ولها
قانون تجري على مقتضاه ولها خدمة مخصصون بها لم مرتبات على
قدر وظائفهم وناظر عمومي وحساب تلك المصلحة يقطع سنويا

فان النصيحة لا يكون لها تاثير حتى تصدر عن حر الطبع نقي
الصنع بالفاضل بصير كما يحكى ان رابعة العدوية وقفت يوما
على واعظ حوله جم غفير وهم عنه لاهون فقالت له كيف يداوي
العليل من هو سقيم فانشد

فخذ بعلمي ولا تركن الى عملي

ينفعك علي ولا تضرك اوزاري

ان الرجال كاشجار لها ثمر

فاجن الثمار واخل العود للنار

فقالت له لا والله حتى يكون عمك علي وفق عمك

وانشدت

ابدا بنفسك فانها عن غيرها

فاذا انتهت عنه فانت حكيم

لا اتنه عن خلق وتأتي مثله

عار عليك اذا فعلت عظيم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا

كبا يصح به وانت سقيم

فعند ذلك قام الواعظ واجتهد في تطهير قلبه وسعى المساعي

الحميدة فمرت عليه بعد ذلك ذات يوم فوجدت من حوله ما

بين باك ومغشي عليه فقالت له كيف رأيت فبكي وقال

نفعك الله ياسيدي ونفع بك

او احسن ما كان وذلك كما يحصل لذرية الرجل من الفقر
 والفاقة بعد موته وان كان ترك لها اموالاً وعقاراً وغزاً ووقاراً
 فيبقى اثرها بالكلية وبعد زمن يتجدد لها روتها الاول على يد
 ناجب من الذرية يلم شعنها ويصلح وعنها فيعود لها مجدها ويرجع
 اليها سوءكدها ما ذاك الا لتفريط الذرية وخروجها عن الحدود
 الاصلية فلو حافظوا على فخرهم وشرفهم واتبعوا قوانين سلفهم ورفضوا
 اغواء الغاوين ولم يفتدوا برأي المفسدين لاستمروا على سعدهم ولم
 ينجسوا الى من جاء من بعدهم بل ربما زادوا عن الاصل وتضاعفت
 عليهم خلل الفضل ولا سيما اذا انضم الى ذلك ما يعلمونه من
 الاصطلاحات المتجددة بتجدد الاحوال والاقوات فان النصيحة
 لا تؤخذ ممن اشتهر بالفساد او عرف بدناءة بين العباد او كان
 من المتبلمقين واهل النفاق او من ارباب المعاصي على الاطلاق
 لان مثل هؤلاء وان جلت معلوماتهم وحلت كلماتهم لا يقصدون
 الا التوصل الى اغراضهم فلا يصلحون دليلاً في الامور الدنيوية
 ولا قدوة في الاحكام الدينية بل لا تؤخذ النصيحة الا ممن عهد
 عليه الصدق وعرف بين الخلق باتباع الحق وكذلك الشريعة
 لا تؤخذ الا عن اربابها والكلام في هذا المعرض متسع وان
 اردت الزيادة ففي وقت اخر تسمع فان ما قلته لك بعض ما
 يقال اقال الله عنك في من يقال
 قال الشيخ ما احسن هذا الكلام واوصله الى اقصى المرام

لمعلمهم وذلك امر ظاهر لا يحتاج الى دليل ولا توضيح ولا تمثيل
 فكل احد يجب ان يتشبه بهن يقرب منه على حسب طاقته فكما ان
 الذآت تسري بالملامة كذلك عوائد الامراء تسري لاتباعهم
 وتنتشر من بلد الى بلد حتى تعم القطر. الا ترى ان اصحاب الوظائف
 تبع لرئيسها فان كان الرئيس قائماً بما يجب لها مؤدياً جميع حقوقها
 قام كل منهم بها هو مفروض عليه من غير كسل ولا تساهل
 ولا ملل وتحصلت ارباب المحقوق على حقوقهم باوقاتهم والعكس
 بالعكس ولا يخفى عليك ان كل انسان لا يلوذ به الا من يشاكله
 ويجانسه وفي اوصافه يماثله فاصحاب الكبائر من الامراء لا يلوذ
 بهم الا مثلهم وكذلك ذوو الفضائل منهم وهكذا اهل كل منزل
 بالنسبة لرب المنزل فاخلاقهم وعوائدهم مكتسبة من اخلاقه
 وعوائده فان اكثر من الموبقات والملاهي وانواع الشهوات سرى
 ذلك في اهل بيته وعائلته وذريته وان استقام وقام بها يجب عليه
 حق القيام تبعته عائلته وذريته وحاشيته وقياساً على ذلك حال
 كل راع مع رعيته فان حافظ على ناموس شريعته وقوانين ملته
 تبعته رعيته فكثير خيرها وان سلك طرق الفساد انحل امرها
 واتضع وفسد حالها وتضعضع ومن يتأمل احوال المتقدمين يرى
 ان كل طائفة تبع لسير من تبعته فتارة ترتفع وتارة تنضع فكم من
 قوم مضى عليهم اوقات زهو وظهور ثم انحط امرهم بعد ذلك وقصمت
 منهم الظهور ثم بعد انقضاء مدة من الزمان عاد لهم حالهم الاول

يلقونه من الفتن بين السيد وعائلته او بين العائلة وبعضها او بين صاحب البيت واحبابه بما يزخرفونه من القول والفعل ويخلفونه من التزوير الذي ليس له اصل وكثيراً ما يكونون سبباً في غضب الزوج على عائلته وشدوذ الزوجة عن طاعته او خروجها من بيته فيكون سبباً في زوال نعمتها وعدم الراحة بينها وبين رب المنزل وبالجملة فلا حصر لما ينشأ من اقوالهم وافعالهم بل كثيراً ما اتقت الاغايات والمحرم على اتلاف رب المنزل وفقده وكتب السير مشحونة من هذه الاخبار وفي ذلك عبرة لاولي الابصار

فقال الانكليزي كيف من يكون قدوة لغيره بخرف عن الصواب ويدخل مدخلاً لم يكن لحسنه في الشريعة ولا في العقل باب فان الامراء بالنسبة للرعية في كل زمن على الاطلاق كالكوكب والشمس المضيئة في الافاق فكما ان كل احد ياخذ منها ما يلزم لحياته من الحرارة والضوء وما بقي به نفسه من السوء كذلك الامراء تاخذ الرعية من عوائدهم واخلاقهم ويقتدون بهم في اقوالهم وافعالهم فاهل القرى يقلدون مشايخها وعمدها واهل المدن يقلدون امراءها واعيانها وكذلك الامراء تقلد ساداتهم ورؤسائهم فان كانت الامراء سائرة سيراً حسناً اتشر ذلك في افراد الرعية فصالح حالها وقويت شوكتها وعلت شهرتها والآتقلب الحال واخذ في الاضمحلال فان الناس بالنسبة لامراءهم كالاطفال بالنسبة

الاسلام ودخل بلاد الروم واطلعت العرب على الخصيان رأى
 امير المؤمنين معاوية رضي الله عنه رأياً مذهبياً بالقياس على غير
 اولي الاربعة جواز استعمال الخصيان فلما اقتنى منهم من اقتنى و اراد
 ان يدخله على بعض نسائه امتنعت من ذلك فاحتج بكونه خصياً
 فقالت له ان المثلة به لم تحل منه ما حرم الله ولم ير غيره من اهل
 الاجتهاد جواز ذلك فكان استعمال الناس للخصيان تقليداً لمذهب
 معاوية رضي الله عنه فهو من الشرعيات الاجتهادية دون النصبة
 ولقد ترتب على ذلك من الاثار المذمومة ما لو اطلع عليه معاوية
 لكان عساه ان يحكم بتجريمه فقد يطراء على الخلق ما ليس من
 طبائعها ويحدث في عوائدها ما يخالف دينها وشرائعها وبعد ذلك
 لا يمكن ازالته فيكون كالدآت التي تستحکم بالجسم فتوهنه ويجتهد
 من ابتلي بها في الشفاء منها فلا يمكنه ومن هذا القبيل الاغاوات
 بل هم اضر على ساداتهم من الداء بدرجات فان ضرر الداء قاصر
 على صاحبه واما ضررهم فتعد من رب المنزل الى عائلته وحاشيته
 واقاربه فمن تأمل حال الاغاوات مع ساداتهم وجد ان السيد
 ما جلب لنفسه الا ضرراً وما اكتسب باتخاذهم الا مخالفة الشريعة
 الغراء وتمكين غير عشيرته من الحكم على اهل بيته وعائلته مع ان الامور
 المطلوبة منهم يمكن الحصول عليها بغيرهم كما مرارة عجوز او بنت او
 ولد صغيرين وعلى اي حال ففائدتهم لا تفي بضررهم لان غالب
 النزاع والفساد الذي يوجد في البيوت لا يكون الا بسببهم لما

للعالم وهذا النادر كما يتفق في نساءنا يتفق في نساءكم من غير
فرق بيننا وبينكم

واما ما كان من امر الاغوات فلم يكن اتخاذهم امراً قديماً وإنما
هي بدعة دخلت بلادنا ولم تكن من عوائدنا السابقة ولا اللاحقة
ولم يرد بها شرع فلا ينسب اليها ما خرج عن حدوده فكم من
بدعة حدثت على ان هذه البدعة لم توجد الا عند بعض الامراء
لزعيمهم ان الاعتبار لا يتم الا بها او انها علامة على العظمة وعلى
حسب حال الامير وتعدد زوجاته وسرايره تتعدد الاغوات ومع
ذلك لم يقصدوا بانخاذهم لهم الا اكرام النساء وتعظيمهم واما جميع
الاهالي على اختلاف طبقاتهم فلا يتخذون الاغوات ولا حاجة لهم
بهم وان وجدوا عند بعضهم فذلك نادر ولا يكون الا تقليداً
بسبب تشبهه بالامراء العظام فلا يحكم على الامة كافة بما وجد
عند البعض ولا ينسب الى الشرع ما حدث بالبدعة فلم تكن
العرب تعرف خصاء الانسان اصلاً وكان شائعاً في الروم فلم يرد
في الشرع نص في امر استعمال الخصيان هذا الاستعمال القائم بين
الناس غير ان الكتاب العزيز تعرض في احكام النساء الى الرجال
الذين لم تخلق فيهم الفحولة وهم المعبر عنهم بغير اولي الاربة والاربة
حاجة الرجال الى النساء في امر جواز ابداء زينتهم حكم بامتناعها
وحرمتها الا على اجناس من القرابة وغيرهم منهم اولئك الرجال
فكان امر استعمال الخصيان من الامور الاجتهادية فلما اتسع

عمر اجتهاداً دينياً في منع ذوات الهيئات من الخروج الى المساجد حتى ان زوجة له خاصته في ذلك وقالت من هو افضل منك لم يمنع النساء من المساجد فتركها وخرجت الى المسجد فخالف اليها الطريق وجاها من حيث لا تشعر فضربها على عجزيتها فرجعت وهي تقول نعم ما رأيت يا امير المؤمنين فقد فسد الزمان ومثل ذلك سبقت الاشارة من النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال اعروا النساء يلزمن البيوت

انما يلزم المرأة شرعاً اذا ارادت الخروج ان تستأذن زوجها لانها لو خرجت من غير اذنه كان على جهل من احوالها فرما يسو الظن بها فيحدث له عند ذلك اوهام ربما جرت الى النزاع او الفرقة واذا اذن لها زوجها بالخروج يلزمها ان تكون في هيئة الكمال والوقار على حسب الحال من الاعسار واليسار فجميع ذلك لم يكن فيه احتقار لهن ولا ازدراء بهن بل هو من باب التعظيم والاحترام والصيانة اذ المرأة عند الرجل كالجوهرة النفيسة يجب صيانتها عن كل ما يشينها او يشين عرضها كما ان الجوهرة تصان عن كل ما يضر بلونها او يغير شكلها او يخس بقيمتها واما ما قد يتفق من ان بعض النساء يخرجن من منازلهن او يتكلمن مع الاجانب فذلك لا يكون منهن الا لضرورة والضرورات تبيح المحظورات فان لم يكن الخروج والاجتماع لضرورة ولا عذر شرعي بل كان لمقاصد شهوانية فذلك نادر وهو لا حكم له بل الحكم

ولقد كانت العرب على عوائد قريية من العوائد الاروباوية
فكانت النساء يجاذن الرجال ويناشدنهم الاشعار ويناقلن الاخبار
لكن كان امر المحرمة وتصون النساء فيهن قوياً وكانت امورهم
منكشفة لما كانوا عليه من ظهور البداوة ولم تكن متكاثفة عليهم
الاستار المدنية فجاء الاسلام وهم على تلك العوائد فقام العقلاء من
المسلمين منهم عمر بن الخطاب فقالوا يا رسول الله تغيرت الاحوال
وكثر الاجتماع واشتد اخلاط الناس بعضهم ببعض من العرب
وغيرهم وظهر الفساد من اخلاط الشباب فهلاً امرت بالحجاب
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم اوامر بذلك ثم اوحى اليه
كما هو شان الله معه حيث لا يوحى اليه حكماً الاً عند اقتضائه
بحكم تغير العوائد ومن ذلك الوقت تواترت الايات والاحاديث
بجذب النساء ومنعهن من الخروج وحدثت الاخلية في البيوت ولم
تكن قبل عند العرب وشدت امر الحجاب على التدرج فكان اولاً
منع النساء من الخروج نهراًً وكن يخرجن الى البراز عند اقبال
الظلام فوقف عمر ليلة في طريق ذهاب نساء النبي صلى الله عليه
وسلم الى البراز فرأى عمر احدى ازواج النبي صلى الله عليه وسلم
وهي سودة بنت زمعه فقال قد عرفناك يا سودة فرجعت ومنعن
ليلاً ايضاً الا من الخروج الى المساجد للصلوات في موضع منها
خلف الرجال كما هو ترتيب الصفوف الشرعي فلما ازداد اجتماع
الناس من سائر النواحي وصار غير العرب اكثر من العرب اجتهد

لو فرض ان زوجها فقير او متقدم في السن واجتمعت بمن هو اغنى منه او اصغر لبطرت معيشة زوجها وكرهت الاقامة معه وكذلك الزوج ربما عرضت له خواطر نفسية باجتماعها على اغنى منه او اصغر فيؤل الامر الى الفرقة وخراب المنزل وكما ان الرجل لا تسخ نفسه بروية غيره لحرمة المراه لا تسخ نفسها برويه غيرها لزوجها اذ النساء اشد غيره من الرجال كما هو معلوم وايضاً فان غالب نساء المشرقين بسبب تعودهن على القيام بالامور المنزلية وبسبب حرارة البلاد المشرقية يمتنعن من الخروج من المنزل بطبعهن واذا خرجن فلا بد لهن من الملابس التي تراها عليهن وقاية لوجوههن من حرارة الجو والتربة لانهن لو لبسن ملابس نساء الافرنج لأثرت العوارض الجوية على اعضائهن وازالت بعض جمالهن ولذلك نرى نساء الافرنج لا يمشين الا بالشمسيات خوفاً من تلك العوارض وربما اعتكفن في الاوقات الشديدة الحرارة او ذهبن الى بلادهن وحيث لم تكن عوارض البلاد واحده لم تكن عوائد اهلها واحده لان النوع الانساني مجبول على ان يجعل احواله مناسبة لاحوال بقعته التي هو بها ومن تامل احوال الامم يجد هذا الامر عمومياً فطباعكم مناسبة لبلادكم وطبائعنا مناسبة لبلادنا

واما دلائل لزومها فالآيات القرآنية والاحاديث النبوية المنبهة على محاسن احتجابهن واعتزالهن عن غير محارمهن كثيرة

بين ولكن لما كانت الرجال بمقتضى الحكمة الالهية هم الذين يقومون
بصالح المعاش وعمار الدنيا بنحو الفلاحة والتجارة والصناعة اضطروا
الى الخروج من منازلهم للاسفار وتحصيل معائشهم واما النساء فلما
لم يكن عليهن سوى خدمة المنزل الزمن بملازمته . على ان المرأة في
بيت زوجها لا يلزمها الا تسليم نفسها له فلم تتخذ للخدمة ولا للطبخ
ولا لغسل الثياب ولا لكس البيت ونحو ذلك بل كل ما فعلته
زيادة عن تسليم نفسها فذلك من لطف طبعها وحسن عشرينها
مع بعلمها كما روي ان رجلاً جاء بباب عمر بن الخطاب ايام امارته
يشكوه له سوء خلق زوجته عليه فبعد ان دق الباب سمع صوت
امراة مرتفعاً على امير المؤمنين تناول منه وتؤذيه فالتفت الرجل
راجعاً وقال في نفسه هذا حال زوجة امير المؤمنين فانا اصبر
وكان عمر سمع دق الباب فخرج ووجد الرجل منصرفاً فناداه
واستخبره عن شأنه فقال وجدت عندك مثل ما جئت اشكوا اليك
منه فقال امير المؤمنين ان النساء يخدمتنا بما لا يجب عليهن يغسلن
ثيابنا ويصنعن خبزنا الى غير ذلك من الاعمال الشاقة وانما هي
لحظة وتسير فليحسن خلقك يحسن خلقك

وايضاً فإلغائفة العائفة عليها او على الزوج من مخالطة
الاجانب فضلاً عن الكشف عليهم حيث ان الزوج قائم بجميع
لوازمها ولوازم منزله فلا اقل من ملازمة منزلها اذ لا يعود من
اخذلها بالاجانب الا تضررها بزوجه او تضرر زوجها بها لانه

ركب في طباع اناث هذا النوع من الشهوة القوية الدائمة التي لا تزال الدواعي لاختادها وكسر عاديها قائمة في كل وقت على خلاف بقية الانواع الحيوانية فانك لا تجد الانثى منها تتحرك شهوتها وتشد غلمتها الا في وقت معين من اوقات السنة حسب ما طوى في ذلك المخالق الحكيم من ايجاد النسل لابقاء سلسلة الانواع ولذلك تجد اناث الحيوانات ممتنعة بنفسها صادة ما يريد من الذكور فكل الفة من الحيوانات التي طبعها التألف والاختصاص كافية الفها مؤنة صيانتها وربما تقاربت اوقات سورة الشهوات في بعض الحيوانات المؤتلفة فمكنت غير الفها من نفسها فحصل بذلك مقتلة يقتل فيها القوي الضعيف وقد جعل هذا النوع ذا عقل يحكم به ويميز ما ينبغي وما لا ينبغي فلو ارسلت احاد هذا النوع على مقتضى شهواتها لحصل من ذلك فساد عظيم لا يحصل مثله بين البهائم ومنها ان النساء عند الرجال كالاسرار ولا تسع النفس باطلاع غيرها على سرها

ومنها ان مبادئ ميل النفس الى الشهوات انما هو الاجتماع والميل للشيء لا يكون الا بعد رؤيته فلذلك منعت النساء من التكشف بمحضرة الاجانب وامرت بالاحتجاب عنهم غيرة عليهن وكرها هذه المفاسد ولا تظن ان المنع من الاختلاط خاص بالنساء بل الرجال كذلك ممنوعون من رؤية النساء الاجانب والمخلوة

والزموهن البيوت والعزلة عن سائر الاجانب وما يقوي هذا
الظن اتخاذهم الاغاوات للمحافظة عليهم خارجا وداخلا فنجدهم
ملازمين لمن موكلين بهم من قبل ساداتهم بخبرونهم بكل ما
يحصل منهم من قول وفعل فتكون العائلة دائما في اضطراب
ورعب وعذاب خائفة من ان تنزل او يقال في حقها شيء لسيد
المنزل وان كان هناك تلذذات منزلية فأظن انها وقتية وربما
كان غالبها تصنعا وتكافا وتطبعنا لان اللذة الطبيعية لا تكون
الا عند تساوي المتحابين وخلوص الود من الطرفين وقل ما
يوجد ذلك بين السيد وجواريه او بينه وبين سراريه اذ لا
مساواة بينهما ولا نسبة فكيف يوجد الحب او يكون للألفة اثر
بالقلب بل يكون بينهما غالبا بعض وحشة وكدر وحيث لا يمكنها
الانفصال لا يسعها الا الطاعة والامثال والاعاشت في هم ونكد
وكدر مستمر الى الابد وما تراه حولها من المستلذات والجواري
والمخدم والاعاوات وانواع الحلي وزخرفة المنزل والملبوسات
لا يفيدها الاغما على غم وعيشة كعيشة من وقع بينهم عطر مستم
فيتزايد ضررها خوفا من ان يتمتع به غيرها لعلها حيثئذ بدرجته
في السعة واليسار فلا تنهأ بحال ولا يقر لها قرار

فقال له الشيخ انا نرى هذه العادة الجارية عندنا لازمة عقلا
وشرعا اما عقلا فمن وجوه منها . ان الطبع البشري لا يستحسن
ان يطلع احد على حرم غيره فضلا عن حرم نفسه لما

التربية يرشدها لما يجب عليها من الفروض ويكسوها حلال المروءة
اللائقة بها وبزوجها واقاربها فكما لا يكتفى بمجرد العلم مع الحرية كذلك
لا يكتفى بمجرد العزلة مع الجهل بل لا بد في كلا الحالين من حسن
التربية في الابتداء لانك تعلم ان حسن التربية يهذب عقل الانسان
ويصفي طباعه ويعوده على الفضائل ويبعده عن الرذائل فهو
زمام ذلك كله والتقاطع لعرق الشبهة من اصله ولم ار هذه العادة
المخالفة لعاداتنا الا في بعض مدن البلاد الشرقية فاخصاصها
بهذه المدن القليلة يدل على انها بدعة حدثت لاسباب طارئة
فان جميع نساء الارياف ونساء عربان البادية وبلاد العرب
واهل المغرب وسواحل الشام وارض الحجاز لا يتخجن عن الرجال
وربما قن مقام ازواجهن في بعض الاحوال كما كرام الضيف
والاخذ والاعطاء مع الاجانب وكثيراً ما يكون امر المنزل وادارته
موكولاً الى رايهن وتديبرهن وقد رايته فيهن من عاونت الرجل
في اعماله الشاقة وهذا كله بالاخيار من غير اكراه ولا اجبار
فلولا ان الحكم بالعزلة لامر قهري وسبب جبهي لما وجدت في
المدن واطن ان هذه العادة ماخوذة من الاعاجم وسرت الى
امثال هذه البلاد عند دخول النار والترك بها واستيلائهم عليها
ففسا من عظمتهم وكبرهم احتقار غيرهم واكثروا للخدمة من الجواري
وللفرش من السراري ولما اكثروا منهن خافوا عدم رضاهن
بهم فمنعوا حرمهم من الدخول والمخرج والاخلاط بالرجال

لا تمنع منه العزلة بالكلية لان كل امرأة يمكنها ان تعلم كل شي وهي في منزلها بان تنظر من الشباك مثلاً فترى كل ما يمر بالشوارع والمحارات فتعرف اوصاف النساء والرجال واحوالهم فمن احبته خاطبته وما اعجبها فعلته وحيثئذ يكون حال من فعدت في منزلها من النساء كحال من تكون مع الرجال سواء بسواء ومع ذلك فالمرأة على حسب عوائدكم لم تمنع كل المنع عن الخروج من منزلها بل تخرج لزيارة اهلها وجيرانها واحبايها من اهل البلد فيمكنها ان تطلع على صفاتهم واحوالهم وتعلم درجة ثروتهم في منازلهم واذا اراد منعها من الخروج فربما تعلقت بان عليها ربحاً من الجن او بها مرضاً من الامراض فلا تستريح الا بزيارة بعض الاولياء او المضي الى بعض النساء او تريد الذهاب الى الحمام او صلة بعض الارحام ونحو ذلك من الاعذار والحيل التي يمكنها ان تبلغ بها الامل وهذا كله فضلاً عن اخبار المترددين اليها بجميع ما يكون من اخبار الناس وحوادثهم كل ذلك امر مشهور وواقع في بلادكم فلو صرح لها بالذهاب الى اي جهة ارادت لما علمت زيادة عما تعلم ولا الم بها اكثر مما الم فان قلت ان في العزلة بعض صيانة لعرضها ومحافظتها على شرف زوجها واهلها بتقليل خروجها من منزلها ومخالطتها لغير بعلمها اذ ليست من تخرج متى شئت وتجنبع بمن ارادت في اي وقت كان مثل من لا تخرج الا باذن وسبب وعلّة . قلت ليس هذا اقوى في الصيانة من التربية بين اهلها واقاربها فان حسن

وما يظعن عليه من محاورات الرجال لكن ربما ترتب على هذا
 الاختلاط ما يخرجهم عما هو اليق بهن من الصيانة والحياء لان
 كثرة المخالطة والملاسة بين الرجال والنساء قد تفضي الى ضد
 ذلك فلا شك ان عادات المشرقين ارجح وراهم في احتجاب النساء
 عن الرجال اصح واصح اذ ذلك مما يوجب زيادة ائتلاف المرأة
 باهلها ويؤكد ارتباطها بزوجها وارتباطه بها وامنه عليها ورضاها
 بحاله بخلاف ما اذا كانت تنظر لغيره في جميع الاوقات وتطلع على
 معاش الناس مع اختلاف الحالات فان ذلك قد يحرك عندها
 الشهوات ويجدد لها لوازم ربما اوقعت بينها المنازعات والمخاضات
 فيؤل الامر الى الفرقة وخراب المنزل او انقسام العائلة ولهذا
 المصالح ورد شرعنا باحتجابهن واطن ان اصل شريعتكم لا يخالف
 ذلك وهو ايضا مقتضى اراء العقلاء والنبلاء واكابر الحكماء قال علي
 كرم الله وجهه اكفف ابصارهن بالمحجاب فان شدة المحجاب خير
 لهن من الارتياب وليس خروجهن باضر من دخول من لا يوثق
 به عليهن فان استطعت الا يعرفن غيرك فافعل . قال السمعاني
 لاتامنن على النساء ولو أخاً * ما في الرجال على النساء امين
 ان الامين ولو تحفظ جهده * لا بد ان ينظرة سيخون
 وقال عمر الفاروق استعيذوا بالله من شرار النساء وكونوا
 من خيارهن على حذر

فقال الانكليزي ان الذي ذكرت ايها الشيخ من المحذورات

ولما انتهى امر الطعام وحن وقت القيام توجهوا جميعاً الى
 محل شرب القهوة فمنهم من اقام بها يقرأ صحف الاخبار ونحوها
 ومنهم من خرج لاشغاله ومضى لحاله اما الانكليزي فتوجه مع الشيخ
 لمحجرته ومعها برهان الدين وكان الانكليزي قد تفرس ما دار
 بمخاطب الشيخ في اثناء الطعام الاّ انه منع نفسه من الكلام في ذلك
 المقام ولما استقر بهم الجلوس وساغ ابداء ما حاك في النفوس

المسامرة الثانية عشرة

النساء

قال الانكليزي قد اطلع سيدنا الشيخ في هذه اللحظة اليسيرة
 على كثير من عاداتنا واحوالنا ولا بد انه ادار نظره واجال فكره
 في المقارنة بينها وبين عادات هذه البلاد وتامل فيها تامل اعتبار
 وانتقاد فمن اجل هذه الفائدة قد رغبت في حضوره على هذه
 المائة

فقال له الشيخ نعم كنت اتامل فيما اراه من الاحوال لاسيما
 في اخنلاط النساء مع الرجال فوجدت في اخنلاطهن فوائدهن
 من حيث انهن يتلذذن بما يريه ويعلمنه من المحادث والاخبار

نصف العقل وتعرف بهم وكان ممن حضر على المائدة بالقرب من
 الشيخ شابة طليانية تعرف اللغة العربية وغيرها فكانت تارة تتكلم
 بها وتارة تتكلم بلغتها او غيرها من اللغات الاجنبية على حسب
 لغات المحاضرين وكانت بديعة الجمال نادرة المثال ظريفة الشامل
 ثابتة الجاش فصيحة اللسان لا تقتصر في كلامها على الالفاظ العادية
 بل تأتي بمجاسن الالفاظ اللطيفة والنكات الظريفة وتدخل مع
 الرجال في المباحث العلمية والسياسية مع صغر سنها فتعجب الشيخ
 من ذلك واستغرب حالها لكونه لم يعهد في نساء البلاد المشرقية
 امثالها فانه يراهن دائماً عن الرجال بمعزل ولا شيء عليهم سوى
 خدمة المنزل ولا يتكلمن الا مع ازواجهن وذوي قرابتهن واذا
 تكلمن مع الرجال يتكلمن بنجمل واستحياء بخلاف ما رآه في الطليانية
 ومن معها من النساء اذ لم يجد بينهن وبين الرجال فرقاً في المخاطبة
 والمجاوبة والمحاوره والمسامرة وكان يرى الخادم يبداء في تقديم
 الطعام بهن قبل الرجال واذا طلبن شيئاً بادر بتقديمه اليهن
 من كان قريباً منهن لا فرق بين صديق وغريب واجني وقريب
 فالكل محنفل باكرامهن كل الاحفال ولا ياتي الا بما يسرهن من
 الاقوال والافعال فامعن في ذلك النظر واجال فيه قداح الفكر
 وقارنه في نفسه بعوائد نساء المشرقين لينظر ايها افضل فرأى ان
 عوائد المشرقين اجمل واكمل لانها اعون على حفظ الشرف
 واصون للعرض من اسباب التلف

حتى ينظرا ما يصنع كل احد بما امامه من تلك الادوات وكيف
يتنفع بها فيفعلا مثلما يفعل غيرها

وبيناها في هذا الكلام دارت صحاف الطعام ورأيا كيف
يستعمل الحاضرون هذه الادوات والتفت الانكليزي اليهما وعرفهما
بما رآه قد يخفى عليهما واعلمها ان جميع ما يحضر لذلك المحل من
اللحم اصله ماخوذ من جزارين من اهل البلاد فضلاً عن كون
اصحاب المحل من اهل الكتاب فاكل الشيخ وابنه كسائر الحاضرين
واستعملا بعض ما امامهما من الاقداح في شرب الماء القراح
وتركيا ما اعد منها للراح

وقال الانكليزي للشيخ فيما بينه وبينه انما قصدت بحضوركما
على هذه المائدة بين هؤلاء الناس المخنفي الاجناس ان
تطلعا كما اخبرنكما على الرسوم والعادات وتعودا قبل دخول
اوروبا علي مثل هذه الحالات وهذه المائدة قد جمعت اغراباً من
بلاد شتى واجمبع من اوربا بعضهم ورد من قبل بقصد السياحة
او الاقامة بمصر وبعضهم حضروا من مدة وقضوا مأربهم واغراضهم
ويريدون العود الى بلادهم ومن جملتهم عائلة انكليزية تريد ان
ترافقنا في وابور البوسطة الذي نساfer فيه فان شئت واذنت
عرفتك بهم لانه لا يخفى عليك مزايا المعرفة والائتلاف بالناس
والمخالطة وحسن المعاشرة فقبل الشيخ منه ذلك وقال هذا مما
ندب اليه نبينا صلى الله عليه وسلم حيث قال التودد الى الناس

شرحت لك هذا المقام لطال الشرح واتسع الكلام ولكن يكفي
 الآن ما قلته لك وسنعود لهذه المسئلة فيما بعد هذا وقد جاء
 وقت الطعام فقم بنا انت وولدك ناكل ونستريح وفي غد ان شاء الله
 يكون السفر والانتقال عن هذا المستقر لان وابور البوسطة قد
 وصل ويسافر غداً بعد الظهر فقام معه الشيخ والغلام ودخولا
 جميعاً محل الطعام فنظر اليه الشيخ فوجده متسعاً وفيه خلق
 كثير من نساء ورجال وثمان واطفال فداخله الحياء والهيبه
 لعدم اعنياده مثل تلك الجمعية العظيمة خصوصاً وقد رآهم
 جميعاً شاخصين بابصارهم اليه لمخالفة هيئته وملبسه لما هم عليه
 ولما علم الانكليزي منه ذلك مزجه ومازحه وازال ما داخله من
 الحياء وقال له تعلم ان ما يلزم معرفة العادات والرسوم المختلفة
 بين اصناف العباد بحسب الجهات والاقطار والبلاد لما في
 ذلك من عظيم الفائدة باتساع دائرة الاطلاع والتمكن من تمييز
 الحسن والتبيح من احوال الناس والبقاع فقبل الشيخ منه تلك
 العبارة وقعد بقربه وقعد ابنه الى جانبه وصار يتأمل في هذه
 الجمعية وما كوها ومشروبها ووجد امامه على السفرة ملقعة وسكيناً
 وشوكة واقداحاً صغيرة وكبيرة لم يدر ما المراد بها وكذلك ولده
 فارادا ان يستفهما عنها من صاحبها الانكليزي الا انها رأياه يتكلم
 مع من بجانبه من الطرف الآخر فلم يريد ان يقطعاً كلامه ورأيا
 امام كل واحد من المحاضرين مثل ذلك فانققا على ان يصبوا

لا يقطع تواردهم عليها وترددهم اليها من اول السنة الى اخرها
ولكونها من قديم الزمان مجمع تجارة بلاد العرب والسودان
كانت مركزاً يجتمع فيه جميع التجار واصناف التجارة من جهات
المعمورة كافة وما زاد في الرغبة في مصر ووسع في دائرتها وجود
سكك الحديد الموصلة لجميع جهاتها وسلك التلغراف المار بينها
وبين بلاد الهند واوربا فانقطع بذلك ضياع الوقت واتصلت
الاخبار وجرت الامور باوقاتها من غير تطويل في الزمن ولا
زيادة في المصروف فمن كثرة وجود الاغراب عندهم حدثت بالضرورة
في البلد عوائدهم ومنها هذه اللوكاندات اذ لا ياوون الا اليها
ولا يمكنهم الاستغناء عنها لانه كما يقال في الامثال (من شب
على شيء شاب عليه) فمن ظهر بالمدن التي ظهروا بها اولاً
خانات ومحلات للملاهي وقهاوٍ مشبهة لما في بلادهم ومناسبة
لحال ثروتهم وكان اول ظهورها بالاسكندرية لانها المينا والمرسى
للمراكب الواردة والصادرة واول بلد ينزل به الغريب بعد مفارقة
البحر ثم سرى ذلك الى غيرها شيئاً فشيئاً وهكذا كلما مدت التجارة
اغصانها واستظلت القرى بظلالها واقتطفت اهلها من ثمارها كثرت
اثار التمدن والعمارة والتناس والمحاضرة وعم قليل يتآلفون
بالاغراب وتناكد بينهم الاسباب ويسعون في فعل ما يجذب
قلوبهم اليهم ويحسنون امر ما بينهم ويتقل القطر ومبانيه واحواله
واحوال ساكنيه ويكون هذا الانتقال ثمة وجود الاغراب ولو

ووقع اهلها في اشد مجاعة فلاجل هذه الاسباب انقطع عنها توارد
 الاغراب وقل تردد الخلق اليها وبانقطاعهم عنها خلت افكار
 اهلها منهم فعملوا ما عملوا من خاناتهم ووكائلهم مناسبة لحال
 انفسهم وعوائد امثالهم وربما كانت الخانات والوكائل التي وضعوها
 فوق الكفاية اذ لم يكن المتصود منها الا الوقاية الوقتية مدة
 الليل وعلى الخصوص الأمن من اللصوص واما بالنهار فلا لزوم
 لها بسبب اشتغالهم بما يلزم لقوتهم ومعاشهم وبهذه الكيفية كان
 الغرض الحقيقي منها انما هو ماوى بعض الناس فيها بالليل ليس
 غير بخلاف هذا الوقت فانه قد اطهنت القلوب وحصل الامان
 وساعد الزمان بوجود علائق المحبة بين المملل خصوصا بين اهل
 مصر وسائر الدول بحصول الامن على المال والنفوس ووجود
 انواع السهولة اللازمة للاسفار فاطمان الغريب وامن وسهل
 عليه مفارقة الوطن وهرع الناس الى مصر من سائر البقاع
 وتواردوا عليها من جميع الأطراف بمقاصد ممدوحة وان كانت
 مختلفة فمنهم من يقصد الإقامة فياخذ له بها مسكنا ويتخذها موطنًا
 ومنهم من يقصد التجارة ومعاملة اهلها فيجيء من بلده اليها ثم يذهب
 منها الى بلده وهكذا على حسب مقتضيات الاحوال وبسبب
 اعتدال هوائها ولين طباع اهلها وكثرة احتفالهم واعنائهم بانقاد
 عليهم كثرت الرغبة فيها لتغيير الهواء وتعديل المزاج واكتساب
 الضجة وبما اكتسبته من التمدن صارت قبلة لجميع اهل اوروبا

ومخاطبات رسمية لعدم التعرض له وتحتفظات كثيرة على نفسه
وما له وما معه لان الفتن كانت مستمرة والاحوال لم تكن مستقرة
والاهوال مترادفة والاهواء متخالفة فكانت الاغراب تعد دخولها
والاقامة فيها من باب المخاطرة لما ذكر ولا سيما لتسلط الامراض
الوبائية الدورية فيها على الاغراب في تلك الاوقات وكان ذلك
امراً مشهوراً بين اهل اوروبا يصل اليهم في رسائل محررة باللسنة
مختلفة من ورد عليها واطلع على احوالها وهذا فضلاً عن قلة
العلائق بين اهل مصر والاقطار الاخرى فكانت مصر في معزل
عن جميع الاحوال التآسية كأهل دارفور وكردفان الان فكل
جهة كانت مخصصة بما عندها محرومة من فوائد غيرها وكانت
المحكّم والمتصرفون في امور العامة اذ ذاك مشتغلين باحوالهم
المخاصة بهم كل منهم مقتصر في تحصيل معيشته وما يزيد في
ثروته على اسباب فاسدة واعمال كاسدة كالقتل والنهب والسرقة
والسلب صارفاً كل فكره في الوصول الى مال غيره ولو باضراره
لا يبالي في فعله بجرمة ولا حل ولا يراعي حق صاحبه في نسب
ولا آل ففسد امر الناس وتضعف وانحط حالهم وتزعزع لقله
الناصر وعدم المنصف القاهر فاهملت اسباب الثروة والتقدم
والآل امر اهلها الى الفقر والعدم لتسلط الافات المتنوعة والعاهاات
الكثيرة المستنظمة وتعطلت حركة التجارة والفلاحة ولم يجد اهلها
من عدم الراحة ما يملأ الراحة وتعطلت الارض من الزراعة

وتهويل امرها ووصف كثرة شرها وقلة خيرها

فقال الشيخ كل ما ذكره من المقام العظيمة والاصناف
الذميمة مجموع في تلك الخانات والوكائل القديمة بخلاف هذا
الخان اللطيف والمكان الظريف فانه خال من جميع تلك المضار
مشتمل على كل ما يجلب المسار من حسن بنائه وتجدد هوائه
ونظافة محلاته وكمال ادواته فيقيم به الانسان في دعة وراحة
وسعة لا يرى الا ما يسر ولا يجد ما ينفره او يضره ولا يفقد ما
يحتاجه في وقت من الاوقات من جميع اللوازم والادوات فليت
ما عندنا من الوكائل المذكورة يستبدل ولو على التدرج بما يقرب
من هذه الصورة

فقال الانكليزي لا يخفى عليك ايها الصاحب الفاضل
والعالم العامل ان الامور مرهونة باوقاتها والاسباب ملازمة
لمسبباتها ووقتنا هذا ليس كالاقوات التي مرت على مصر فكان
من يسير او يسبح بها قبل الان بنحو خمسين سنة لا يرى مثل هذا
الخان في مدينة من مدن مصر لانه كان غير لازم في تلك
الاقوات بسبب فقر الاهلين واضمحلالهم وندرة وجود الاغراب
بها لعدم امنهم اذ ذاك فيها على انفسهم واموالهم فكان من يأتها
منهم ليقف على اخبارها او يطلع على اثار الماضين من سكانها
يكابد مشقات عظيمة ويصرف في الحصول على ذلك مبالغ
جسيمة ويستغرق ازمة طويلة ويحتاج الى مكاتبات للوصية عليه

لا تقربوا منها وخافوها ولا

تلقوا بأيديكم الى هلكاتها

ابداً يقول الداخلون بيها

يارب نج الناس من افاتها

قالوا اذا ندب الغرب منازلنا

تتفرق السكان من ساحاتها

وبدارنا الفنا غرب ناعق

كذب الروات فاين صدق روايتها

صبراً لعل الله يعقب راحة

للنفس اذ غلبت على شهواتها

دار تبیت الجن تحرس نفسها

فيها وتندب باختلاف لغاتها

كم بت فيها مفردا والعين من

شوق الصباح تسع من عبراتها

واقول يارب السموات العلا

يارازقا للوحش في فلواتها

اسكنتني بجهم الدنيا فني

اخراي هب لي الخلد في جناتها

فلما اكمل الشيخ قال الانكليزي لقد احسن هذا الشاعر

واحاد وبلغ ما اراد من المبالغة في صفة تلك الدار وذهما وتميمها

ما راغني شيء سوى وزغاتها
 فتعوذوا بالله من لدغاتها
 سجت على أوكارها فظننتها
 ورق الحمام سجعن في شجراتها
 وبها زناير تظن عقاربها
 حر السموم أخف من زفراتها
 وبها عقارب كالأقارب رتع
 فينا حمانا الله لدغ حمانها
 كيف السبيل إلى النجاة ولا نجاة
 ولا حياة لمن رأى حياتها
 منسوجة بالعنكبوت سماؤها
 والأرض قد نسجت على آفاتها
 والبوم عاكفة على أرجائها
 والدود يبحث في ثرى عرساتها
 والجبن تانيها إذا جن الدجي
 تحكي الخمول الجرد في حملاتها
 والنار جزء من تلهب حرها
 وجهنم تعزى إلى نفعاتها
 شاهدت مكتوبا على أرجائها
 ورأيت مسطورا على جنباتها

رقص بتنقيط ولكن قافه

قد قدمت فيه على اخواتها

وبها ذباب كالضباب يسد

من الشمس ما غي سوى غنائها

ابن الصوارم والقنا من فتكها

فينا وابن الاسد من وثباتها

وبها من الخطاف ما هو معجز

ابصارنا عن وصف كفياتها

وبها من الجردان ما قد قصرت

عنه العتاق الجرد في حركاتها

وبها خنافس كالطنافس افرشت

في ارضها وعلت على جنباتها

لو شتم اهل الحرب متن فسوها

اردي الكاه^١ الصيد عن صهواتها

وبنات وردان واشكال لها

ما يفوت العين كنه ذواتها

ابدا تمص دماءنا فكأنها

حجامة لبدت على كاساتها

وبها من النمل السلبياني ما

قد قل ذر الشمس عن ذراتها

على الاجسام وينثره على الجفون ويذره في العيون فان فتح الانسان
 عينه امتلأت قذى وان اغمضاها لم يأمن من الاذى فان نزل
 المطر فخير لمن بها ان يستتر بالسماء ويلتحف بالانواء فهذا السقف
 يطر الطين والسماء انما تمطر الماء ولقد حكمت عليّ صروف
 الاقدار فدخلت احداها ليلة في بعض الاسفار
 فبت كاني ساورتني ضيئلة

من الرقش في انيابها السم نافع
 ولقد تذكرت ليلة بت بها القصيدة المشهورة للاديب كمال
 الدين علي بن محمد بن المبارك الشهير بابن الاعمى في صفة داركان
 بسكنها فبت اترجم باياتها واتسلى بكلماتها فقال الانكليزي اي
 القصائد هي فقال الشيخ ها هي
 دار سكنت بها اقل صفاتها
 ان تكثر الحشرات من حشراتهما
 الحير عنها نازح متباعد
 والشردان من جميع جهاتها
 من بعض ما فيها البعوض عدته
 كم اعدم الاجفان طيب سناتها
 وتبيت تسعدها براغيث متى
 غنت لها رقصة على نغاتها

خاناتنا ووكائلنا وجد المكان مجرداً من كل شيء فلا يجد به ما يأكله او يشربه او يفرشه او يستعمله والويل لمن يمضي عليه بها الليل لانه يكون تحت تصرف انواع الحشرات من البرغوث والتقل والبق والبرغش بييت مسهداً ومثل هذا مشدداً

ثلاث باأت بلينا بها * البق والبرغوث والبرغش

ثلاثة او حش ما في الورى * ولست ادري ايها او حش

وهكذا النمل وجميع الموزيات فلا يرى فيها ما يسر الناظر ويريح القلب والخطار تنهال عليه الا تربة من كل جانب وتدب اليه الهوام من سائر الجوانب فلا يطرق جفنه المنام ولا يستريح في قعود ولا قيام لا يأمن فيها الانسان على نفسه ولا يجد طريقا لانه تراها تقدمها الى السقوط آت وتخرها تساقطت اتربتها وانتهالت فتمضي عليه المدة في قلق ويطضي ليله في سهر وارق خصوصا من كثرة نباح الكلاب وشحج البغال وطنين الذباب ورغاء الانعام وكشيش الهوام وصهيل الخيل ونبيق المحمير وهنالك يستغيث ويستجير وهيئات المغيث والحجير وليس بها منافذ لتجدد الهواء ودخول الاضواء غير فتحات صغيرة وكوات حقيرة عليها ابواب من الاخشاب غير متقنة الصنع ولا محكمة الوضع ان اغلقت حجبت الانوار واشتبه الليل بالنهار وان فتحت جلبت المضار ولم يتنفع بها في دفع الحر والبرد والغبار فهي في الشتاء زمهرير وفي الحر نار وسعير وسقفها مسكن للحشرات والهوام وشربال للتراب يغلغله

دخولنا يتكلم مع واحد من ابناء جنسه بكلام يدل على المحبة والالفة
 فقال له والده هي علي كل حال تدل على عظم قدر صاحبنا سواء
 كانت له او لغيره اذ لولا ذلك لم يمكن له ان ينزل بدار مثل هذه
 وبينما هما في هذا الكلام ونحوه اذ دخل الانكليزي
 وسأله عما يلزم له وعرفه كيفية الاقامة بهذا المحل وأشار
 له الى خيط نازل من اعلى المحل يقرب من الارض وقال له
 اذا لزم لك شيء مما تريد فشد هذا الحبل وحركه يتحرك بحركته
 جرس يسمعه الخادم ويأتي اليك فتحبزه بما تريد يأتيك به في
 اقرب وقت فسر الشيخ من ذلك وشكره واثني على اخلاقه فقال
 الانكليزي اخبرك ايها الاستاذ ان الانسان في مثل هذه الدار
 لا ينبغي له ان يمنع الخجل عن طلب ما يلزم له لان اصحابها لم
 قانون مربوط وقدر معين مضبوط على كل شخص بحسب المكان
 الذي ينزل به سواء طلب ما يلزم له او امتنع من طلبه وعليهم
 لكل محل فروض يجب اداؤها . فقال له الشيخ اليس هذا المكان
 لك او لبعض احبابك نزلت عنده فقال لا بل هو خان يعرف
 بلفظ (لوكاندة) او (اوتيل) وهو معد لاقامة من يرد عليه من
 الاغراب والمسافرين ومن لا مأوى لهم في البلد كالمحلات التي
 تعرف عندكم بالوكايل . فقال الشيخ سبحان الله ارى الافرنج يعنون
 بانقان جميع الاشياء حتى خاناتهم ووكايلهم لا يتساهلون فيها
 كتساهلنا في خاناتنا ووكائلنا فنرى المسافر اذا نزل بمكان من

المسامرة المحادية عشرة
المخانات واللوكندات

ثم ساروا جميعاً ودخلوا اسكندرية ونزلوا في خان من خانات
المسافرين المعروفة باللوكندات ليقبموا به الى ان يحضر وابور
البيوسطة ولما كان الشيخ لم يسبق له دخول مثل هذه المحلات
وانما قضى عامة اوقاته في الجامع الازهر وداره بمصر ظن في نفسه
هذا الخان داراً للانكليزي او لآحد احبابه ولكنه كان يتأمل
في حسن رونقه وبهجه ونظافة مفروشاتة ولطافته فیتعجب ما يراه
لا سيما من كثرة المسافرين الواردين على هذا المحل ووجدهم قد
خصصوا له ولولده حجرة بها سريران ودولابان وطرابيزة وشمعدانات
وساعة دقاقة وفيها جميع ما يلزم من الماء والصابون والمناشف
والكراسي بحيث لا يتقص شيء مما عساه يلزم للانسان من امثال
ذلك فقال لولده يلزم ان يكون الانكليزي صاحبنا ذا مال
كثير وثروة عظيمة حتى يكون له منزل مجمل بهذه الصفات
غاص بهذه المخلوقات فقال له ولده وقد رأى غير هذه الحجرة ان
هناك حجرات وغرفات اعظم من حجرتنا زخرفة ولطافة وفي كل
منها من الاسرة والادوات الكثيرة مثل ما هنا وأكثر واظن ان
هذه الدار ليست ملكاً له بل لآحد اصحابه وقد شاهدته عند

الرعية فكذلك الانسان بالنسبة للخليفة فان اهتدي الى الطريق
الحق وصل واتصل وان عدل عنه ضل واضل
وقد امتد بينهما القول في هذا المعنى الى ان وصلا الى
اسكندرية

فقال الانكليزي للشيخ قد قطعنا المسافة بين القاهرة
واسكندرية وهي مائة وثلاثون ميلاً انكليزياً في اربع ساعات
ونصف ساعة وكان يلزم لقطع هذه المسافة بغير سكة الحديد
نحو اربعة ايام واكثر فهل تعلم احسن من هذا الاختراع العجيب
الذي كان سبباً لقطع تلك المسافة الطويلة في هذا الزمن القريب
ثم انهم نزلوا في موقف السكة بالاسكندرية فوصل الى الانكليزي
هناك ورقة على يد احد خدمة البوسطة فاخذها منه فلما فتحها
وقراها ضحك ملياً وقال للشيخ اتعلم سبب ضحكي قال الشيخ لا
قال اتريد ان تعلم سببه قال نعم ان شئت فقال الانكليزي
ان الكلام المسطر بهذه الورقة برز من فم قائله وهو والذي من
منذ ساعتين من لوندرة وبيننا وبين هذه المدينة بحسب الطريق
الذي نسلكه اليها نحو ثلاثة آلاف ميل فعجب الشيخ اكثر من
تعجبه من سرعة الواور فقال له الانكليزي سأشرح لك بعد
الاستراحة سبب هذا السر العجيب ان شاء الله تعالى



فاوصلتهم الى فهم القوانين والنواميس التي عليها مدار احوال
الموجودات حتى وصل العلم الى الدرجة التي هو عليها الان وان
كانت ليست الدرجة التي يجب الوقوف عندها بل كل زمن يأتي
معه فوائده على حسب ما تقتضيه احواله وعوائده فكما تنقل النوع
البشري في الازمان الماضية كذلك يتنقل في الازمان الاتية وحيث
علم ذلك ظهر ان اكبر باعث للانسان على البحث ومعين له في
مقاصده هو الخليقة نفسها والموجودات اعيانها . قال الشيخ . نعم وانما
عليه ان يخصص كل فرد من افراد الاشياء بما يوافقه على حسب ما
علمه فان وفق للحق واسند الى كل شيء ما استحق ولم يخرج عن
المحدود المرسومة والقوانين المعلومة كانت اعماله راجحة وافعاله
ناجحة وان نسب الى افراد الاشياء ما ليس لها وصورها في نفسه
بصورة تخالف حالها لبست غير كسوتها وظهرت على خلاف
حقيقتها فاذا اعتقد ذلك ووثق به وجرى على موجهه وحكم بحسبه
ضل عن طريق السلامة ووقع في مهاوي الندامة فيكفر بربه
الذي خلقه من ماء مهين ورزقه وهو خير الرازقين ويعيش بين
خيالات واوهام ووساوس والام ويستمر على هذه الحالة مدة حياته
ويؤل امره الى العذاب المهيمن بعد ماته فعلم ان عقل الانسان
قبل علمه كان ناقلاً عن افراد الخليقة ومقلداً لها واما بعد العلم
فيكون لها كالمملك بالنسبة لرعيته فكما ان احوال الرعية مرتبطة
باحوال المملك وكل ما يصدر عنه من قول او فعل يسري الى

الحقيقية التي عليها مدار الكائنات وجميع ما استكسفته لم يكن الا نتيجة مجته في الموجودات ونسبتها الى بعضها من حيث الكيفية والافعال والصفات لان النوع الانساني في مبداء امره لم يكن يعلم ما يعلمه الان والدليل على ذلك اننا لم نجد امة من الامم الا وقد انتقلت من حالة الى حالة اخرى وهذا محسوس بالمشاهدة فكم من امة كانت في اسوء حال من نحو اربعين سنة قد انتقلت عن حالتها حتى صارت اول امة وما ذاك الا من حسن تدبيرها وادارة امورها بموافقة قوانينها وكم من امة كانت تخشى سطوتها الامم آل حالها الى الدمار والعدم وكان عاقبة امرها ان صارت تحت رق غيرها فالبسها الله لباس الذل والمهانة وانحطت عما كانت عليه من علو المكانة ومن هنا علم ان نوع الانسان بالنسبة لما هو عليه الان كان غارقا في بحار الجهل زمنا طويلا يرتفع كالانعام بل اضل سبيلا كاهل البقاع المتوحشة بافريقيا واسيا وامريكا فاستمر بهم الامر على ذلك حتى وجدت الاسباب التي اضطر بها الناس الى الالفة والاجتماع فدبت بينهم علائق التانس ومبادئ التمدن وذلك انهم اخططوا مدنا وامصارا وقرى وديارا سكنوا بها واجتمعوا فيها فاحتاجوا الى الضبط والربط والتعامل والتحمل فكان ذلك من الاسباب والذرائع لوجود القوانين والشرائع والعلوم والمعارف وسائر اللطائف فمن ذلك الوقت بدا العلم في بعض البقاع ودب في الخلق حب الاتساع فتعلقوا من الشرائع مجالها

بعض الأحوال في الضرر والوبال والطغيان والضلال وكما كان
العقل سبباً في هذا النفع بكأله قد يكون سبباً في ضرر صاحبه
وضلاله والوقوع في شيء أعماله فيوقعه ذلك فيما يغضب الرب
ويمنعه من منازل القرب ولا ريب أن هذا كله ما يدل على وجود
الصانع العليم والمبدع المحكم الذي أودع في كل ذرة من مخلوقاته
لطائف صنعه ولطيف آياته قال تعالى في كتابه المكنون (وفي
الارض آيات للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون)

ففي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد

فكيف يتعدى العبد حدود مولاه ويحمد ما منحه وإولاه
قال الانكليزي لاشك ان الانسان ضفوة الخليفة والملك
المخليفة على غيره في الحقيقة وقد وصل الى ما وصل اليه من الكمالات
العظيمة والدرجات العالية بالتدرج والتقدم شيئاً فشيئاً فكان
كلما انكشف له سر من الاسرار او وقف على شيء من الآثار
يبحث عن غيره وطلب ما فوقه وهكذا ولم يزل كذلك من الاعصار
القديمة والازمان الخالية الى هذه الايام الحاضرة وكذا يكون حاله
في الاعصار القابلة بالقياس على ما سبق فكما اتسعت دائرة
استكشافه بوقوفه على شيء من اسرار الكائنات ولطائف مكوناتها
اتسعت دائرة علمه فيتسع نور بصيرته فيتمكن من الاطلاع على
مكونات اخرى اعظم من الاولى وانفع منها وكلما اطلع على سر
استنتج منه غيره وبهذه الطريقة وصل للقوانين العمومية والنواميس

من استعمال هذا السر المودع في الماء فسبحان من ابدعه ودبره
ولم يظهره الا في الوقت الذي اراده وقدره

قال الشيخ من نظر لظاهر صورة الانسان مع ضعفه وصغره
جنته ودقة اعضائه ونخافته ونظر لافعاله وعجيب اثاره واحواله
استغرب وتعجب ولم يهتد في نسبة ذلك له الى سبب فانه مع ضعفه
وصغره يتصرف في الكون باسره بقوة نظره وفكره ليحصل منه على
اغراضه ومقاصده ومنافعه وفوائده فتراه قد احمال على الهواء فسخره
وصار يجوب به البحار والتفاريق ويملاً به الجداول والانهار فتارة
يجري به الماء وتارة يجتمع وتارة يصرفه وتارة يمنعه وتارة يرفع سطحه
وتارة يخفضه حتى روى الارض المنخفضة والمرتفعة من غير فرق
بين بقعة وبقعة فكانت الارض طوع يده متقادة في جميع احوالها
اليه فاطهرت له خيراتها واغدقت عليه بركاتها وكذلك سخر النار
فصارت من ضمن خدمه يستعملها في مصالحه البرية والبحرية فلم
يكن شيء من المخلوقات الا وقد دخل تحت طاعنه وفي تصرفه
وقبضته فجميع الحيوان والنبات والنار والهواء والتراب والماء خاضع
لسطوته مذعن لباسه وصولته فمثل الانسان بالنسبة لغيره كالمملك
بالنسبة لرعيته وذلك بمقتضى ما منح الله سبحانه من خلافته قال
تعالى اني جاعل في الارض خليفة وقال سبحانه هو الذي خلق
لكم ما في الارض جميعاً ولكن الانسان كما انه يستعمل فكره ونظره
في حصول الكمال والوصول الى خير الاعمال يستعمل ما ذكر في

الثروة في كل البقاع ومن يقارن كمية المنزوع بالطرق المعتادة من قبل بما هو منزوع الان يجد بينهما فرقاً كبيراً جداً في مقدار الفدادين والمحصول لان صاحب الارض في الزمن السابق كان لا يزرع الا بقدر قوته او قوة المزارع فكانت الزراعة موقوفة على حد معين لا تتعداه واما الان فبواسطة استعمال الآلات البخارية في الحرث والري والحلج وما اشبه ذلك امكن له الخروج عن هذه الحدود والاتساع فيها والمحصول على عدة نتائج يزداد بها راس ماله وارباحه واصلاح ارضه بالخدمة والتنظيم فجميع هذه الامور ونحوها كالتجارة والصناعة قد تحسنت وازدادت اضعاف ما كانت عليه وما زالت آخذة في زيادة التقدم والرجح ولولا هذا البخار لكانت غالب بقاع الارض محرومة مما هي متمتعة به الان من مزروعاتها واهلها محرومين من نتائج مصنوعات البلاد الاخرى ومحصولاتها واقول لك بالاخص ان استعمال البخار اقوى مغذ لظاهر الانسان وباطنه اما ظاهره فبالرونق والبهجة واكتساب راحة البدن والمهجة واما باطنه فباتقاله من قيد المضيق الى سعة الاطلاق وتحليه بمعرفة عجائب البلاد وغرائب الافاق. وبسببه اعادت الناس على حسن المخالطة والانس والائتلاف وزال ما كان بينهم من موجبات الوحشة والبغضاء والاختلاف وتاكّد ذلك باستعمال الاشارة الكهربائية المعروفة بالتلغراف اذ لا يكون بين الخلق وبعضها رابطة اقوى من رابطة المنفعة وكل ذلك نتج

قال الانكليزي من اعظم فوائدها ما حصل بين الملل
وبعضها من المساعدة الكلية فيما يطراء عليها من المحوادث الفظيعة
كالغلاء والقحط فتصل الاخبار وتتقل الارزاق من سائر الاقطار
ويحصل الاسعاف من دون ان يشعر الخلق كما حصل غير مرة
وقبل ظهورها كان اذا حصل مثل ذلك في اقليم من اقاليم العمورة
لم يمكن ان تصل اليه مساعدة من اقليم اخر الا بعد جهد جهيد
وبلاء شديد حتى ان الناس في بعض الازمان اكل بعضهم بعضاً
بعد ما اكلوا الرم والحجيف وباعوا اولادهم وكذلك اذا حصل
ببلد من البلاد بعض امراض وفساد في الهواء يسهل بواسطة هذه
السكة مفارقتة بعض ايام والعود اليه بعد ذلك فعلم من هذا ان
حصول التيسير بين الناس واتساع دائرة معاشهم وكثرة امنهم قد
زاد عما كان عليه في الايام السالفة ومن تامل اصناف المبيعات
من الخضروات والفواكه تحقق عنده فائدة البजार ومزيد منفعته فانا
نرى الفواكه على اختلاف انواعها وبعد بلادها في جميع اوقات
السنة مجلوبة الى البلاد المصرية مع انها ما كانت ترى فيها من
قبل وكذا الخضروات الطرية فباي كيفية كان يمكن ذلك لولا
استعمال البजार فقد حصل به ثمرات متعددة لكل من البائع والمشتري
بنقل الفواكه والخضروات والبضائع في كل البقاع واتسعت دائرة
الفلاحة بكثرة الرغبة في الزرع لكثرة ارباجه وازدادت درجة

بالحاء المعجمة بعد النون وقيل الخاس طوق الدوارة والمحور
المذكور يسمى القب والمسمار الذي يكون فيه يسمى زازة كما وجدته
في ترجمة مقدمة الادب وفيه المدهن ظرف يوضع فيه الدهن لطلاء
بعض مواضع العجلة

وبينها في هذا الكلام وامثاله اذا بهما قد وصلنا الى موقف
السكة بناحية كفر الدوار

قال الانكليزي هذا اخر موقف في هذا الطريق ليس بعده
الا الموقف في اسكندرية ولم يبق عليها الا مدة يسيرة ودقائق من
الزمن غير كثيرة

قال الشيخ سيجان الله لقد تقاربت البلاد والامصار بسبب
هذا الجار تقارباً شديداً حتى صار يستغني الانسان في اسفاره عن
عدة اشهر ببعض ايام وعن عدة ايام بيوم او بعض يوم فصار
يمكن للانسان ان يسافر من القاهرة الى الاسكندرية ويرجع اليها
من يومه بعد ان كان لا يمكنه ذلك الا في مدة اسبوعين او اكثر
حتى ان بعض اصحابي اخبرني انه سافر مرة من الاسكندرية في
الجريريد القاهرة فلم يصل اليها الا بعد ثلاثين يوماً فقد رجع
الانسان مدة طويلة من عمره فضلاً عما توفر عليه من ماله الذي
كان يصرفه في سفره واستراح من كثير مما كان يكابده من المشاق
والمناعب والعوائق والمصاعب التي لم يكن يخلو عنها ولا يسلم
مسافر منها فما اكثر فوائد هذه السكة وما اوفر ما لها من الخير

قال الشيخ هذه الهاء لبيان فتحة الحرف الذي قبلها لا للتلفظ
 بها ونظيرها الهاء التي بعد الباء فليست هاء تانيث وإنما تكتب
 كذلك لهذا السبب ويسمونها هاء رسمية لكونها ترسم ولا تقرأ ولعل
 هذه الكلمة محرفة من عربية بإبدال عينها همزة كما صنعوا في عباء
 فقد رسمه في الكتاب المذكور (أبه) وقال هو عربي محرف
 وصححه عباء وبعض الناس يزيد على لفظ عربية الباء ويقول
 عربية

قال الانكليزي فما يقال في العربية في محل لفظ عربية
 المذكور

قال الشيخ . قال في الكتاب المذكور هو بالعربي عجلة
 بفتح العين المهملة والجيم واللام وهاء الوقف اخره وحال وهي التي
 تتخذ للصبي ليتعلم عليها المشي ودراجة وهي مثلها (اه) وتسمى العجلة
 ايضاً زازية كما في القاموس وفيه ايضاً العجلة بالتحريك الالة التي
 يجرها الثور والجمع عجل وعجال وعجال والدولاب او المحالة
 وخشب تؤلف تحمل عليها الانتقال (اه) والان تطلق العجلة على
 تلك الدائرة التي تسير بها العربية على الارض واسمها في العربية
 دؤارة بضم الدال ومدورة وكل شيء مستدير اذا لم يدرو لم يتحرك
 فهو دؤارة وفؤارة بفتح الدال والفاء فاذا دار او تحرك فهو دؤارة
 وفؤارة بضمها واذا اتسع ثقب الدؤارة من اكل المحور الذي فيها
 وضعت في ثقبها قطعة خشب ليضيق فتسمى هذه الخشبة نخاس

من داخل العين الى الخارج ومنه العبرة (بالكسر) لان الانسان يتقل فيه من الشاهد الى الغائب ومنه المعبر لان الانسان يتقل بواسطته من احد طرفي البحر الى الثاني ومنه التعبير لانه يتقل مما يراه في النوم الى المعاني الغائبة . الثاني (ع ر ب) ومنه سميت العرب لكثرة انتقالاتهم بسبب رحلة الشتاء والصيف ومنه فلان اعرب في كلامه لان اللفظ قبل الاعراب يكون مجهولاً فاذا دخلت الاعراب انتقل الى المعرفة والبيان . الثالث (ب ر ع) ومنه فلان برع في كذا اذا تكامل وتزايد . الرابع (ب ع ر) ومنه البعر لكونه متقللاً من الداخل الى الخارج الخامس (ر ع ب) ومنه يقال للخوف رعب لان الانسان يتقل عند حدوثه من حال الى حال اخرى . السادس (ر ب ع) ومنه الربع لان الناس يتقلون منها واليهما (ا ه) .

فعلى هذا مادة (ع ر ب) تدل على الانتقال والعبور مثل (ع ب ر) ومناسبة هذا المعنى لهذا المركب المخصوص الذي نحن بصدده واضحة ظاهرة لاخفاء فيها ولكننا لم نجد في كلام العرب ولا من قرب منهم ولا وجدنا من نقل عنهم اطلاق لفظ العربية على المركب المذكور وانما نسمعه في كلام المولدين وكلام الترك فقد خالطتهم وتعلمت من لغتهم ورأيت صاحب لهجة اللغات اوردته فيما ذكر من الكلمات وكتبه بالالف هكذا (اره به) قال الانكليزي فما هذه الهاء التي بعد الراء

صانع الحلواء وفي القاموس الهيظلة قدر معروف من صفر معرب
 باتيله والظرف الذي تصنع فيه الخيصة مخبضة ويقال للوعاء الذي
 يقلى عليه مقلاة ويقال ايضاً طاجن وطيخن وهما معربان كما في
 القاموس وفيه ايضاً الطابق كهاجر وصاحب ظرف يطبخ فيه
 معرب تابه والمخرقة التي تمسك بها القدر لتنزل عن النار يقال
 لها الجعال واجعلها انزلها بالجعال هذا بعض ما يتعلق بالقدر
 ولو اخذنا في استيفاء جميعه اطال الكلام وتشعب القول فلنكتف
 بهذا القدر وننتقل الى الكلام على العربية وما يتعلق بها

قال الشهاب الخفاجي في شفاء الغليل العربية بلغة اهل
 الجزيرة سفينة يعمل فيها رحي في وسط الماء الجاري مثل دجلة
 يديرها شدة جريه وهي مولدة فيما احسب . قاله في المعجم وانا لا ادري
 هل المركب المسمى عربية (وهو ما نحن فيه) اخذ من هذا او هو
 غير عربي وهو الظاهر (اه) كلامه

وفي تفسير الرازي ان مادة (ع ب ر) بجميع تقاليبها الستة
 التي منها (ع ر ب) تدل على العبور والانتقال ونص عبارته
 المسئلة التاسعة العبارة وتركيبها من (ع ب ر) وهي في تقاليبها
 الستة تفيد العبور والانتقال فالاول (ع ب ر) ومنه العبارة لان
 الانسان لا يمكنه ان يتكلم بها الا اذا انتقل من حرف الى حرف
 اخر وايضاً لانه بسبب تلك العبارة ينتقل المعنى من ذهن نفسه
 الى ذهن السامع ومنه العبرة (بالفتح) لان تلك الدمعة تنتقل

رواه بكسر الصاد ورواه ابو عبيد بفتحها وقال الصيدان
برام الحجارة والصاد قدور الصفر والنحاس قال ابن جنى
والفه منقلبة عن الباء واستدل على ذلك برواية ابي عبيد
من الصيدان بفتح الصاد قال وانا ارى ان القدر انما سميت
صاداً من الصيد وهو التكبر وذلك لما في القدر من الغليان
والحمي والنوران ولذلك يشبه بها المساورة والمضاغنة قال
الشاعر

نفور علينا قدرهم فنديها * ونفتوها عنا اذا حميها غلا
(اه) وذكرت بهذا قول امرء القيس في صفة الفرس
على العقب جاش كأن اهتزاه

اذا جاش فيه حميه غلي مرجل
العقب عقب الانسان خفف باسكان القاف والاهتزاز شدة
الصوت يريد ان هذا الفرس اذا حركته بعقبك حمي وجاش كما
تجيش القدر وكفى ذلك من السوط والمرجل القدر من النحاس
وقيل كل قدر مرجل وهي مؤنثة وقال ابن دريد التساخين
المرجل لا واحد لها الا انهم قد قالوا تسخان ولا احته وشكيمة
المرجل عرونها ويقال للقدر الصغيرة كفت بفتح الكاف وقد تكسر
وتقول الترك وبعض محالطيم من العامة للقدر التي يطبخ فيها
تجرة وهو محرف تنكيه الفارسي ومعربه طنخير بغير هاء كما في
القاموس وطنخيره بالهاء كما في لهجة اللغات وفيها ايضا الهبطلة قدر

قال الانكليزي فهل تذكر قول الشاعر
رأيت قدور الصاد حول بيوتنا

قنابل دها في المحلة صبا

قال الشيخ نعم هكذا انشده ابن سيدة ولم يسنده والذي
احفظه حسبت بدل رأيت والبيت لحسان بن ثابت رضي الله
عنه من قصيدة طويلة يقول فيها

وندمان صدق تمطر الخيز كفة

اذا راح فياض العشيات خضوما

وصلت به زكبي ووافق شيتي

ولم الكُ عضا في الندامى ملوما

وابقى لنا من الحروب ورزوها

سيوفاً وادراعاً وجمعاً عرمرما

اذا اغبر افانى السماء واحملت

كان عليها ثوب عصب مسها

حسبت قدور الصاد حول بيوتنا

قنابل دها في المحلة صبا

يقول اذا اشتد الجذب حسبت قدور الصاد حول بيوتنا

جماعة خيل قائمة يعني انهم يطعمون في الجذب والتحط كثيراً

والصاد الصفر وجمعه صيدان كئار ونيران قاله ابو علي وانشد

وسور من الصيدان فيها مذانب

قال الانكليزي سمعت رجلاً يقول في الدعاء على اخر
رماه الله بثالثة الاثافي فما مغناه

قال الشيخ ثالثة الاثافي الجبل وذلك انهم قد يضعون
القدر على اثنتين الى جانب جبل ويسندونها اليه فيكون
الجبل ثالثة الاثافي فيقال في الدعاء على الشخص رماه الله بثالثة
الاثافي اي بدهاية عظيمة كالجبل

قال الانكليزي فما معنى قول الشاعر

وقدر جماع كاليفاع دمية * زُوَازِيَةٌ سوداء غير صلود
قال الشيخ . يقال قدر جماع وجامعة اذا كانت عظيمة واليفاع
التل ويقال قدر دمية ودميم اي مطلية بالطحال او الكبد او الدم
بعد الجبر والدم كعنب التي يسد بها خصاصات البرام من
دَمٍ أَوْ لِبَاءٍ وَالدَّمَ وَالنَّدَامَ مَا يَطْلَى بِهِ وَالْقَدْرُ الزُّوَاذِيَّةُ
وَالزُّوَاذِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَضُمُّ الْجُزُورَ نَقْلَهُ ابْنُ سَيِّدَةَ عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ
وغير صلود اي غير بطيئة النضج يقال صلدت القدر تصلده في صلود
ويقال قدر راسية اذا كانت ثابتة لا يطاق تحويلها لعظمها وفي
التنزيل وقدر راسيات والبرمة القدر من الحجارة جمعها برام
كجبال وبرم كصرد وبرم كدخن وصانعها المبرم وهو من يقطع
حجارتها من الجبال واكبر البرام الجماع ثم التي تليها الميكلة وهي
التي يستخف المحي ان يطبخوا فيها اللحم والعصيدة والصيداء حجير
ابيض تعمل منه البرام

بالقاف المفتوحة وهو الملك مطلقاً او من ملوك حير او هودون
 الملك واصله قبيل كَعِيل سمي به لانه يقول ما شاء فينذ قوله
 والدست اراد به الديوان او صدر البيت ومنصب في اخر البيت
 واحد المناصب وصف بهذا البيت قدراً عظيمة يقول وقدر مثل
 الفيل في الكبر اشرفت وهي على منصبها اشراف الامير في ديوان
 منصبه او في صدر البيت المنسوب له وقد بالغ في عظم هذه القدر
 فجعلها كالفيل وان لم تكن كذلك

قال الانكليزي قد كنت متوقفاً في تانيث هذا الشاعر لضير
 القدر في قوله . اشرفت حتى رايتك توئتها

قال الشيخ القدر مؤثثة . قال ابن سيدة في المخصص القدر
 التي يطبخ فيها اثني وجمعها قدور ولا تكسر على غير ذلك وقد
 قدرتها اقدرها واقدرها (كضرب ونصر) طبختها ومرق مقدر
 مطبوخ في القدر والتقدير ما يطبخ في القدر والافتدال الطبخ فيها
 انتهى . وبائع القدر قدوري وسخام القدر سوادها وقد مر له ذكر
 في البيتين السابقين ويقال للقدر العظيمة قدر أعشار كأنها
 ركبت من عشر قطع لعظمها وكبرها . والقدر الوئبة الواسعة
 وانشد ابو عبيد

وقدر كرال الصمصمان وئبة

انخت لها بعد الهدوء الاثافيا

والاثافي حجارة توضع عليها القدر

ما نال قط الدست من فعله

غير سخام الوجه والسقط

ولّى عن الدست على رغبه

وانقلب الدست على القط

انتهى المراد منه ولكن بقي ها هنا شي وهو ان القدر لا تظهر له مناسبة بشيء مما ذكر من معاني هذه اللفظة في الفارسية فلعله ماخوذ من لفظ دستي بالياء التحتية بعد الياء الفوقية وهو بالفارسية ظرف للماء وغيره من المائعات يحمل باليد كالحجرة فلما اخذه المولدون والعوام تصرفوا فيه بحذف يائه وكسر داله ومعربه دستيج بالفتح ويوجد في الفارسية لفظ دست بالكسر الا ان معناه الشبر فقد علم مما ذكر ان استعمال لفظ دست في معنى القدر عامي مولد ليس بعربي ولا معرب ولهذا عبرت بالقدر

قال الانكليزي ذكرت بالدست والقدر بيتاً رأيته في كلام

شاعر من المصريين لا اذكر اسمه ولا اجيد ضبط بيته وهو

وقدر كمثل الفيل في القدر اشرفت

على منصب كالفيل في دست منصب

قال الشيخ قوله وقدر هو بكسر القاف والمراد به القدر التي

يطبخ فيها والفيل بانفاء معلوم والقدر من قوله في القدر بفتح القاف

بمعنى القدر والمنصب في قوله على منصب بكسر الميم على وزن منبر

حديد تنصب عليه القدر له ثلاث قوائم والفيل في قوله كالفيل

مستغراً من هذه

قال المعري

من آلة الدست ما عند الوزير سوى

تحريك لحيته في حال ايماء

فهو الوزير ولا ازر يشدّ به

مثل العروض له بحر بلا ماء

ثم قال وقيل لا يصح فيه ان يكون مشتركاً لاختلاف معناه
في اللغتين فانه في الفارسية بمعنى اليد وفي العربية له معان اربعة
اللباس والرئاسة والمجيلة ودست القمار وجمعها الحزيري
في قوله نشدتك الله ألت الذي اعاره الدست فقلت لا والذي
اجلسك في هذا الدست ما انا بصاحب ذلك الدست بل انت
الذي تم عليه الدست ويقولون للغالب تم له الدست والمغلوب
تم عليه الدست وانقلب عليه الدست ومن الاخبار دست
الشطرنج قال الشاعر

يقولون ساد الارزلون بارضنا

وصار لهم مال وغنيل سوابق

فقلت لهم شاخ الزمان وانما

تفرزن في اخرى الدسوت البيادق

والدست تستعمله العامة لهدر الخماس قال سليمان بن عبد

الحق في بعض اهل الديوان وكان يلقب بالقط

ما تعلمه في هذه المذكورات ولوازمها وما يتعلق بها من جهة اللغة العربية كما شرحت انا ما اعرفه فيها من جهة الصناعة لتقطع بذلك ما بقي من الطريق ولا نخرج عن المناسبة

فقال الشيخ لك ذلك وسأشرح ما اثبتته حفظي ووصل اليه علي فيما ذكرته فاما لفظة الدست فهي بفتح الدال معربة تطلق في العربية علي جملة معان منها الصحراء وهي في هذا المعنى معربة من دشت بالشين المعجمة لفظ فارسي بالمعنى المذكور وفي غيره معربة من دست بالسين المهملة لفظ فارسي ايضا لهُ نحو خمسة عشر معنى منها اليد والمنفعة والنصرة والوزير والصدر والمقام الرفيع والقوة والغلبة والطرز واللعبة الواحدة والشيء مع افراده التامة فهو من السلاح مثلاً العدة الكاملة ومن الثياب ايضا الكاملة اجزائه التامة افراده من سراويل الي المنديل وهكذا كما عرفته من اهل تلك اللغة وقال في القاموس الدست الدشت ومن الثياب والورق وصدر البيت معربات (اه) وهي عبارة مجاملة فيها غموض ويعلم المراد منها بما قدمناه وقد انكر بعض العلماء المناسبة بين ما استعمل فيه هذا اللفظ في العربية وبين معناه في اللغة الفارسية لكونه لم يعرف من معانيه في تلك اللغة الا اليد لشهرته فيها

قال الخفاجي في شفاء الغليل بعد ان نقل عبارة القاموس واستعمله المتأخرون بمعنى الديوان ومجلس الوزارة والرئاسة

وهذا المصراع تاريخ لسنة ١٢٦٩ هجرية بحساب الجمل
وقد كنت اسمع بهذه السكة وحركتها ولكن لم يسبق لي
السفر بها ولا العلم بحقيقة كيفيتها وإنما كنت اعلم بالسماع ان
السفر بها في عربات تجرها باخرة تتحرك بواسطة النار من غير ان
اعرف كيف تحركها النار وكنت في شوق الى معرفة ذلك حتى
شرحت لي اليوم ما شرحت واوضحت ما اوضحت من ان حركتها
وسيرها بواسطة بخار تحلله حرارة النار من ماء موجود في القدر
اعني الدست الذي ذكرته فيتجه البخار الى آلة يحركها فتتحرك
بحركتها العجلة وتمشي الباخرة اعني الوابور فقد عرفت ذلك ولكن
بقي عليّ ان اعرف حقيقة لفظه ~~ابور~~ ومعناها لاعرف حقيقة اسم
هذه الباخرة كما عرفت مسماها فان هذه الكلمة ليست من العربية
وما اظنها الا من اللغة الافرنجية

فقال الانكليزي نعم لفظه وابور كلمة افرنجية معناها في
اللغة الفرنسية البخار فاستعملها عامة الناس هنا في معنى الباخرة
تسميةً للشيء باسم ما هو من لوازمه والاسم الموضوع لهذا المعنى
في اللغة المذكورة هو (لوكوموتيف)

فهذا ما اعلمه في هذه اللفظة التي سألت عنها وما يتعلق
بها وما هنا شيء اريد ان اسألك عنه وهو انك عبرت بالقدر
بدل لفظ الدست المتعارف فهل هو غير عربي ام غير صحيح ام ماذا
تري فيه وكذا العربية والعربية او العجلة فارجو ان تشرح لي

ايضاً بين سمود وطلحا والزقازيق وبينها وكذلك بين القاهرة
والسويس تسهلاً لطريقها وترغيباً للانكليز في استبدال طريق راس
العثم بطريق مصر فيما ينقل من بلادهم الى الهند من الناس
والبضائع وغيرها لما في ذلك لمصر من الفائدة بمرورهم بها ونقل
تجارهم بواسطتها وقد كان ما يرد لمصر من ذلك ينقل الى
السويس تارة في عربات تجرها الخيل وتارة على الجمال والدواب
وكان ذلك امراً مهماً وشغلاً شاعراً وكان يحصل منه مبلغ عظيم
من الاجرة ويحصل في بعض الاوقات ضائعات كبيرة يترتب
عليها خسارات كثيرة فعلم تلك السكة لمنع الصعوبة والحسارة
وتسهيل السبل لتلك التجارة فلم يزل حتى اتمها واكملها ثم لما ولي
الحكومة الجناب المحديوي (اسماعيل باشا) اخذ في توسيع دائرتها
والاستكثار منها فاستخدمها في الصعيد وفي جهات كثيرة من
الاقاليم البحرية فزادت بركتها وكثرت حركتها حتى وصلت الى
ما هي عليه الان فصار يسافر من القاهرة الى الاسكندرية بالركاب
في كل يوم ثلاثة قطارات واكثر سوى ما هو خاص بنقل البضائع
وما يسافر الى غيرها من الجهات بعد ان كانت في اول امرها
لا يسافر فيها الوابور الا نحو ثلاث مرات في الاسبوع وذلك
قريب اتمامها وقد ارخ صاحبنا الشيخ مصطفى سلامه البخاري اتمامها
بين القاهرة والاسكندرية بقوله

في بر مصر انشئ الوابور

المسامرة العاشرة

شئى

وقد كان المرحوم محمد علي الكبير تصور فوائد هذه السكة
ومنافعها وعزم على انشاءها ولكن بدا له بعد ذلك تركها وصرف
النظر عنها لبعض امور تصورها على حسب الوقت والحال ثم عرض
امرها من بعده على المرحوم عباس باشا فاستحسنها ولم يجد بها
بأساً فصم عليها وشرع فيها بالفعل من اسكندرية الى مصر
فاستوجب مزيد الثناء والشكر من الناس عامة ومنا اهل هذا
القطر خاصة فان هذا الامر النافع كان سبباً لجلب الثروة الى
ارضنا وازدياد البركة في بلادنا ولكن قدر الله انه لا يتم في مدة
حياته والذي تم في مدته ومشي فيه الوابور كان ما بين كفر
الزيات والاسكندرية وبينما كان مهتماً باتمامها عاجلته المنية فات
ولم يقسم له ان يركب فيها مع انه كان معتنياً بامرها ليله ونهاره
وهو الذي اتم قنطرة بنها التي يسير فوقها الوابور وكل من ولي
الحكومة من بعده سعى في اتمام عمله وانجاح قصده وجد في اكماله
فكمل سعيد باشا المرحوم ما ابتداء سلفه وانتهت في مدته السكة
الى مصر القاهرة واخذت الوابورات في السفر بينها وبين
الاسكندرية ولما راه وعلمه من كثرة فوائدها وزيادة منافعها انشاها

ضير فيه ولا ضرر فانه ان كان خلواً من الاشغال في غير المولد
 فهو بطلال في ذاته لم يحدث له المولد بطالة وان كان في غير المولد
 عاكفاً على الشغل والعمل والكد والكدح كان له في المولد فسحة
 وتغير هواءً وصحة ونزهة وراحة يقبل بعدها على اعماله بنشاط
 جديد وشوق مستحدث وهمة مقبلة ونفس غير كليلة فيتعوض بذلك
 ما ضاع في ايام المولد فان النفوس البشرية اذا دام عليها الشغل
 واتصل الكد والعمل بلحمتها السأم والكلال والملل فلا بد من
 ترويحها في بعض الاحيان لتعود لحالة نشاطها وتسترجع ما فقدته
 من انسها وانبساطها ولذا كان لكل امة من الامم وملة من الملل
 اوقات يستريحون فيها من اشغالهم ويتفرغون لرفاهة بهم استرجاعاً
 لنشاطهم وقوتهم ودفعاً لتعبهم وفترتهم فلا داعي لتمني ابطال هذه
 الموالد المستلزم ابطال ما يترتب عليها من الفوائد وقد احدثت
 هذه السكك الحديدية من اسباب السهولة والسرعة والراحة في
 المضي الى المولد والانصراف عنه ما لا مزيد عليه وكان قبلها من
 يريد المولد يعاني في الذهاب اليه والاياب منه صعوبة ومشقة
 ويقضي في الطريق يومين فاكثر اذا سار من البر وجملة ايام اذا
 سافر من البحر ويعد ما يلزم للسفر من الزاد والذخيرة من قبل المولد
 بايام كثيرة حتى حدثت سكة الحديد فسهلت الصعب وقربت
 البعيد

وفي هذا المولد ما لا يخفى على احد من المزايا والمنافع كمنفعة
من يكتري منهم الدواب او المراكب او سكة الحديد للمضي اليه
والانصراف عنه ومنفعة من يكون به من الفراشين والطباخين
وغيرهم من ارباب الحرف والصنائع واصحاب الدور التي تكتري
والاشياء التي تشتري وما يكون فيه من سعة التجارة فانا نرى كثيراً
من التجار في طنطا وغيرها من سائر مدن مصر يعلقون اداء
ديونهم وقضاء بعض شؤونهم على هذا المولد ويتظرون لهذا الموعد
لكثرة ما يكون فيه من البيع والشراء والاخذ والعطاء فينتفع البائع
بشئ ما يبيعه والشاري بما يشتريه منه والكثير من اهل القرى
يتظرونه لشراء بعض ما يلزمهم في اثناء السنة مما لا يوجد في جهاتهم
او لبيع ما يفضل عن حاجتهم من دابة او محصول زراعة او غير
ذلك فهو سوق عظيم عمومي كسائر الاسواق العامة التي توجد في
جميع اقاليم الدنيا من البلاد الاسلامية وغيرها حتى لقد سمعت
انه يكون في بلادكم اسواق عامة تحضرها الناس من سائر الافاق
وجميع الجهات فلولا ما فيها من المنفعة لما حرصوا عليها وهرعوا
اليها فهذه هي المزية في هذا المولد مع غيرها ما ذكرناه وما لم نذكره
فاندفع قول من يقول انه سبب للتعطيل وتبين ان ذلك القول
من جملة الاباطيل ومن ذهب الى هذا المولد لا يقصد التجارة او
نحوها من المقاصد فلا يخلو من ان يتتبع منه غيره فالمنفعة حاصلة
على اي حالة واما فراغه من اشغاله وبطالته في ايام يسيرة فلا

الاعتطيل من يكون بها من الناس، عن اشغالهم ومصالحهم
المعتادة لكني فماتراه انت ايها الاستاذ في ذلك

فقال الشيخ من نظر في الشيء من جهة من جهاته ولم
يستصص جميع احواله وسائر خصوصياته فربما حكم عليه بالذم
والمدح من تلك الجهة ولو نظر الى غيرها تغير حكمه وهكذا
حال من حكيت عنه من تكلم في مولد السيد فانه نظر الى شيء
ما يحصل فيه فحصر فيه نظره ووقف عليه خاطره فتكلم بحسبه
ولو امعن النظر واجال الفكرة واستعمل الروية لقال غير ما
سمعه منه فان مولد السيد وان كان قد يحصل من بعض الناس
الذين يجتمعون فيه بعض امور تخالف الشريعة الشريفة كما لا
ينكر وهذا هو الذي نظر اليه من حكيت عنه ولكن لا يحكم على
الشيء في ذاته بحكم حالة واحدة من حالاته لا سيما اذا كانت له
احوال كثيرة وانت تعلم ان كل وقت من الاوقات وكل بلد
من البلاد وكل جيل من الاجيال لا يخلو من ان يقع فيه بعض
امور تخالف الشرع والطبع ولا يحكم على عموم الناس او البلد
او الوقت بحكم من يحصل منه ذلك وليس ما ذكر من هذه الامور
المخالفة مخصوصاً بمولد السيد فانها تقع في كل موضع كما قلنا
وليس المولد قاصراً عليها فانه يكون فيه ما لا يحصر ولا ينكر
من الخيرات والاذكار والعبادات والحسنات والبركات فلماذا
نغض عن المحسنة وتقتصر انظارنا على السيئة

قتل كلاب شقر وكان المصريون والرومانيون واليونان يتقربون
بذلك الى كوكب الشعري في اليوم الثاني من مسرى وكان لهم
عيد كبير يجعل في مدينة بوتو ولكن سكت عنه المؤرخون ولم
يبينوا وقته وإنما ذكروا انه كان لاوزيريس وايزيس ابوتو
وكان يتقرب في هذا الموسم بالخنزير ولم يكن الأكل من لحمه
مباحاً عند المصريين الا في هذا الموسم فاتهم كانوا يقولون بجاسته
ومن مسه كان يلزمه ان يغتسل في الحال حتى ان المشتغلين
بتربية هذا الحيوان كانوا يمنعون من دخول المعابد وكانوا لا
يتزوجون الا من بعضهم ولا يعلم سبب الترخيص في الأكل من
لحمه في هذا الموسم ولا ذكره هيردوط المؤرخ

وكيفية تقرب القربان منه ان ياخذوا طرف الذنب والطحال
والبطن وفوقها الدهن ويجرقوا الجميع وكان الفقراء يصنعون
صورة من الطين ويجرقونها

فهذا غاية ما وصلنا من اعياد قدماء المصريين ومواسمهم
التي جرتنا الى الكلام عليها ذكر موالد السيد البدوي واحشاد
الناس لها واجتماعهم فيها وما يكون بها من الاحوال والاعادات
التي في جملتها ما هو اشبه شيء بعبادات قدماء المصريين فيما
ذكرناه من موالدهم واعيادهم وقد رأيت بعض المشايخ يتكلم
عليها ويذمها لما يحصل فيها من المخالفة للشرع ويتمنى ابطالها
لذلك ورأيت بعض الناس يقول لو لم يكن فيها من المضرّة

بين يديه في الميدان وذري رماده في البحر حتى لا يأخذه النصارى
فبطل عيد الشهيد من وقتئذ وانقطعت تلك العادة التي ذكرني
بها ما قد حكيتها من رسوم القدماء فان الحديث ذو شجون
والكلام يجر بعضه بعضاً فارجوك ان تتم لي ما تعلم من هذه
العادات والاعیاد فاني ما سمعت بها ولا ظننت انها كانت معتادة
في تلك الايام العتيقة

قال الانكليزي كان لهم في هذا الشهر اعني شهر بشنس عيد
حمل ايزيس بهربوكرات وكان لهم في شهر بوٲنه عيد يتقربون فيه
بنظير مرسوم عليه صورة حمار مسلسل يشيرون بذلك الى تغلب
اوزريس على تيفون والعادة ان ابتداء النيل في الزيادة يكون في
هذا الشهر فكانوا يزعمون ان زيادة ماء النيل في هذا الشهر انما
هي ما سكبته ايزيس من الدموع في بكائها على اوزريس زوجها
وهذا العيد هو الذي ذكر هيرودوط المؤرخ انه مولد الشمس الذي
كان يعمل في مدينة عين شمس فانه في هذا الاوان يحصل
الانقلاب الصيفي وهو عبارة عن ابتداء الشمس في النزول بعد
انتهائها في الصعود وقد حافظ القبط على عادة الاحتفال لليلة
النقطة التي تكون في الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر

وكان لهم موسم في شهر مسرى وهو مولد هرربوكرات وكان
يعتبر عندهم للسكوت وكانت اشارته حلقة صغيرة توضع على الفم
ولعل هذا العيد هو عيد وفاء النيل ومن عاداتهم في هذا الشهر

القبط يعرف بالتاج بن سعيد الدولة قد احوى على عقله
 واستولى على جميع اموره فمشت اليه القبط في ذلك فتكلم مع
 مخدومه بيبرس وقال له متى لم يعمل العيد لم يطلع النيل ابداً
 ويخرب اقليم مصر ونحو ذلك من التمويه وتسيق المكر فثبت
 بيبرس واصر على رأيه واستمر في منعه وقال للكاتب المذكور
 ان كان النيل لا يطلع الا بهذا الاصبع فلا يطلع وان كان الله
 سبحانه هو المتصرف فيه يطلع فبطل العيد من تلك السنة ولم
 يزل منقطعاً مدة ست وثلاثين سنة فلما كانت سنة ٧٣٨ وعمر
 الملك الناصر محمد بن قلاوون الجسر في بحر النيل ليرمي قوة
 التيار عن بر القاهرة الى ناحية الجيزة فطلب منه الامير بلبغا
 اليحياوي والامير الطنبغا المارديني ان يخرجوا الى الصيد ويغيبا
 مدة فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامه بهما وتهتكه في حبهما
 واراد صرفهما عن السفر فقال لهما نحن نعيد عمل عيد الشهيد
 فيكون تفرجكما عليه انزه من خروجكما الى الصيد وكان قد
 قرب اوان العيد المذكور فاعاده في وقته واجتمع له الناس من
 كل جهة وتجاهروا بانواع المنكرات توسعاً خرج عن الحد
 وعم الناس منهم ما لا يمكن وصفه واستمر عمله بعد ذلك الى سنة
 ٧٥٥ فمنع وقرر ابطاله وخرج الحاجب والامير علاء الدين علي
 بن الكوراني والي القاهرة الى ناحية شبرى فهدمت كنيستها
 واخذ منها الاصبع في صندوق واحضر الى الملك الصالح واحرق

فقال الشيخ كأن ما كان معتاداً في هذه الاعياد من الفحش
والتمتكت سرى الى الاعصار الاخيرة فجرى فيها نظيره من المنكرات
والموبقات فقد كان يحصل في القرون المتأخرة في الشهر الذي
يتلو هذا موسم كبير يكون فيه شيء كثير من ذلك وهو موسم عيد
الشهيد وكان يعمل بمصر في ثامن بشنس القبطي

وكانوا يزعمون ان النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى
يلتقي النصارى فيه تابوتا من خشب فيه اصبع من اصابع اسلافهم
الموتى ويكون ذلك اليوم عيداً ترجل اليه النصارى من جميع
القري ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة اهل
القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط
النيل وفي الجزائر ولا يبقى مغرب ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا
رب ملعوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فانك
ولا فاسق الا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم كثير لا يحصمهم الا
خالقهم وتصرف اموال لا تنحصر ويتجاهر هناك بما لا يجنم من
المعاصي والفسوق وشورفتن وتقتل اناس ويباع من الخمر خاصة
في ذلك اليوم ما تزيد قيمته على مائة الف درهم وكان اجتماع
الناس لعيد الشهيد دائماً بناحية شبرى من ضواحي القاهرة وكان اعتماد
فلاحى شبرى دائماً في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر في
عيد الشهيد ولم يزل الحال كذلك الى سنة ٧٠٢ هـ فبئس الامير
بيبرس الجاشنكير وشدد في منعه وكان عنده رجل كاتب من

المولد المشهور في شهر برمودة المذكور وإن لفظ دميانه أو جميانه
 اصله لفظ ديان السابق ذكره وهذا المولد الباقي الى الان هو مولد
 نيت القديم وهو عيد حصاد الزروع وكان يتبدأ به في خامس يوم
 من برموده ويجمع له خلق كثير من النساء والرجال كما يكون
 الان في مولد جميانه

وكان قداماء المضربين يأتون هذا المولد من سائر اقاليم
 مصر في مراكب يكثرونها لذلك ويكون النساء مع الرجال في
 المراكب ومعهم الطبول والدفوف والمزامير وغير ذلك ويكثرون
 في طريقتهم الغنا والرقص والفحش وكلما مروا ببلدة خاطب من في
 المركب من النساء كل من رأينه في البر منهن بالفاظ قبيحة وكلام
 فظيع ويضحك الجميع من ذلك وكان من في البر منهن بعد
 ان يرقصن ويغنين ويتكلمن بما يخاطر بهن من المقامح يرفعن
 ذبولهن ويظهرن من اجسامهن ما لا يجوز الحياء ذكره وينصرفن
 وكذلك كان فعلهن عند زيارتهن للشور ايس وكان الرجال
 لا يستقبحون منهن هذه الامور المغايرة للادب والحياء وكان
 يستهلك في هذا الموسم من النبيذ قدر ما يستهلك في باقي ايام
 السنة كلها وكان يجمع فيه قريب من سبعائة الف من الناس
 على ما حكاه هيردوط المؤرخ وكانوا جميعاً يفعلون ما ارادوا من
 اللذات والشهوات ولا حرج عليهم فيما كانوا يأتونه وقتئذ مها
 فسقوا او فجروا او خرجوا عن جميع حدود الادب

قال الانكليزي نعم وكان من مواسم قدماء المصريين عيد
مشاهدة ايزيس لاوزيريس وكان في شهر امشير فان هذا الشهر
وقت ظهور الزراعة الخريفية فوق وجه الارض
وكان لهم في شهر برمودة عدة اعياد احدها عيد تطهير ايزيس
قبل البذر

الثاني عيد الخصب وكان وقته في سادس عشر هذا الشهر
وفي هذا اليوم كان يجعل في هيكل اوزيريس مذكير مصنوعة من
الخشب على صورة اعضاء التناسل للانسان وكانت احياناً تصنع
من غير الخشب

وفي الموكب الذي يعمل في هذا الموسم كانت النساء تحمل
مثل ذلك وتدور به في الازقة

وفي الغد من اليوم المذكور عيد دخول اوزيريس في القمر
يعنون بذلك اجتماع الشمس والقمر عند الاعتدال وكان المصريون
يسمون القمر امر الدنيا

الثالث في ثامن عشر الشهر المذكور وهو موسم ولادة

هوروس

الرابع موسم قد يستهم نيت في مدينة بوباست ومحلها الان
تل بسطه واصل هذا الاسم بوباست وهو احد اسماء نيت المذكورة
ولها اسماء والقباب كثيرة منها هذا ومنها ايزيس وديان ايضاً والظاهر
انها هي دميانه او جميانه التي يعمل لها الى الان في جهة البرية

وقنع حيناً

قال المسيحي في تاريخه من حوادث سنة ٢٦٧ منع النصارى من اظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس من الاجتماع ونزول الماء واظهار الملاحى ونودي ان من عمل ذلك نفي من المحضرة

وقال في سنة ٢٨٨ كان الغطاس فضريت الخيام والمضارب والاسرة في عدة مواضع بشاطيء النيل ونصبت اسرة للرئيس فهد بن ابرهيم النصراني كاتب الاستاذ برجوان واوقدت له الشموع والمشاعل وحضر المغنون والملهون وجلس مع اهله يشرب الى ان كان وقت الغطاس فغطس وانصرف

وقال في سنة ٤٠١ وفي ثامن عشر جمادى الاولى وهو عاشر طوبه منع النصارى من الغطاس فلم يغطس احد منهم في البحر ا وقال في حوادث سنة ٤١٥ وفي ليلة الاربعاء رابع ذي القعدة كان غطاس النصارى فجرى الرسم من الناس في شراء الفواكه والضان وغيره ونزل امير المؤمنين الظاهر لقصر جده العزيز بالله في مصر لنظر الغطاس ومعه الحرم ونودي ان لا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم في النيل وامر بان توقد النار والمشاعل في الليل وكان وقيداً كثيراً وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والبيران فقسسوا هناك طويلاً الى ان غطسوا فيين كثير من هذه الرسوم . ورسوم القديما في اعيادهم ومواسمهم مناسبة ظاهرة

وكأنهم كانوا يشيرون بذلك الى رجوع الشمس وكان يتخذ كل واحد منهم صورة هلال يصنعه من الطين معجوناً بماء النيل مخلوطاً ببعض الاشياء الزكية

فقال الشيخ قد ذكرت بما ذكر ما حكاه مؤرخوا الاسلام من عوائد القبط في عيد الغطاس وما كان يقع فيه من الوقدة وغيرها وكان يعمل بمصر في حادي عشر هذا الشهر قال المسعودي وليلة الغطاس بمصر شان عظيم عند اهلها لا ينامر الناس فيها وهي ليلة الحادي عشر من طوبه قال ولقد حضرت سنة ٢٢٠ ليلة الغطاس بمصر والاخشيدي محمد بن طنج امير مصر في داره المعروفة بالمخنارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطوف بها وقد امر فاسرج في جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما اسرج اهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر بشاطيء النيل الوف من المسلمين ومن النصارى منهم في الزواريق ومنهم في الدور الدانية من النيل ومنهم على سائر الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم اظهاره من الماكل والمشارب والملابس والآت الذهب والفضة والجوهر والملاهي والعزف والقصف وهي احسن ليلة تكون بمصر واشملها سروراً ولا تغلق فيها الذروب ويغطس اكثرهم في النيل ويعتقدون ان ذلك امان من المرض (انتهى)

وكانت هذه العادة في زمن الملوك السالفة يرخص فيها حيناً

قال الانكليزي كان لهم اعياد ومواسم كثيرة منها موسم كان يعمل في السابع من شهر طوبه وهو مولد رجوع اريس من بلاد فلسطين وكانت القرابين فيه من فطير يرسم فوقه صورة فرس الحجر مسلسلًا في القيود وكان يرخص لاهل مدينة عين شمس في اكل لحم التمساح في هذا اليوم خاصة

وبعد هذا الموسم بايام كان يعمل موسم لتعويض مذاكير اوزريس بثلها من الخشب والظاهر انهم كانوا يشيرون بذلك الى غرس الاشجار فانه يكون بعد هبوط النيل

وفي تاسع عشر هذا الشهر كان يتخذ في مدينة صا الحجر عيد كبير مشهور بالوقدة التي كانت تعمل فيه وكان المصريون يشيرون بذلك الى زوال الظلمة التي كانت عامة للارض بموت اوزريس وكان هذا العيد معتادا في بلاد الصين والعجم ايضا كما كان عند المصريين

وكان لهم في هذا الشهر موسم اخر لتجدد تجسد اوزريس فكان التمس في الليل يذهبون الى مصب النيل في البحر في موكب عظيم وخلق كثير حاملين هيكل اوزريس مزينا بجميع ما يمكن لهم من انواع الزينة والحلى وفيه قدح صغير من الذهب يملأونه من النيل في وقت معين وعند ذلك يقول التمس وجميع المحاضرين بصوت عال ها هو جسد اوزريس قد عثرنا به

وفي اليوم الاول من شهر كيهك كان يعمل موسم عظيم في
مدينة اسنا المقدسيم بها

ومن رسومهم في هذا الموسم ان يظهروا جميع اواني المعبد
وَحَلِيَّهٍ وَيَتَقَرَّبُوا بِالْمُخْبِزِ وَالنَّبِيذِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَشْرُوبَاتِ وَبِالْأَوْزِ
وَفَحْمِ الْقُرُوبِ وَبَشَائِرِ الْمَزْرُوعَاتِ جَمِيعَهَا عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا

فقال الشيخ هذا الشهر كان فيه للقبط عيد عظيم يسمونه
عيد الميلاد ويقولون انه اليوم الذي ولد فيه المسيح عليه السلام
وكان يعمل بمصر في التاسع والعشرين من كيهك فيجيون ليلته
وستهم فيه كثرة الوقود بالكنايس وتزينها وكان يفرق فيه ايام
الدولة الفاطمية ارباب الرسوم من الامراء والكتاب وغيرهم
الجامات من الحلاوة القاهرية وكذا الجلاب والزلايه والسمك
وكان يباع في هذا الموسم من الشموع المزهرة بالاصباغ اللبحة والتماثيل
البديعة باموال لا تنحصر فلا يبقى احد من الناس اعلام وادناهم
حتى يشتري من ذلك لاولاده واهله وكانوا يسمونها الفوانيس
واحدها فانوس ويعلقون منها في الاسواق بالحوانيت شيئاً يخرج
عن الحد في الكثرة والملاحة ويتنافس الناس في المغالاة في
اثانها حتى ربما بلغ مصروف الواحدة منها الخمسمائة والالف
درهم ثم بطل ذلك في جملة ما بطل من عوائد الترف كما بطلت
رسوم قدماء المصريين فهل تعلم من اعيادهم القديمة غير ما

وكان الحزن في هذا الموسم عمومياً عند النساء والرجال الحزن
 ايزيس على زوجها اوزريس وكانوا يكثرون فيه الصلاة والصيام
 والقربان فيه من فحول البقر ومن عاداتهم ان لا يؤخذ من القربان
 بعد ذبحه الاً الجلد والامعاء والفخذان والكثفان والرقبة ولحم الكفل
 واما ما عدا ذلك من الجثة فيملا من الدقيق والعسل مع الزيت
 والبن والافاويه والعقاقير الطبية الرائحة وتحرق بالنار ويزيدونها
 اشتعالاً بصب كثير من الزيت عليها

وفي ذلك الوقت تكثر النساء من الصياح والنواج والبكاء
 والعيول ويلطن وجوههن وصدورهن ويقطعن شعورهن وبعد
 ذلك ياكل الناس ما اخذوا من لحوم القرايين كما مر ذكره
 ويتفرقون

وكان يحضر هذا الموسم بعض من بمصر من اليونان ويعملون
 اعمالاً فظيعة وعادة شنيعة وهي ان يجرح الرجال بعضهم بعضاً
 جروحاً كبيرة وتشق النساء افخاذهن بحجارة حادة حتى يخرج الدم
 اظهاراً لشدة الحزن والجزع ثم ابطل المصريون هذه العادة قبيل
 خروج العبرانيين فان موسى عليه السلام كان قد منع ذلك
 وحرمه على قومه والظاهر ان هذه العادة قديمة فانها وجدت عند
 اهل امريكا والهند ايضاً

وفي الثالث والعشرين من الشهر المذكور كان موسم دفن
 اوزريس يشيرون بذلك الى انجباس النيل في مجراه ومبدأ زراعة

هوروس بن ايزيس اراد الدخول على امه ليزني بها فمنعه حراسها
 عن مرافقه فجمع احبائه واصحابه حتى يغلبهم ويصل الى غرضه
 وسر ذلك هو ان حرارة الشمس المعبر عنها بهوروس تريد ان
 تدخل الارض المزروعة وهي المعبر عنها بايزيس لتخصبها وفي
 سابع عشر شهر هاتور كان يعمل عيد وقوع اوزريس في قبضة
 تيفون عدوه والقائه في النهر ولذا كان هذا اليوم عندهم معدوداً
 من ايام التحس وفيه يكون ماء النيل قد انخفض وانحسر عن
 ارض الزراعة وانحصر في مجراه بين حافته و كانت مدة هذا
 الموسم اربعة ايام كان فيها المصريون يدورون بثور قرونه
 مذهبة وعلى ظهره قطعة قماش من القطن او الكتان مصبوغة
 باللون الاسود

فكانوا يشيرون بالثور الى اوزريس وبقطعة القماش المذكورة
 الى ارض مصر لان لونها بعد انحسار النيل عنها يكون اسود
 وكان المصريون في هذا الموسم يظهرون الحزن والكدر
 اولاً لتقص النيل وثانياً لغلبة الريح الجنوبية وهي المكثي عنها
 تيفون عندهم على الريح الشمالية في ذلك الوقت وثالثاً لتغير طول
 النهار بطول الليل ورابعاً لتجرد الارض من الخضرة
 وكان الموسم المذكور يعمل في المدن المعروفة الان باسم بوصير
 فانها كان فيها معابد اوزريس ومن اسمه اخذ اسم هذه المدن
 ببعض تحريف وتغيير.

في العمر وتقص حرارتها وضعف قوتها ولذلك جعلوها كأنها
 احتاجت الى عصا تنكأ عليها وكان يعمل في هذا الموسم موكب
 تحمل فيه صورة عجلة صغيرة يدورون بها حول المعبد سبع
 مرات وكانوا يعنون بذلك ان ايزيس تبحث على جثة اوزريس
 زوجها واعظم مواسم هذا الشهر موسم (امون را) وكان يعمل
 في مدينة بابرميس في ثامن عشر الشهر وكان من عادتهم فيه
 ان التمس في الليلة المتقدمة عليه تاخذ هيكل قديسهم وتضعه
 في برزخ مذهب في موضع مقدس لم قريب من المعبد وفي الغد
 يقربون القرابين وبعد الفراغ منها قرب زوال الشمس يقيم بعض
 التمس عند الهيكل وباقيهم يقفون عند باب المعبد وبأيديهم العصي
 والمساق لتصد منع ادخال الهيكل المذكور في المعبد فاذا جاء
 الوقت المحدود حمل التمس الهيكل واحضروه الى الباب ومعهم
 خلق كثير بالعصي والمساق لادخاله المعبد برغم الواقفين به
 لمنعهم فاذا جاؤ وجدوا باب المعبد مقفلاً فيقع بينهم وبين من به
 من التمس وغيرهم مضاربة وقتال كثير ويخرج فيه كثير من
 الناس ويسيل دمهم ولا يتقطع القتال من بينهم الا بدخول
 الهيكل في المعبد واستقراره به في مكانه وزعمت التمس انه لم
 يكن يحصل لاحد ضرر من تلك الجروح كما نقله هيردوط
 المؤرخ

.. وكان المصريون يشيرون بهذه الاحوال فيما يزعمونه الى ان

ديار مصر وبنوا القاهرة واستوطنوها وكانت خلافة العزيز بالله امر
 في يوم عيد الصليب سنة ٢٨١ فمخ الناس من عادة الخروج الى
 بني وائل ثم بطلت تلك العادة وكان للخلفاء الفاطميين مزيد عناية
 باول ليالي السنة ليلة اول المحرم في كل عام وكان لهم باول يوم
 من السنة ايضاً عناية كبيرة فيه يركب الخليفة بزيه المنعم وهيئته
 العظيمة وتفرق فيه الدنانير ويفرق من السماط الذي يعمل بالقصر
 لاعيان ارباب الخدم من ارباب السيوف والاقلام بتقرير مرتب
 خرفان شواء وزبادى طعام وجامات حلواء وخبز وقطع منفوخة
 من سكر وارض بلبن وسكر فيتناول الناس من ذلك ما يجبل وصفه
 وينبسطون بما يصل اليهم فمن تأمل في هذه الاعياد وجدها اشبه
 شيء باعياد قدماء المصريين

قال الانكليزي نعم وربما كان بعضها مأخوذاً منها ومن
 جملة اعياد قدماء المصريين عيد كان يعمل في سادس يوم
 من شهر بابه وهو عيد حمل ايزيس بولدها هار بوكرات يشيرون
 بذلك الى وضع بذور الزرع في الارض بعد نزول ماء النيل
 عنها

وفي هذا الموسم كان يوضع في عنق صورة ايزيس طلسم
 يسمونه الصوت الصحيح على قول وكلمة الحق على قول اخر
 وبعد هذا الموسم كان يعمل في الثامن والعشرين من شهر
 بابه المذكور موسم عصا الشمس وكانوا يعنون بذلك تقدم الشمس

وصاروا يعملون شيئاً من ذلك في الخيلج والبرك ونحوها من مواضع التنزه بعد ما كانت اسواق القاهرة تتعطل في يوم النوروز من البيع والشراء ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب ما يخرجون به عن حد الحياء والحشمة الى الغاية من الفجور والعهور وقلما انتفى يوم نوروز الا وقتل فيه قتيل او اكثر ثم بطل ذلك وقال بعضهم يذكر ما كان يحصل في النوروز من اشعال النار ورش الماء

كيف انتهجك بالنوروز يا ملي

وكل ما فيه يحكيه واحكيه

فتارة كليب النار في كبدي

وتارة كتوالي دمعي فيه

وكان للقبط في هذا الشهر عيد اخر وهو عيد الصليب يعمل في سابع عشره وسبب حدوثه عندهم ان هيلانة ام قسطنطين كانت قد سارت الى بيت المقدس في طلب اثار المسيح عليه السلام وبناء الكنايس واقامة شعائر النصرانية فيقال ان الاسقف مقاريوس دها على خشبة زعم ان المسيح صلب عليها وكان ذلك في اليوم المذكور فاتخذوه عيداً وسموه عيد الصليب وكان لهذا العيد بمصر موسم عظيم يخرج الناس فيه الى بني وائل بظاهر فسطاط مصر ويتظاهرون في ذلك اليوم بالمنكرات من انواع الحمرات ويمرلم فيه ما يتجاوز الحد فلما قدمت الدولة الفاطمية الى

وموافقت ضلالتهم فكانت المنكرات ظاهرة به والفواحش صريحة فيه ويركب فيه امير موسوم بامير النوروز ومعه جمع كثير ويتسلط على الناس في طلب رسم رتبه ويرسم على دور الاكابر بالجمل الكبار ويكتب مناشير ويندب مرسمين كل ذلك يخرج مخرج التفاؤل ويقنع باليسور من الهبات ويجمع المغنون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة (احد قصور الخليفة) بحيث يشاهد الخليفة وبايديهم الملاهي وترتفع الاصوات ويشرب الخمر والمزهر شراباً ظاهراً بينهم وفي الطرقات ويتراش الناس بالماء . وبالماء والخمر . وبالماء مزوجاً بالاقدار . وان غلط مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستغف بحرمته فاما ان يفتدي نفسه واما ان يفتضح ولم يجزِ الحال على هذا ولكن قد رش الماء في المحارات وقد احيا المنكرات في الدور ارباب الخسارات وقال في متجددات سنة ٥٩٢ وجرى الامر في النوروز على العادة من رش الماء واستجد فيه هذا العام التراح بالبيض والتصافع بالانطاع وانقطع الناس عن التصرف ومن ظفر به في الطريق رش بمياه نجسة وخرق به (هـ) كلامه وما زال يوم النوروز يعمل فيه ما ذكر من التراش بالماء والتصافع بالجلود وغيرها الى ان كانت اعوام بضع وثمانين وسبعائة وامر الدولة بديار مصر وتديورها الى الامير الكبير برقوق قبل ان يجلس على سرير الملك ويسمى بالسلطان فمنع من لعب النوروز وهدد من لعبه بالعقوبة فانكف الناس عن اللعب في القاهرة

وإول اعيادهم كان عند شروق كوكب الشعرى في اشعة الشمس ووقته في أول شهر توت وهو أول شهرهم وفيه كانت تذب سنانة قربانا الى (ايزيس) المقدسة عندهم ويخرج القسيس من معبد مدينة ابو هياكل مقدسهم محمولة في هودج على اعتناق جماعة من القسس يختلف عددهم من اثني عشر الى ستة عشر بالنسبة لتقل الهيكل وهكذا كان يحصل في جميع المواسم

وفي هذا الشهر يعينه بعد ان يصير القمر برداً ببعض ايام كان يعمل موسم طوط ويقال انه ادريس عليه السلام وان هذا الشهر شهره واسمه ماخوذ من اسمه

وكان من العادة في هذا الموسم اكل التين وشرب العسل ويقال بعد اكله ما احلى الحق

قال الشيخ الشيه بالشيه يذكر قد كان لقبط مصر بعد قدماء المصريين في هذا الشهر عيد عظيم وموسم كبير من مواسم هورم ومواقيت انهم وهو عيد النوروز كانوا يشعلون فيه النيران ويرش بعضهم بعضاً بالماء واستمر ذلك جارياً في مدد الملوك الاسلاميين ايضاً وكان يمنع احياناً ويرخص فيه احياناً وكان للخلفاء الفاطميين اعناء به ورسوم جارية فيه . قال القاضي الفاضل في متجددات سنة ٥٨٤ يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطي وهو مستهل توت وتوت اول سنتهم وقد كان بمصر في الايام الماضية والدولة الخالية (يعني دولة الفاطميين) من مواسم بطالاتهم

البلاد البحرية والقبليّة وكانت تلك المواسم دينية وسياسية وكان
يخصر في كل منها الملك أو من ينوب عنه من عائلته وكذا الملكة
وخلق كثير من الناس في أشبه بالأسواق التي كانت للرومانيين
أخذوها عن اليونان وأخذها اليونان عن المصريين فالى المصريين
ينسب أحداثها كما ينسب اليهم أحداث كثير من الأمور النافعة
للأمم كما أفاده المؤرخ المذكور ومن المدن التي كان يحتفل فيها
لهذه المواسم مدينة يوباست التي أثرها الآن تل بسطة قرب مدينة
الزقازيق من إقليم الشرقية ومدينة سايس وهي الآن صا الحجر بإقليم
الغربية ومدينة هيليوبوليس التي تسمى الآن عين شمس (وهي
المطرية) ومدينة بوتو وأثرها الآن تلال موجودة في ساحل البحر
البحر ما يلي بحيرة البرلس ومدينة كان اسمها بابر ميس والآن لا يعلم
محلها ولا أين كانت من الجهات البحرية أو القبليّة

وكان يجمع في كل من هذه المواسم خلق كثير ربما كان
أكثر مما يجمع الآن في مولد السيد وكان لهم غير هذه مواسم
أخرى كبيرة تعمل على رأس كل ثلاثين سنة مرة وكان يحصل
لن تقف في زمنه من الفراعنة فخر عظيم وصيت كبير بسببها وكان
يصدر عنهم في هذه المواسم كثير من الفخس والفجور والمنكرات
وجميع هذه المواسم كانت مرتبطة بأوقات الزراعة وحركة
الشمس في منطقة البروج وبها تتعين ثلاثة فصول الزراعة في كل

والمولد الصغير في اول شهر برمودة والمولد الرجبي قبل المولد الصغير بنحو مائة يوم ولا يكون في هذا المولد ما يكون في غيره من البيع والشراء فهو مولد مختصر بالنسبة لغيره كما يعرفه من رأى هذه الموالد ولا اريد ان اطيل عليك بصفتها ووصف ما يكون فيها فلعلك رايتها او بعضها في اثناء اقامتك بهذه البلاد

فقال الانكليزي نعم حضرت مولد السيد غير مرة وشاهدت ما يكون فيه من كثرة البيع والشراء وفرط الزحام واجتماع الناس وتواردهم من الافاق فرايت امرأ عظيماً وموسماً جسيماً فكنت اتذكر به ما كان لقدماء المصريين مثل ذلك من عوائدهم في اعيادهم وموالدهم لاسيما ركة الخليفة التي تكون في اخر المولد فانه يتلك العوائد اشبه منه بالعادات الشرعية والامور الدينية الاسلامية وقد كان لقدماء المصريين مثل هذه الموالد اعياد ومواسم كثيرة متنوعة لم فيها عوائد مختلفة لم يذكرها احد من قدماء المؤرخين الا هيردوط الشهير الذي ورد على مصر في قديم الايام فتكلم في مؤلفاته على بعض احوالها وعادات اهلها وتكلم في ضمن ذلك على بعض هذه المواسم وما كان يعمل فيها واما غيره من المؤرخين السابقين فلم يتكلموا على شيء من ذلك ولهذا لم يصلنا من علم احوالها الا القليل والمواسم التي تكلم عليها المؤرخ المذكور كانت تعمل في مدن متفرقة في جهات مصر من

الفقراء واصحاب الطرق انهم متى وقع لهم الشيء مرة اتخذوه عادة
 وواظبوا عليه فاتخذ الشيخ الشرنبلالي المذكور ذلك عادة عاودها
 بعد ذلك سنة بعد سنة فاستمرت ونشأ عنها المولد الصغير وكان
 يعرف بالمولد الشرنبلالي باسم هذا الشيخ وكذلك كان منشأ المولد
 الرجبي فان بعض المشائخ وهو الشيخ الرجبي بدا له ان يجدد العامة
 الموضوعه على مقام السيد البدوي فاتخذها مقداراً كافياً من
 الشاش المصبوغ باللون الاخضر وحضره مع جماعته ومريديه الى
 طنطا ودخلوا به في ركب وموكب من المشائخ والمريدين والفقراء
 الى مقام السيد فلغوا الشاش الجديد في محل التديم واتخذوا ذلك
 عادة استمرت كذلك فنشأ عنها المولد المعروف بالرجبي باسم
 الشيخ المذكور ويعرف ايضاً بمولد لف العامة تجدد فيه العامة
 المذكورة في كل عام ويوثى بالشاش الذي يتخذها في ركب عظيم
 يوصل به الى المقام فهكذا كان منشأ هذه الموالد فكانت تكرر كل
 سنة في الميعاد الذي ابتدئت فيه وقررت مواعيدها باعتبار الشهور
 القبطية لا العربية لكي لا يتغير ميعاد كل منها عن وقته من
 فصول السنة رعاية لاوقات النيل والري حتى لا يقع المولد في
 وقت قلة الماء بملك الجهة او كثرتة وانغار الارض به للري ومثل
 هذه الاسباب قدمت واخرت مواعيدها في بعض الاوقات
 بتنبهات واوامر من الحكومة رعاية لمتنصيات المصالح والاحوال
 والحجاري عليه الان ان يكون المولد الكبير في اول شهر مشري

كانت وفاة السيد رضي الله عنه في ١٢ ربيع الاول كما مر وهو
 وقت عمل المولد الشريف مولد النبي صلى الله عليه وسلم وسمعت
 من بعض المشايخ في اصل عمل الموالد للسيد ان السيد لما توفي كان
 كثير من تلامذته متفرقين في البلاد لانه كان في حياته اذا جاءه
 المرید بواسطة الشيخ عبد المتعال نظر اليه وامره ان يقيم في بلدة
 من البلاد يعينها له فلما سمعوا بوفاته حضروا باتباعهم ومن معهم
 الى طنطا ليعزوا فيه خليفته الشيخ عبد المتعال وكانت طنطا
 وقتئذ قرية صغيرة فلم تكن تسع هذه الجموع فضربوا خيامهم
 خارجها حيث يعمل المولد الكبير واقاموا في تلك الخيام ثلاثة ايام
 فلما ارادوا الرجيل شيعهم الشيخ عبد المتعال وودعهم فقالوا له هذه
 عادة مستمرة ان شاء الله تعالى نخضرها هنا كل عام في هذا الميعاد
 الى ما شاء الله فلما جاء العام القابل حضروا للميعاد ثم حضروا
 في الذي بعده واستمرت هذه العادة فنشاء من ذلك المولد الكبير
 وكان في الاصل ثلاثة ايام وزاد بعد ذلك الى ان وصل الى ما هو
 عليه الان كما ان منشاء ركب الخليفة الذي يكون في اخر المولد
 هو ركوب الخليفة الشيخ عبد المتعال مع جماعته لتوديع هؤلاء المشايخ
 ثم صار يزداد فيه الى ان وصل الى ما وصل ثم ان احد المشايخ
 المتيمين الى السيد وهو الشيخ الشرنبلالي حضر مرة في غير وقت
 المولد الى طنطا لزيارة السيد مع تلامذته وجماعته فاقام بها بعض
 ليال كان يشغلها هو وجماعته بالاذكار والعبادات ومن عادة

هو مجرد لا يدرك له قرار وما نقل عن السيد البدوي يرويه عن
المحسن البصري قال ست مسائل من جواهر الحكمة اولها من
لم يكن عنده علم لم تكن له قيمة في الدنيا ولا في الآخرة الثانية
من لم يكن عنده حلم لم ينفعه علمه الثالثة من لم يكن عنده سخاء
لم يكن له في ماله نصيب الرابعة من لم يكن عنده شفقة على
عباد الله لم يكن له شفاعة عند الله تعالى الخامسة من لم يكن
عنده صبر ليس له في الامور سلامة السادسة من لم يكن عنده
تقوى ليس له منزلة عند الله تعالى قال في الجواهر السنية ولما
توفي السيد رضي الله عنه عظموا قبره وبنوا عليه وستروه وقام
بامر تلامذته من بعده صاحبه الشيخ عبد المتعال فسموه خليفة
السيد وعمر بعده طويلاً نحو سنة ٥٨ واشتهر اتباعه بالسطوحية
وحدث لهم بعد مدة عمل المولد النبوي عنده وصار يوماً مشهوراً
يقصد من النواحي البعيدة (انتهى)

المعامرة التاسعة

الموالد والاعياد والموااسم

ويؤخذ من تعبيره بالمولد النبوي ان اصل المولد المعتاد عمله
للسيد البدوي مولد للنبي صلى الله عليه وسلم كان يعمل عنده وقد

كثير منهم العلامة الشهير قاضي القضاة شيخ الاسلام تقي الدين
 بن دقيق العيد سمع بشهرته وكثرة اعتقاد الناس فيه فمضى اليه وصعد
 اليه السطح فوجد رجلاً مغطى بثوب كالمغشي عليه فلما رآه قال
 في نفسه سبحان الله ما هذا الاعتقاد من الناس في هذا الرجل
 وما هذه الشهرة وليس فيه ما يوجب ذلك وما هو الا مجنون
 من المجانين فرفع اليه السيد رأسه وكشف وجهه وانشد
 مجانين الا ان سر جنونهم

عزيز على اغتابه بسجد العقل

فلما كلفه عرف الشيخ قدره وعظمه واعذره اليه وقبل يده
 ويحكى ان ابن دقيق العيد قبل ان يجتمع به ارسل الى
 الشيخ عبد العزيز الديريني يقول له امتحن لي هذا الرجل الذي
 اشتغل الناس بامره واسأله فان وجدته من اهل العلم والفضل
 فاطلب لي منه الدعاء وارسل عرفني باحواله فمضى سيدي عبد
 العزيز الى طنطا وكان المتولي بها القاضي علاء الدين وكان
 خليفة الحكم العزيز فمضى اليه الشيخ عبد العزيز واخبره وسأل عن
 محل السيد فوصف له فمضى اليه واستأذن الشيخ عبد المتعال فاذن
 له فصعد الى السيد وسلم عليه فرد عليه السلام وساله ما شاء الله
 من المسائل فاجاب عنها باحسن جواب وقال سلني عما شئت
 فاني اجيبك فعظم في عينه واعذره له وارسل الى قاضي القضاة
 يعلمه وكان الشيخ عبد العزيز بعد ذلك اذا سئل عن السيد يقول

يمشي على طريقنا من بعدي فقال له سيدي عبد المتعال فما
 شروط من يحملها قال شرطه ان لا يكذب ولا يأتي بفاحشة
 وان يكون غاض البصر عن محارم الله طاهر الذليل عفيف
 النفس خائفاً من الله تعالى عاملاً بكتابه ملازماً للذكر دائم الفكر
 وقد ورد في صحيح الاحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
 لبس حلة حمراء وورد ايضاً انه قدم لواء بني سليم يوم فتح مكة
 على الالوية وكان احمر واما خلفاؤه وتلامذته واصحابه الذين
 اجتمعوا به على السطح فسموا السطوحية فكثير جداً اكبرهم خليفته
 الشيخ عبد المتعال وهو صاحب الثوب الاحمر الذي يلبسه الخليفة
 في المولد في كل سنة وهو الذي بنى بمقام سيدي احمد البدوي
 المنارة ورتب السماط وتخلف بعد السيد فشيده اركان البيت
 وقصده الناس للزيارة من الاقطار البعيدة الى ان توفي يوم
 السبت الموافق لعشرين خلت من شهر ذي الحجة سنة ٧٢٣ هجرية
 ودفن قريباً من قبة السيد ومنهم الشيخ علي البريدي وهو من
 اجل تلامذته ويقال انه كان قد ارسل اليه بهدية من طرف
 سلطان وقته فقال قلبه الى الشيخ واحبه ولزم مجلسه وانقطع اليه
 فلما مات دفن تجاهه وكان يقول لما اجتمعت بسيدي احمد
 رأيتني في عيني اعظم حرمة من السلطان ولا ينزل السلطان
 لسيدي احمد يزوره وجدني في خدمته فقال لي هنيئاً لك يا علي
 وتلامذته كثير جداً يطول تعدادهم واجتمع به من العلماء خلق

الوجه عظيم الوجنتين ولونه بين البياض والسمره وكان في وجهه
 ثلاث تقط من اثر الجذري واحدة في خده الايمن واثنان في
 الأيسر اتنى الانف على انفه شامتان من كل ناحية شامة اصغر
 من العدسة وكان بين عينيه جرح موسى جرحه به ولد اخيه
 الحسين في الأبطح حين كان بمكة في صغره وكان في حياته معظماً
 معتقداً عند الناس محبوباً فيهم مشهوراً في الافاق تعلقه هيبه
 ووقار وكان الملك الظاهر ابو الفتوحات بيبرس البندقدار يعتقدده
 ويبالغ في تعظيمه وكان السيد قد اخذ طريق الصوفية عن
 الشيخ عبد المجايل بن الشيخ عبد الرحمن النيسابوري وكان هذا الشيخ
 يجمع على اخيه الشريف حسن فلما كبر سيدي احمد جمعه عليه
 فالبسه خرقة التصوف واخذ عليه العهد كما تلقاه عن مشايخه
 واحداً عن واحد الى انس بن مالك الصحابي رضي الله عنه
 الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك ان ياخذ الشيخ على
 مریده العهد والبيعة على الطاعة والاتباع لكتاب الله وسنة
 رسوله والمحبة لله ورسوله ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر
 ويكون له عوناً على العلم مرشداً له في الاعمال والاخلاق وسائر
 الاحوال فيكون الشيخ للمريد كالربي للطفل والوالد الناصح
 الشفيق المولد المطيع وقد اتخذ سيدي احمد الخرقه الحمراء شعاره
 وشعار اتباعه وقال لخليفته سيدي عبد المتعال اعلم اني اخترت
 هذه الراية الحمراء لنفسي في حياتي وبعد ماتي وهي علامة لمن

يريد الحجاز للحج فمر في طريقه بمصر واقام معهم بها مدة ثم سافر بهم
 الى الحجاز فحجوا سنة ٦٠٧ واقاموا بمكة وكان عمر سيدي احمد البدوي
 احدى عشر سنة وعرف من بين اخوانه بالبدوي من كثرة ما كان
 يتلمذ ولبس لثامين لا يفارقها وكان يعرف في صغره باحمد الزاهد
 واخذه تحت كنفه اكبر اخوته حسن بن علي واقراه القرآن العظيم
 فحفظه وجوده وثقته على مذهب الامام الشافعي محمد بن ادريس
 رضي الله عنه واشتهر في مكة بالشجاعة والفروسية ثم انه حدث
 له حال في نفسه فتغيرت احواله ولزم الصمت والعبادة واستمر
 مقيماً بمكة الى ان مات ابوه سنة ٦٢٧ هجرية ثم سار منها مع اخيه
 حسن في شهر ربيع الاول سنة ٦٣٢ راحلاً الى العراق ودخل
 بغداد وجال في البلاد ولقي اكابر الاقطاب والعلماء العارفين
 ثم عاد اخوه المذكور الى مكة ولحق به هو فقدم مكة
 ثانياً ولزم الصيام والقيام بها الى ان رحل منها الى مصر ونزل
 ناحية طنطا في رابع عشر ربيع الاول سنة ٦٤٧ فدخل دار شخص
 من مشايخها يعرف بابن شحيط فصعد الى سطح داره فاقام به
 لا يفارقه لا صيفاً ولا شتاءً مدة طويلة واعواماً كثيرة وكان له
 امامان يصليان به وكان اذا جن الليل يقرأ القرآن الى الصباح
 ولم يزل هناك الى ان توفي رضي الله عنه يوم الثلاثاء ثاني عشر
 ربيع الاول سنة ٦٧٥ وعمره ٧٩ سنة عدد جمل قَوْلنا (المَدَد)
 وكان طويلاً غليظ الساقين عبل الذراعين اكل العينين كبير

المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو يلتقي نسبه معه
 صلى الله عليه وسلم في جده الاقرب عبد المطلب بن هاشم
 نسب كأن عليه من شمس الضحى

نوراً ومن فلق الصباح عموداً

وكان سلفه كما قيل قد خرجوا من مكة حين قدم اليها
 الحجاج بعساكر الشام من طرف عبد الملك بن مروان الاموي
 لقتال عبد الله ابن الزبير فغلب الحجاج علي بن الزبير وصلبه
 وجعل يتسلط على الاشراف فرحل منهم خلق كثير فكان من
 رحل الشريف محمد الجواد ابن حسن العسكري احد اجداد السيد
 البدوي جمع بني عمه ومن يعز عليه من قومه وخرج بهم من
 مكة فساروا وصاروا يتنقلون من بلد الى بلد حتى دخلوا بلاد المغرب
 سنة ٧٣ من الهجرة فاستوطنوا مدينة فاس واحبهم اهلها وتزوجوا
 منها واقاموا بها ما شاء الله تعالى وفيها ولد ابراهيم بن محمد الحمد
 الادنى للسيد وتزوج بابنة اخي السلطان بها وقتئذ فأولدها علياً
 وولد السيد وغيره فلما كبر الشريف علي بن ابراهيم تزوج من
 اكابر الناس واهل الحسب فاطمة بنت محمد بن احمد بن عبد
 الله بن مدين ابن شعيب ام السيد فأولدها ثلاثة اولاد وثلاث
 بنات وكان اخر اولادها سيدي احمد البدوي رضي الله عنه
 ولد في زقاق الحجر بمدينة فاس سنة ٥٩٦ من الهجرة ثم رحل
 به ابو علي بن ابراهيم مع سائر اولاده واهله سنة ٦٠٢ هجرية

وقالوا طندنا بفتح الطاء وسكون النون وكسر الدال وتشديد
 التاء فمن قال طنطا بسكون النون فهو تخفيف طنطا بفتحها وإما
 طندنا فهو كما تصرف القبط فيه

فقال الإنكليزي اني لهذا السيد عند الناس اعتقاداً
 عظيماً ومحبة شديدة وتعظيماً كثيراً وإقبالاً على موالده فهل
 بينه وبين نبيكم نسب معلوم او قرابة متصلة ام لا فان كان على
 ذكر منك شيء من علم ذلك فمن عليّ بيانه

فقال الشيخ نعم اذكر لك ما علق ببالي وبقي في حافظتي
 من ترجمته وبعض خبره مما قرأته في كتب كثيرة ككتاب
 المقرئ وحسن المحاضر للسيوطي والطبقات للشعراني وهذا
 غير الكتب المنخضة بترجمته وحكاية مناقبه ككتاب الجواهر السنية
 لعبد الصمد وكتاب يونس المعروف بأزبك الصوفي وغير
 ذلك وهذه نبذة من ترجمة امرة على سبيل الاجمال

هو ابو الفتيان الملقب الشريف العلوي سيدي السيد احمد
 البدوي ابن علي بن ابراهيم بن محمد بن ابي بكر بن اسماعيل بن
 عمر بن علي بن عثمان بن حسين بن محمد بن موسى بن يحيى بن
 عيسى بن علي الهاذي ابن محمد الجواد بن حسن العسكري بن
 جعفر بن علي الرضا ابن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ابن
 محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين سبط رسول
 الله صلى الله عليه وسلم بن الامام علي بن ابي طالب بن عبد

واستنتاج نتائج علمية جديدة كثرت بها الفنون واتسعت العلوم
وهذا فضلاً عن اخلاطهم ببعضهم والمذاكرة بينهم في امور مهمة
من العلم الى غير ذلك من المزايا العظيمة التي يطول تعدادها
ولا ينتهي نفعها

فلما انتهى الكلام بها الى هذا الموضوع كانا قد وصلنا الى
طنطا وعرف الشيخ وابنه برهان الدين فقراً ما تيسر من القرآن
الكريم واهديا ثوابه الى صاحب المقام بها سيدي احمد البدوي
رضي الله تعالى عنه

المسامرة الثامنة
طنطا

فقال الانكليزي هذا البلد يسمى عند بعض الناس طنطا
وبعضهم يسميه طنطتا ولم اعلم اصل ذلك
فقال الشيخ سمعت ممن لم يزيد الشهرة في عصرنا بالمعرفة والخبرة
باللسان المصري القديم وإتقانه قراءة وكتابة وفهما ان اصل اسمها
في اللسان المذكور طنطا بطاء بين مفتوحين بينهما نون مفتوحة
ايضاً ومعناه في ذلك اللسان بلدة الحمد قال ثم حرفه التنبط

بوجودها وعمرت بلاد وقرى كثيرة بما جلب اليها من هذه
 الحيوانات واتسعت دائرة زراعتها وكثرت محصولاتها بكثرة السماد
 وزاد عدد الناس فيها بزيادة مقدار المحصولات فتمت الثروة
 في كثير من البقاع كانت خراباً منذ قرون عديدة وقد بلغ عدد
 الحيوانات المنقولة في ارض فرانسة بسكة الحديد في سنة واحدة
 ٤٠٢٤٥٠٢٨٧ من جميع الاصناف

وهناك بعض جهات معيشة اهلها من الصيد والقتل
 وكانوا قبل سكك الحديد لا يمكن لهم نقل شيء مما يحصل لهم
 الى بلاد يتفنون فيها ببيعه فكانوا لذلك في فقر مدقع وبؤس
 شديد فلما ظهرت سكك الحديد امكن لهم نقل ذلك الى المدن
 العامرة والمحاضر البعيدة وبيعه بثمن مناسب انتفعوا به فخالصوا
 من شدة الفاقة وحسنت احوالهم

وكان في جهات كثيرة من الأرض بقاع غير صالحة للزرع
 فيها السبخ والرمال ومناقع الماء فكانت غير مسكونة فلما مرت
 بها سكك الحديد استحوذ كثير من الناس على كثير منها فحراثوها
 وفعلوا ما يلزم لاصلاحها من التسميد والردم ونحو ذلك حتى
 صلحت فزرعوها وانتفعوا بها فخرجت من الخراب الى العماره

وقد تيسر بواسطة هذه السكك للعلماء واصحاب الحرف
 والصنائع التنقل الى البلاد البعيدة والاطلاع على امور كثيرة
 امكنهم بها تطبيق القواعد العلمية على العمل ورسومها في اذهانهم

افساده للهواء بتراكمه على بعضه

فقال الانكليزي لكل شيء وقت ولكل وقت حكم ولا بد ان يأتي زمان يحصل فيه ذلك فان الامور لا تقع دفعة بل تجري على التدرج وكم لسكة الحديد من فائدة غير ذلك ومهما نسينا من شيء فلاننسى فائدتها في مساواة اسعار الاشياء في الجهات المستعملة بينها وقد كانت جهات كثيرة لا يتأتى لها ارسال محصولاتها الى بعض البلاد البعيدة لبيعها بأثمان مناسبة فتيسر لها الآن ذلك بواسطة سكك الحديد واستفادت مما حصل لغيرها من اليسار والثروة وانقطع بورود محصولات الجهات الى بعضها ما كان يكثر حصوله في الازمان السالفة من القحط وما كان يتبعه من المرض

وقد كان محصول ارض فرنسا من سنة ١٢٢٦ الى سنة ١٢٥٦ هجرية ٨٠٠٠٠٠٠٠٠ هيكنتولتر من الحبوب ثم صار يزيد بوجود سكك الحديد حتى بلغ في سنة ١٢٥٨ هجرية الى ٩٧٠٠٠٠٠٠٠ هيكنتولتر ثم زاد حتى بلغ ١١٦٠٠٠٠٠٠٠ اظهر من هذا انه حصل منها فائدة عظيمة لمحصول الحبوب وزراعتها وزرع بعض اشياء كانت من قبل لا تزرع او كانت محصولاتها قليلة جداً

وقبل سكك الحديد كان سفر الحيوانات التي تحتاج للاكل وللزراعة صعباً شاقاً محتاجاً الى مصروف كثير فسهل ذلك

فصارت نافعة بعد ان كانت مضره وصححت بها بقاع كثيرة من
الارض كانت قفرة مهجورة غير منزرعة ولا مسكونة فعمرت وتزينت
بالنبات والاشجار بعد ان كانت لا يرى فيها الا ارض يابسة
كالحمة خالية مما يروق العين ويشرح الصدر
وقد كان ما نقل من هذه المادة بسكة الحديد الى الجهة
الشرقية من ارض فرانسة في سنة واحدة فقط وهي سنة ١٢٨١
١٥٥٠٠٠ طونولاته ونقل من طين الزراعة المعروف بالطين
الحلو ٢٠٠٠٠٠ طونولاته

فقال الشيخ لو تنبه لهذا الامر اهل بلادى لحصل منه فوائد
جليلة وثمرات عظيمة لاهل القرى المصرية فان احياج ارضهم الى
السماد امر غير خفي ولا منكر حتى انهم لقلته وكثرة حاجتهم اليه
تراهم يهدمون بيوتهم القديمة ويسمدون بها ارضهم ويصرفون
مصاريف كثيرة لجلب السماد من محلات بعيدة بمشقات عظيمة
ومن المعلوم ان مدينة القاهرة المحروسة بسبب كثرة سكانها وما بها
من الدواب واصناف الحيوان تحصل فيها كل سنة من هذه
المادة مقدار كثير وكذلك المدن الكبيرة مثل اسكندرية وغيرها
من المدن القريبة لسكك الحديد يحصل فيها من ذلك مقادير
عظيمة ليس يتنفع بها في شيء فضلا عن ضررها فلواتخذت طرق
مستحسنة في نقله باجرة قليلة لانتفعت السكة باجرته واهل القرى
باستعماله في مزارعهم وسلم اهل المدن من ضرره الحاصل من

(٦٠٠٠٠٠٠٠٠) جنيه فقد وفرت سكة الحديد على اصحاب
 المقولات (٤٠٠٠٠٠٠٠٠) جنيه فضلاً عن ان الذي ينقل بها
 لا يمكن ان ينقل بغيرها

فقال الشيخ الحق ان فوائد سكة الحديد عظيمة وثمراتها كثيرة
 وليست مناقعها خاصة بالتجارة بل تعم غيرها من الصناعة والزراعة
 والعلوم والفنون والعادات والاخلاق والسياسة وال عمران والمدنية
 ففائدتها للصناعة مثلاً انها يسهل بواسطتها نقل المصنوعات من
 بلد الى بلد ومن مملكة الى مملكة فيكثر استعمالها وتداولها فيزداد
 صانعوها وتعظم رغبتهم فيها فيحسن حالها وهكذا فائدتها في الزراعة
 بتسهيل نقل حاصلاتها من الحبوب والثمار وغيرها فيزيد نفعها
 وتزيد بزيادته رغبة الناس فيها واعنائهم بها وهلم جرا

فقال الانكليزي نعم ذلك كما ذكرتم ولكن ليست منفعتها في
 الزراعة خاصة بنقل حاصلاتها فقط بل تنفعها كثيراً بنقل ادواتها
 ولوازمها ايضاً كالسماد (السباخ) مثلاً فقد نقل منه بواسطتها الى
 المزارع باجرة واهية مقادير كبيرة نشرت على الارض القوية والضعيفة
 فقويت الثانية وزادت قوة الاولى وكثر محصولها وقد كانت
 القاذورات والفضلات في المدن الخالية عن الزراع تطرح خارجها
 فتراكم حولها وتكثر فيها العفونة فتفسد هواءها فيضر بصحة اهلهما
 فلما نشأت سكة الحديد وخففت الاجرة في نقل امثال هذه الاشياء
 صارت تؤخذ من المدن فتنقل الى بلاد الريف ومحلات الزراعة

المملكة المذكورة في سنة واحدة نحو (٢٠٠٠٠٠٠٠) جنيه

وقد علم بالاستقراء والاستقصاء ان جال الطرق الاولى لم
تغير وحركة المراكب لم تنقص كما يزعم بعض الناس بل زادت
فقد كان الموجود سنة ١٢٥٧ هجرية في ارض فرنسا من سكك
الحديد (١٨٤) كيلومتر وكان متوسط عدد العربات العادية
الموجودة (٢٤٢) ولما بلغ طول سكة الحديد (٤٩٥٢) كيلومتر
في سنة ١٢٦٩ هجرية كان عدد العربات العادية (٢٤٤) فلما
وصل طول السكة الى (١٦٧٩) كيلومتر سنة ١٢٧٥ هجرية
كان عدد العربات (٢٤٦) ولما بلغ طولها (١٢٠١٨)
كيلومتر سنة ١٢٨٠ هجرية كانت العربات (٢٢٧) فمن هذا
ظهر ان سكة الحديد لم يحصل منها ادنى ضرر لمن كانوا متخذين
النقل بالعربة العادية صناعة بل حصل منها منفعة عظيمة لخلق
كثير استخدموا في اشغالها واعمالها وربحت اصحاب الاموال منها
ربحاً عظيماً فانهم بعد ان كانوا لا ينالون في السنة الا اثنين في
المائة ربحاً صاروا بوضع اموالهم في سكك الحديد يحصل لهم ربح
عشرين في المائة

وجملة ما يتحصل من سكك الحديد في بلاد الانكليز لاربابها
المشاركين فيها على جميع ما ينقل بها يبلغ (٢٠٠٠٠٠٠٠٠) جنيه
فلو فرض ابطالها بالمرء والرجوع الى الطرق الاولى لزم ان يصرف
حيثئذ على ما كان ينقل بها اذا نقل بالوسائط الاخرى

حتى صار قدره مرتين وثلاث مرات

وقد علم من نتائج الحساب في سنة ١٢٨١ هجرية ان مقدار
 البضائع المنقولة في ارض فرنسا الى مسافة الف متر كان يقرب من
 اربع مليارات طونيلاته اي اربعة الاف الف فلو قدرنا ان
 هذا القدر كان يتقل بالكيفيات التي كانت مالوفة في السابق
 وكانت ثلاثة مليارات منه تنقل بالعربات العادية ومليار واحد
 يتقل بالسفن في البحر قلنا ان نقل ذلك بواسطة سكة الحديد
 بدل الوسائط السابقة قد حصل منه وفر عظيم وذلك لان اجرة
 النقل بالوسائط المذكورة على كل طونيلاته مسافة الف متر تكون
 من اربعة عشر سنتيماً الى ستة عشر فاذا حسب سبعة فقط كان
 الوفير في كل طونولاته اربعة سنتيمات ونصفاً فان سكة الحديد
 يؤخذ فيها سنتيمان ونصف فقط فيتوفر لاصحاب البضاعة في السنة
 الواحدة من المنقول بالعربات المعتادة (٤٨٠٠٠٠٠) جنيه ومن
 المنقول في البحر ايضاً يتوفر على كل طونولاته اربعة سنتيمات فيتتج من
 ذلك (١٦٠٠٠٠٠) جنيه فيكون مجموع ما توفر ما ذكر لاصحاب
 البضاعة في السنة الواحدة (٦٤٠٠٠٠٠) جنيه ويلزم ان
 يضاف الى هذا ايضاً مقدار النقص الذي حصل في اجرة المنقول
 بالمرائب بعد حدوث السكة غير ما ذكر لانها كانت السبب فيه
 فاذا حسبنا ذلك باعتبار ما نقل في البحر سنة ١٢٨١ هجرية يبلغ
 (٢٦٨٠٠٠٠) جنيه فيكون مجموع ما وفرته السكة على اهل

..... ١١٢٥٠٠٠٠ فرنك اي ٤٥٠٠٠٠٠٠ جنيه وقبل حدوث
سكة الحديد كانت نفقة المسافر الواحد من زاد وغيره في كل
كيلومتر واحد تقرب من ١٢ سنتيا وهي الآن لا تزيد عن
سبعة سنتيمات ونصف فتوفر لهم بهذا السبب ايضاً ٤٠٠٠٠٠
جنيه فيكون جملة ما توفر لهم من هذا وذاك ٩٩٠٠٠٠٠
جنيه

فتبسم الشيخ وقال لو كان السفر على الدابة كالخمار والجمل
مثلاً لكان مقدار الوفر بالضرورة أكثر لان سير هذه الدواب
اقل سرعة من العربات المعتادة فانها لا تسير في الساعة أكثر
من ملقة فاذا كانت المسافة بعيدة لم يكن اللازم للمسافر في مونة
نفسه وحده بل يلزمه ايضاً مونة دابته واجرة حرسها اذا
بات في احدى المدن

فقال الانكليزي اذا كان المسافرون على الدواب بالعدد
الذي قدرناه لارض فرانسة كان الوفر قدر ما مر ذكره سبع
مرات واكثر وما حصل بواسطة هذه السكك من السهولة
والسرعة في النقل قد زادت حركة التجارة وكثر نقل البضاعة
وحصل منها ربح عظيم وبعد ان كان المحاصل من اجرتها لا
يبلغ ثلث المتحصل من جميع المنقولات وصل بواسطة السكك
الى ثلثيه والى ثلاثة ارباعه في بعض الجهات ثم صار المتحصل من
البضاعة قدر المتحصل من المسافرين ثم زاد عنه وما زال يزداد

ومشقات عظيمة لا سيما اذا كان السفر الى جهات بعيدة يلزم
تقطعها ايام عديدة واكثر ما كانت تقطعه هذه العربات في
اليوم ٤٠ كيلومتراً وهو ما يقطع بسكة الحديد في ثلاثة ارباع
ساعة ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد العظيمة والراحة التامة
ومن ثم كثرت حركة الناس منذ وجدت سكة الحديد وزادت
عن الاول بكثير فصارت في بعض البلاد ثلاثة امثال ما كان
قبل وفي اخرى مثليه وفي جهات امر يقا كما احدثتها سكة
الحديد وكانت قبلها غير موجودة

وقرأت في الكتاب الذي سبق ذكره ان الذي كان يتحصل
من نقل الناس بالعربات المعتادة في الجهة الشرقية من فرانسة
في السنة الواحدة ٢٤٠ جنيه وبلغ بوجود سكة الحديد ١٠٨٠
جنيه فلما رتبت قطارات مخصوصة للنزهة والتفجع اقل اجرة من
القطارات المعتادة زاد ذلك حتى بلغ ٢٦٠ ١٦ جنيه

فاذا فرضنا ان المسافرين في السنة في سكك الحديد في
جميع مملكة فرانسة مثلاً وهم ٧٥٠٠٠٠٠٠٠ من الناس يسافرون
مسافة ٤٠ كيلومتراً فلنا ان كل واحد منهم توفر له ثلاث
ساعات كانت تضي في السفر والحركة فان هذه المسافة تقطعها
الوابور في ساعة وتقطعها العربة المعتادة في اربع ساعات فجملة
ما توفر لجمعهم ٢٢٥٠٠٠٠٠٠ ساعة فاذا فرضنا ان الساعة
لكل منهم قيمتها نصف فرنك كان المتوفر لهم في السنة

وانجرح ٢٥٢١ فيكون قد مات من كل ٤٥٠٠٠٠ من
 المسافرين شخص واحد وانجرح من كل ٢٨١٠٠٠ منهم شخص
 واحد وهذا قليل جداً بالنسبة لما حصل في غيرها فقد علم انه
 مات في ارض فرانسé بسبب العربات المعتادة التي تجرها الخيل
 ١٠٢٢٤ شخصاً في ظرف ستة عشر سنة آخرها سنة ١٢٧٢ هجرية
 وما حصل من الحوادث في شركة السفن الفرنسية المتنامية
 مساجري ايمريال يدل على ان السكة اقل خطراً من غيرها بكثير
 فان جملة ما نقلته سفن الشركة من المسافرين في ظرف تلك
 المدة اعني ستة عشر سنة قد بلغ ٢٩٨٠٧١ شخصاً بلغ
 عدد من مات منهم ٢٠ وعدد من جرح ٢٢٨ فيكون
 قد مات واحد من كل ٢٥٥٤٦٢ من المسافرين وجرح واحد
 من كل ٢٩٨٧٢ منهم وهو اكثر من الحاصل في سكك الحديد
 بقدر ١٢ مرة

فمن هذه المقارنة يظهر ما ذكرناه من قلة اخطار سكة
 الحديد عن اخطار غيرها من الطرق المستعملة في النقل والسفر
 ونسبة هذه الاخطار الى ما حصل من الفوائد كنسبة المعدوم
 الى الموجود

مثلاً كان المستعمل في بلاد اوروبا للنقل والسفر قبل ظهور
 سكة الحديد المراكب والعربات المعتادة وكانت لا تقطع في اليوم
 الا مسافة قليلة فكان يحصل بسبب ذلك للمسافرين تعب كثير

وتفضيل المراكب عليها ثم تنوسي ذلك

قال الانكليزي من دأب الخلق ان يشتغلوا بالامور عند وقوعها ويندركوها اذا تقادم عهدها ولو تأملوا في الامور حق التأمل وقارنوا بين الحوادث الواقعة وبعضها لحكموا بالصواب ولكنهم يخبطون فيها خبط عشواء فيحكمون من غير روية ولا تدبر فمن ذلك حكمهم على سكة الحديد بمجاذبة مضرّة حصلت او بعض حوادث وتفضيلهم غيرها عليها بسبب ذلك من غير حصر ولا نظر لما وقع من الاخطار والحوادث فيما ذهبوا لتفضيله ولو نظروا بعين الحقيقة لرجحوا سكة الحديد على غيرها فانها اقل خطراً وأكثر مزية واخف ضرراً

قال الشيخ وما آية ذلك

قال الانكليزي قد علم من دفاتر الاحصاء انه في مدة سنة عشر سنة آخرها سنة ١٢٧٣ من الهجرة ركب سكة الحديد في امريكا من المسافرين ٢٢٨ ٢٢٤ ٠٧٠ شخصاً مات منهم بحوادث السكة ١٨٧ وانجرح ٢١٥٥ ومن سنة ١٢٥١ الى سنة ١٢٧٣ من الهجرة سافر بسكك الحديد في فرنسا ٢٢٤ ٢٤٥ ٧٦٩ من الناس مات منهم ١١١ وانجرح ٤٠٢ ومن سنة ١٢٦٨ الى سنة ١٢٧٣ للهجرة نقل بسكة الحديد في بروسيا ٥٥ ٥٥٢ ٨١٣ شخصاً مات منهم اثنان وانجرح اربعة فيكون جميع من ذكر من المسافرين في تلك الجهات ١٢٢ ٩٦٠ ١٢٥٠ مات منهم ٢٠٠

فسأل بعضهم فاخبره ان احدى العربات وجدت فيها نار والناس
من خدم السكة مشتغلون باطفائها فخاف الشيخ وقال لولده
وللانكليزي قوما بنا نزل

فقال الانكليزي لاتف يا مولانا ولا تجزع فهذا امر يكثر
حصوله في سكك الحديد ولا ضرر فيه ولا خطر وسرى هذه
النار انطفاً في بعض دقائق من الزمن وفي الواقع لم تمض
برهة قليلة حتى انطفاً النار وسار القطار كما كان فاطمان
خاطر الشيخ ولكنه اخذ يلوم على من يستعمل الدخان حيث
ظن ان ذلك منه وينسب التقصير الى خدم السكة لعدم
النفاهم لمنعه

فقال الانكليزي ليس هذا يا مولانا من استعمال الدخان
وانما هو من شدة اخنك الدناجل واللثم وليس من احد وهذا
اصغر خطر يحصل في السكة ولها اخطار كثيرة غير هذه نعود
بالله منها ولكنها الآن اقل مما كان يحصل في السابق بكثير فلا
يحصل الا في النادر وذلك بسبب ما تجدد لسكك الحديد والآتيا
من التحسين رعاية لسلامة المسافرين

قال الشيخ كان فيما سلف من الزمن قد حصل هنا في
سكة الحديد عند كفر الزيات امر هائل شاع ذكره وانتشر
خبره وعظم خطر ومات به خلق كثير فاكثر الناس وقتئذ
بسببه من ذم سكة الحديد وتهويل امرها والتحريض على تركها

كثيراً وثمر عظيمة

ثم انهم رأوا ان كثيراً من العربات تكون في معظم المسافة فارغة ويذهب مصروف نقلها سدى ووجدوا مصروف القطار يبلغ ١٥٠ سنتيماً في كل كيلومتر فاذا كانت البضاعة المحمولة ٢٥ طونيلاته مثلاً كانت الاجرة الحقيقية على حسب ذلك سنة سنتيمات لكل كيلومتر فان كانت البضاعة ١٥ طونيلاته كانت الاجرة في كل كيلومتر سنتيماً واحداً فكما كان المتقول اكثر كانت قيمة الاجرة اقل فمن ثم رأوا ان المسألة التي يلزم التنبه لها هي منع الفوارغ ما امكن فتوصلوا الى هذا الغرض بتقص اجرة اللوازم الأولية كالبحر والجبر مثلاً لتنتقل الى البلاد البعيدة والقريبة والكيفية التي استعملوها في تقدير الاجرة مثل ذلك هي انهم عرفوا فرق ثمن الصنف بين الجهة التي يرسل اليها وجعلوه هو الاجرة للصنف

فحصل لهذه التدبيرات وامثالها ثمرات عظيمة وفوائد جمة فزاد ربح اصحاب الشركات وزاد ايضاً انتفاع الناس بسكك الحديد زيادةً تذكر

وبينما هما يتحادثان في هذا الكلام وكانا قد وصلا الى قريب محطة بركة السبع اذ وقف القطار في غير موضع وقوفه وسمع في اخريات القطار جلبة وبعض اصوات مغلطة ونظر الشيخ فاذا بعض الناس ينزلون من محلاتهم وهو لا يدري السبب في ذلك

من الفائدة يدخل في المصروف السنوي بقدر ١٢٠٠ جنيه في كل كيلو متر ولا يتقص هذا القدر الا بزيادة ما ينقل من البضائع وغيرها اذ لو كان المنقول من البضاعة مائة الف طونيلاته مثلاً وكان المصروف على كل طونيلاته ثلاثين سنتيماً في كل كيلو متر فلا يزيد مصروفها عن ثلاثة سنتيمات اذا كان المنقول قدر الاول عشر مرات فعلوا ان تقلل الاجرة يستوجب كثرة ورود البضاعة وزيادة الربح ثم رأوا ان كل طرد من طرود البضاعة يحتاج الى بعض اعمال كالوزن والتخزين والكتابة ونحو ذلك وهذه الاعمال لا يحتاج اليها الا في المحطة التي يشحن منها والتي يرسل اليها ولا دخل لطول المسافة وقصرها في ذلك ومصاريف هذه الاعمال وان كانت تختلف باختلاف المحطات الا انها يمكن تقديرها ١٢٠ سنتيماً لكل طونيلاته فان كان طول المسافة عشرة كيلومترات فلا تكون الا اثني عشر سنتيماً لكل كيلو متر فان كانت مائة كيلو متر فلا يكون لكل كيلو متر الا سنتيم وخمس فان بلغت المسافة ٢٠٠ كيلو متر كانت قليلة جداً فلها رأوا ان ينحوا اصحاب البضائع المرسلة الى مسافات بعيدة بعض امتياز على غيرهم في خفة الاجرة استجاباً لازدياد رغبتهم ووجدوا في ذلك زيادة الربح والمكسب وكذلك التجار الذين لهم ارساليات منتظمة اعطوهم من الامتياز ما منحوه لاصحاب البضائع المرسلة الى المسافات البعيدة فرأوا في ذلك ربحاً

بلاد الانكليز والسنتيم عشر عشر الفرنك والفرنك ثلاثة قروش
واربعة وثلاثون نصفاً فضة بالمعاملة الديوانية الجارية بمصر وكل
عشرين فرنكاً بتو واحد وما يحصل من اجرة البضاعة اكثر ما
يتمحصل من اجرة المسافرين فاذا نسبنا احدها للآخر وجدنا اجرة
المسافرين في بلاد الانكليز نحو ٤٧ من المائة وفي بلاد فرانس نحو
٤٤ وفي المانيا نحو ٢٨ تقريباً وليست هذه المقادير ثابتة على الدوام
بل تتغير باسباب كثيرة وعلى الجملة فحاصل البضاعة آخذ في
الزيادة دائماً وعليه مدارسكك الحديد فانها لا تحتاج الى ما يحتاجه
المسافرون من كثرة السرعة وزيادة المصرف وقد احصي ما نقل
من البضاعة بواسطة سكك الحديد في جهات فرانس سنة ١٢٥٩
من الهجرة فبلغ ٢٥٠٠٠ طونيلاته وبلغ في سنة ١٢٦٧ من الهجرة
١٢٢٠٠٠ وبلغ في سنة ١٢٧٣ للهجرة ٢٢٧٠٠٠ طونيلاته والان
يبلغ ما ينقل في السنة الواحدة في فرانس نحو (١٢٠٠٠٠٠٠)
وفي انكلترا نحو (٦٢٠٠٠٠٠٠) طونيلاته

وهذا نتيجة احداث فروع جديدة وتقليل شيء من مقدار
الاجرة فقد كان يؤخذ اولاً على كل طونيلاته ستة عشر سنتيماً في
كل كيلومتر من السكة والان لا يؤخذ الا سبعة سنتيمات وذلك
في بلاد فرانس كما حققه صاحب الكتاب المذكور

والذي دعا اصحاب الشركات الى تقليل الاجرة انهم راوا ان
ما صرف في انشاء سكك الحديد من الاموال مع ما يحسب عليها

العربات المعدة لركوب المسافرين في سكة الحديد تكون على ثلاث درجات احداها وهي اعظمها واكثرها اجرة الدرجة الاولى وهي التي نحن فيها . ثانيها الدرجة الثانية وهي دونها واقل منها اجرة . ثالثها الدرجة الثالثة وهي دون الثانية واقل منها اجرة فكل من رغب في واحدة من هذه الدرجات يدفع ما قدر لها من الاجرة وينزل فيها وثم عربات من غير هذه الدرجات الثلاث معدة لنقل الدواب والبضائع وغيرها

قال الشيخ الظاهر ما رايت ان الذين ينزلون في الدرجة

الثالثة اكثر

قال الانكليزي نعم هذا هو الواقع وقد قرأت منذ قريب كتاباً الفه بعض الفرنسية حديثاً في احوال السكة الحديد يقول فيه قد دلت التجارب على ان كل مائة من المسافرين في سكة الحديد يكون منهم ٩ فاكتر الى ١٢ في الدرجة الاولى ومن ١٦ الى ٢١ في الثانية ومن ٦١ الى ٧٢ في الثالثة ومتحصل اجرة الدرجات الثلاث يكون فيه نحو ثلاثين في المائة من الدرجة الاولى ونحو اربعة وعشرين في المائة من الدرجة الثانية والباقي من الدرجة الثالثة وهذا في فرانسوا واما في المانيا فللدرجة الاولى خمسة في المائة وللثانية ٢٢ وللثالثة الباقي وقد قسم متوسط الاجرة على مقدار طول السكة فوجد انه يقع منه لكل كيلو متر من اجرة كل انسان ستة سنتيمات وثلاث سنتيم في فرانسوا و٨ وثلاث في

وفي غيرها كالداية والمركب مثلاً ومبخار ما هو الأرجح له من غير
 ان يبحث عن ربح صاحب السكة او الداية او المركب مثلاً فهذه
 عادتنا وطريقتنا وان كان هذا الامر ربما عابه علينا غيرنا بالنظر
 لعاداتهم وعلى الجملة فليس عندي شيء من معرفة ربح هذه السكة
 او خسارتها فان كان عندك علم بمقدار ارباح سكك الحديد في
 غير هذه البلاد فارجوك ان تبين لي منه نبذة فرما يمكن لنا ان
 نقيس احوالها في هذه البلاد على غيرها

فقال الانكليزي ليس الحال في جميع الجهات واحداً فعندنا
 في بلاد الانكليز كان الربح في بعض السنين اربعة في المائة تقريباً
 وكان مرة سبعة ومرة تسعة في بعض الجهات بعد طرح جميع
 المنصرف من اصل المتحصل وفي فرنسا بلغ مرة خمسة ومرة ستة
 ومرة تسعة كذلك وفي المانيا بلغ الربح زهاء عشرة في المائة وفي
 بعض جهاتها نحو اثنين وعشرين في المائة وفي ايتازونيا بلغ الربح
 في بعض جهاتها عشرة وفي اخرى اثني عشر وخمسة عشر في المائة
 وليست تدوم هذه الارباح على قدر واحد و احد معين بل تزيد
 وتنقص بحسب الاسباب ومتنضيات الاحوال وكذلك المصاريف
 قال الشيخ اني ارى محلات جلوس الناس في هذه السكة
 مختلفة متفاوتة في الفرش والزينة والروثق فما وجه ذلك هل هو
 بحسب اقدار الناس ومراتبهم ام كيف يكون
 قال الانكليزي ذلك بحسب ما يدفعونه من الاجرة فان

وأربعة وخمسون من المائة في سنك جهاتها الجنوبية وخمسة وستون في جهاتها الشرقية وأربعة وتسعون في جهاتها الغربية
 فقال الشيخ اظن ان ربح سكة الحديد هنا كثير جداً بسبب
 كثرة ما ينقل بها من المسافرين والبضاعة فقد سمعت انه يسافر
 في اليوم الواحد من مصر نحو ستة قطارات ومثلها من اسكندرية
 بعضها مشحون بالناس المسافرين وبعضها بالبضاعة وهذا غير
 جهات الفروع وجهة الصعيد

فقال الانكليزي لادري حاصل ايراد السكة بمصر
 ومصر وفيها فان هذا انما يعلم من نتائج تعمل عنه في كل سنة وما
 رأيت شيئاً من ذلك يتعلق بمصر وقد كان خطر بيالي ان اسأل
 من حضرتكم عنه

قال الشيخ ومن اين لي علم ذلك وهذه المرة اول مرة ركبت
 فيها هذه السكة فاني بحسب احوالي المعاشية واشغالي اليومية ما
 كنت اجد موجياً للسفر ولا خرجت من مصر منذ دخلتها الا مرة
 واحدة لامر مهم وذلك ان والذي توفي وترك ايتاماً فذهبت
 واحضرتهم ولم اخرج الى السفر قبلها ولا بعدها فلما لم يكن لي حاجة
 الى السفر في كل وقت لم يكن لي تفكر في مثل هذه الامور التي
 هي من لوازمه على انا في بلادنا ليس لنا عادة بالبحث عن مثل
 هذه الاحوال حتى ان من يضطر منا الى كثرة السفر لا تجد له
 عناية بمعرفة ذلك وانما يعرف مقدار الاجرة التي يدفعها في السكة

على ما ذكرت ولكن ربحها بالضرورة اعظم فان ارباب الشركات التي ذكرتها انما اشتغلوا بها طلباً للربح والمكسب فهل حسب ذلك او قدر

قال الانكليزي قد حسب مقدار المتحصل من اجرة السكك المذكورة سنة ١١٧٢ فكان في بلاد الانكليز اجرة المسافرين (١١,٣٦٠,٠٠٠) جنيه واجرة البضاعة (١١,٠٠٠,٠٠٠) جنيه ايضاً فيكون مجموع المتحصل من الاثنين (٢٢,٣٦٠,٠٠٠) جنيه وفي بلاد فرنسا اجرة المسافرين (٥,٥٢٠,٠٠٠) جنيه واجرة البضائع (٦,٠٤٠,٠٠٠) جنيه فيكون مجموعها (١١,٥٦٠,٠٠٠) جنيه وفي المانيا كانت اجرة البضائع ثلثي المتحصل كله فاذا قايسنا بين طول السكك والاجرة الحاصلة منها نجد انه يحصل على كل كيلومتر واحد في بلاد الانكليز ١٦٤٨ جنيه وفي فرنسا ١٩٤٠ جنيه وفي المانيا ١١٦٨ جنيه كل ذلك باعتبار الجنيه الانكليزي^{٢٤} وما يصرف سنوياً على سكك الحديد يختلف باختلاف البلاد والاشغال المرتبة لكل سكة بها والقائمين بادائها فهو في بلاد فرنسا اربعة واربعون من كل مائة من اصل المتحصل وفي بلاد الانكليز خمسة واربعون في المائة وفي المانيا اربعون

وسكك الحديد في بلاد الفلمنك جارية على طرف الحكومة كما في مصر ويصرف عليها سنوياً خمسة وعشرون من المائة من اصل المتحصل وذلك في السكك الموجودة في جهاتها الشمالية

انكليزي وغالب المحطات النهائية يلزم لها مصاريف هائلة فان بعضها يحتاج من الارض الى ما يقرب من مائة فدان مصري فلو قدرنا متوسط هذه المقادير وجعلناه قيمة كل كيلو متر واحد في جميع الجهات وحسبنا به الجميع نجد ان ما صرف في انشاء ما سبق ذكره من السكك يبلغ تقريباً نحو ١٧٣٠٠٠٠٠٠٠ جنيه انكليزي فما بالك لو حسبنا مصروف المعامل الجاري فيها اعمال الات هذه السكك وادواتها

قال الشيخ فهل جميع السكك في جميع الجهات على نسق واحد ام هي مختلفة

قال الانكليزي ليست على نسق واحد في جميع الجهات ففي بلاد امريكا تجد غالب السكك على خط واحد فيه ميول ابي انحدارات كبيرة وغالب المحطات فيها من الخشب والاضل في ذلك رعاية قلة المصرف وعدم الاسراف وفي بلاد الانكليز وفرنسا جميع السكك على خطين والمحطات واسعة مشيدة صرف عليها مصروف كثير والاصل في ذلك رعاية كثرة رغبة الناس . وفي بلاد الالمانيين بعض السكك خط واحد وبعضها على خطين ولكن منذ قريب راوا لزوم جعلها كلها على خطين وبالجملة فاخلاف السكك تابع لدرجة تمدن البلاد ودرجة عمارتها وثروة اهليها

قال الشيخ ارى هذه السكك قد صرف عليها اموال هائلة

النقل والسفر لجميع الناس مع الراحة والامن باجرة اقل مما كانوا
يصرفونه على ذلك في غير سكة الحديد

وقد قدر عدد المستخدمين في سكك الحديد في كل ميريامتر
اي عشرة من الكيلومتر فوجد ٧٥ شخصاً في بلاد الانكليز و٧٢
شخصاً في بلاد المانيا و ٧١ في فرنسا فكل شركة من الشركات
المتشغلة بهذه الاعمال تستعمل في الاقل نحو (٢٧٠٠٠) شخص
وذلك عبارة عن جيش كل افراده مستعملة في توسعة دائرة الثروة
البشرية ومتعيشة في ساحة الشركات المذكورة فلو حسبنا مقدار
جميع المشغلين بخدمة سكك الحديد التي ذكرناها لوجدناه يقرب
من مليون اي الف الف من الناس

ولو نظرنا الى ما يصرف في هذه السكك لوجدناه يبلغ مبالغ
تتجاوز حد المعهود فقد وجد متوسط ما يصرف في انشاء كل
كيلومتر في بلاد الانكليز نحو (٢٢٧٢٠) جنيه انكليزي وفي
بلاد المانيا (١١١٢٠) وفي امريكا (٥٠٤٠) جنيه وفي فرنسا
(٢٠١٢٠) جنيه من هذا (٢٤٠٠) جنيه ثمن الارض
و (٥٦٠٠) جنيه ثمن القصب من الحديد و (٢٤٠٠) جنيه
ثمن الادوات ومصاريف الجسر والتركيب والباقي في المباني ويختلف
المصرف كثيرة وقلة بحسب الجهات فيكون في قرب المدن كثيراً
جداً فقد لزم صرف قدر مليون جنيه انكليزي في المرور من
مدينة ليون وصرف على محطة باريس نحو (١٢٠٠٠٠٠) جنيه

كيلو متر وفي فرنسا (١١٦١٥) كيلو متر والباقي في سائر جهات
 اوربا وغيرها ومن ذلك في القطر المصري (٥١٨) كيلو متر
 ثم تم بعد ذلك باقى ما عملت مشارطاته وزاد عليه كثير غيره
 واذا قايسنا بين هذه المقادير وبين اهل الجهات المذكورة نرى ان
 كل مليون من الاهلين اى الف الف يقابله ٢٠٠٠ كيلو متر
 من سلك الحديد في بلاد ايتازونيا والف كيلو متر في بلاد الانكليز
 وخمسة ائة كيلو متر في فرنسا والمانيا وما من يوم الا ويحدث فيه
 انشاء سلك جديدة توصل بعض البلاد لبعضها ففى كل يوم فى
 تجديد وكل وقت فى مزيد

فقال الشيخ ان السلك الحديدية فى مصر عملت على نفقة
 الحكومة وهى تقوم بما يلزم من مصروفها وتاخذ ما يتحصل من
 ايرادها فهل الجارى فى سائر الجهات مثل ذلك

فقال الانكليزي الجارى فى البلاد الاوروبية على خلاف
 ذلك فان انشاء سلك الحديد فيها يكون على نفقة شركات
 تتالف من شركاء قليلين او كثيرين على حسب حالة السكة
 المطلوب انشاؤها والتعود اللازم صرفها عليها فهم يصرفون عليها
 وياخذون اجرة ما يحمل فيها من المسافرين والبضائع التجارية
 وغيرها بمقتضى اقوانين موضوعة فيها حدود مقررة لا يقدر على
 تعديلها وذلك لاجل راحة الناس وعدم تمكن ارباب تلك الشركات
 من اطلاق التصرف بما يخل بالغرض الاصلى وهو تسهيل امر

اجمالي لصفحتها على قدر الكفاية لتصورها لمن لا يريد الاستغال بها
واتخاذها حرفة

وقد كان استعمال سكك الحديد وانتشارها في مبداء ظهورها
قليلاً لجهل الناس امرها فكان الموجود منها سنة ١٨٢٩ من الميلاد
اي سنة ١٢٥٥ من الهجرة في بلاد الانكليز (٢٢٣٢) كيلومتر
وكل كيلومتر الف متر وفي فرنسا (٥٧٢) كيلومتر وفي باقي
اوروبا (٨٢٤) كيلومتر وكان اكثر هذه السكك مستعملاً في
نقل الفحم ثم اخذت في الاشتهار والانتشار بالتدريج ورغبت فيها
اصحاب الاموال لما علم من كثرة فوائدها وثمراتها فانعقدت شركات
بين كثير من الناس اجتمعت فيها اموال عظيمة واشتغلوا بها
فكثرت واشتهرت فلما مضى عشرون سنة من ابتداء ظهورها
كان الموجود منها في اوروبا وفي باقي الجهات (٧٠٠٠٠) كيلومتر
وفي سنة ١٢٧٢ من الهجرة احصي وقدّر ما حصلت المقابلة على
انشائه وعقدت مشارطاته الى ذلك التاريخ فبلغت (١١٥٣٩٥)
كيلومتر منها في ايتازونيا من بلاد امريكا (٣٣٧١٠) كيلومترات
وفي بلاد الانكليز (٢١٥٥٥) كيلومتر وفي بلاد فرنسا (١١٦١٥)
كيلومتر وفي المانيا (١٨٠٨٤) كيلومتر وفي باقي الجهات
(٣٠٤٢١) كيلومتر وكان الذي تم من ذلك واستعمل الى التاريخ
المذكور (٧٧٢٣١) كيلومتر منها في بلاد الانكليز (١٤٠٣٥)
كيلومتر وفي امريكا (٣٩١٩٨) كيلومتر وفي المانيا (١١٩٧٥)

واصله الى محور العجل الكبير الذي في وسط الفرش فتحركها
 حركة مستديرة على الحديد الموضوع فوق الارض فتسير الالة كلها
 عليه وتجر خلفها العربات المرتبطة بها وبعد ان يتم التجار فعله
 المطلوب منه ينصرف من تلك الاسطوانات بواسطة انابيب توصله
 منها الى المدخنة فيخرج منها بقوة وصوت تسمعه مدة سير الوابور
 فتساعد تلك القوة على اشتعال النار لانها تجلب اليها الهواء وفوق
 القزان آلة تسمى آلة الامن تبين تغير مقدار الماء الموجود فيه
 للاحتراز من زيادة قوة التجار عن المقدار اللازم فان قوة تمدد
 التجار تزيد وتنقص بحسب زيادة الحرارة وتقصها والقزانات انما
 تعمل لتحمل قوة محددة اذا زادت عنها قوة التجار يتمزق القزان
 وينكسر ويحصل خطر كبير وضرر عظيم ففائدة آلة الامن الاحتراز
 من ذلك النخطر والضرر وبالقرب من سائق الوابور آلة اخرى
 ينظر اليها في كل وقت يعرف بها مقدار تلك القوة التي هي الاساس
 في سرعة السير فان كانت زائدة عن الحد خففها وان كانت
 ناقصة فعل ما يقويها . ثم آلة اخرى يسد بها الانبوبة الموصلة
 للتجار الى الاسطوانات حين يريد توقيفها ويفتحها حين يريد
 تحريكها وجميع تلك الآلات لها مقادير محددة وابعاد معينة
 بحسابات طويلة ولها اشكال موافقة لما يراد منها وتركب مع بعضها
 على مقتضى اصول وقواعد مقررة طويلة الشرح يوجد بيانها في
 كتبها الخاصة بها يطلبها من يريد التجار في معرفتها وانما هذا بيان

يبلأها الماء فتصير الانابيب المذكورة مغمورة فيه
 ثم فوق الدست مما يلي جهة النار بيت البخار وهو الذي
 تراه نائماً فوقه كالمحذبة على ظهره ويقال له طنبوشه
 فيوضع الماء في القزان اي في بيت الماء السابق ذكره ولا يملا
 جميعه بل يترك جزء في اعلاه فارغاً من الماء ليتولد فيه البخار ومنه
 يصعد الى الطنبوشة المذكورة وتوقد النار في الفرن فيسخن بيت
 الماء المتصل به وتدخل الحرارة مع الدخان في تلك الانابيب فتسخن
 ايضاً وتشتد بها سخونة الماء لكونها مغمورة فيه فيتولد البخار بسرعة
 ويحصل منه مقدار كثير يكفي للمطلوب يجمع في الطنبوشة كما
 مر ذكره فتشتد قوته وفي اعلى هذه الطنبوشة من داخلها فم انبوبة
 طويلة تمتد منها الى بيت الدخان مرة من بيت الماء من اعلاه في
 الجزء الذي يكون فارغاً من الماء وضعت كذلك لئلا تكون في
 الماء فتبرد وتضعف قوة ما يكون فيها من البخار وجعل فيها في
 اعلى الطنبوشة لئلا يدخل فيه بعض الماء عند غليانه فاذا اجتمع
 البخار واشتدت قوته كما ذكر يدخل في تلك الانبوبة من فيها
 الذي في اعلى الطنبوشة فيسير فيها الى بيت الدخان وهناك
 ينفصل في انبويتين يصل منها الى اسطوانتين في جانبي بيت
 الدخان احداها جهة اليمين والاخرى جهة اليسار وفي كل منهما
 مكبس فاذا دخل البخار في كل اسطوانة دفع المكبس الذي فيها
 فحركه الى جهة اتجاه قوته وبحركة المكبسين تحرك عدد متصلة بهما

بأقي العدد الموجودة لما بينها من الاتصال ولكل الآلة تركيب مخصوص موافق للغرض المطلوب منها ولها أشكال مختلفة وأنواع كثيرة بحسب ما يطلب منها فليس ما يطلب لأجل الغزل والحياكة أو صناعة الحديد مثلاً كالذي يطلب لسير السفن ولا ما يراد به إدارة عدد كثيرة وكبيرة كالذي يراد به إدارة عدد قليلة وصغيرة بل كل على حسب ما يلزم له

وأما بواخر سكة الحديد فيكون فيها الآلة والقران والفرن جميعها مجتمعة مع بعضها في هذا الدست المستطيل الأسطواني الذي تراه أمام القطار موضوعاً على فرش من المعدن فوق العجل بكيفية معلومة ليس هنا محل شرحها

فجهة المُوخر من الدست حيث يقف سائق الوابور فيها بيت النار وهو الفرن وهناك جميع الآلات التي تدل على قوة تمدد البخار والتي يوقف بها الوابور حالة سيره وعكسه وفي جهة مقدم الدست أي أوله من الجهة التي يسير إليها يوجد بيت الدخان وفوقه تلك المدخنة القائمة التي تراها ينبعث منها الدخان إلى الجو وبين بيت النار وبيت الدخان المذكورين بيت الماء وفيه أنابيب من النحاس كثيرة يبلغ عددها مائة فأكثر إلى مائتين وثمانين وهي متصلة ببيت النار وبيت الدخان مارة من بيت الماء الموجود بينهما كما ذكر

وهذه الأنابيب موضوعة بقرب بعضها وبينها أخلية صغيرة

قاعدة الاسطوانة دفع المكبس الى اعلاها واذا جاء من الاعلى اى
من جهة غطاء الاسطوانة دفع المكبس الى الاسفل ففي الحالة الاولى
يصعد المكبس من جهة قاعدة الاسطوانة الى قرب غطائها وفي
الحالة الثانية يهبط الى قرب قاعدتها وهكذا تستمر المكابس صاعدة
وهايطة يتكرر ورود البخار عليها ودفعه لها من الاسفل الى الاعلى
ومن الاعلى الى الاسفل وفي حركاتها هذه تعلق وتسفل معها سيقانها
المخارجة من اغطية الاسطوانات كما مر ذكره انما وهناك قطعة
مستطيلة ذات شكل مخصوص نسميها القب تشبيهاً لها بقب
الميزان موضوعة بحيث يمكن ان تتحرك حول مركز وسطها كحركة
قب الميزان يعلو احد طرفيها ويسفل الاخر ثم يعلو السافل
ويسفل العالى وساق كل مكبس من المكابس المذكورة متصل راسها
باحد طرفي هذا القب وقد رتب البخار الوارد على هذه المكابس
بحيث يجعلها تتحرك على التعاكس بمعنى انه اذا كان احدها صاعداً
كان الاخر هايطاً ثم يهبط الصاعد ويصعد الهايطة وهكذا . وبحركة
المكابس هذه الحركة التعاكسية يتحرك القب المذكور بالتبعية لحركة
سيقانها المتصلة رؤوسها بطرفيه كما ذكر فيصعد طرف القب مع
الساق الصاعدة ويهبط مع الهايطة وهكذا . وبحركة طرفيه تتحرك
معها قضبان ثابتة فيها متصلة بجوار موضوعة على الارض او غيرها
فتوصل تلك القضبان حركة القب المذكور الى هذه المحاور
فتجعلها تتحرك حركة دورية كحركة سهم الساقية فتدور بهذه الدورة

سكة الحديد فيكون فيها اناء البخار مع الآلة ويرى الجميع كثي
واحد ويقال له هنا وابور البر وهو الذي تشاهده امام القطار
يجر هذه العربات على قضبان الحديد الموضوعة فوق الجسر على
مقتضى قواعد معلومة تختص بتحديد سعتها وميلها واختلف اتجاه
سيرها على جسر واحد او جسور متعددة متصلة ببعضها موصلة الى
بلاد مختلفة ولتكم على باخرة سكة الحديد وغيرها

فاما غيرها من الآلات المستعملة لسير السفن وريّ المزارع
وإدارة العامل المعروفة بالورش ونحو ذلك فعمل البخار فيها
(وهو المعروف بالدست والقران) يكون موضوعاً فوق الفرن
بحيث يكون اكثر سطحه ماساً للنار حتى يحصل مقدار كثير من
البخار من غير اتلاف واسراف في الوقود المستعمل وهو الفحم الحجري
في الغالب ولا يكون شكل الدست والفرن كما اتفق بل يكون
بمقتضى قواعد وقوانين هندسية لا بد من رعايتها والاجراء بموجبها
لحصول البخار فاذا اوقدت النار في الفرن تحت القران على الماء
الموجود فيه فيتولد منه البخار ويدخل في انابيب من المعدن مخصوصة
يخرج منها الى اوعية اسطوانية من اجزاء الآلة تسمى الاسطوانات
لكل منها غطاءً محكم وفي باطنها مكابس محكمة على قدرها كالتي
تقدم ذكرها ولكل مكبس ساق ممتدة نافذة من غطاء الاسطوانة الى
خارجها فاذا دخل البخار في تلك الاسطوانات حرك ما فيها
من المكابس الى جهة اتجاهه فاذا ورد من الاسفل اي من جهة

علمت من قبل لا تزيد سرعتها عن ثلاثة آلاف متر في الساعة
 الواحدة وكان ما يتقل من البضاعة في المرة الواحدة لا يزيد عن
 ثمانين طنًا ونعني بالطن ويقال له طونيلاته ايضًا ما يتساوي
 مقدار اثنين وعشرين قنطارًا مصريًا وبعض كسر قليل من قنطار
 فثانون طنًا تساوي الفًا وسبعائة وعشرين قنطارًا فهذا غاية ما
 كان يمكن نقله بواسطة الآلات القديمة مرة واحدة واما الان فلما
 دخل هذه الآلات من الاتقان والتحسين صار يمكن ان يتقل بها
 في المرة الواحدة لغاية ثمانمائة طن بسرعة عشرين الف متر في
 الساعة الواحدة هذا في قطارات البضائع واما قطارات المسافرين
 فيمكن لها لحقتها عن هذا المقدار ان تسير في الساعة الواحدة ستين
 الف متر فاكثر الى ثمانين الف متر فان سرعة الآلات البخارية
 تزيد وتقص على حسب الاثقال مثل الحيوانات فان كانت الآلة
 تجر ثمانمائة طن في سرعة عشرين الف متر في الساعة الواحدة فلا
 تجر في سرعة ثمانين الف متر مثلاً الا عشر هذا المقدار فاذا وصلت
 السرعة الى مائة وستين الف متر مثلاً فانما تسير بنفسها ولا تجر
 شيئاً مطلقاً

واما صفة الآلة البخارية في سكة الحديد وغيرها وكيفية
 استعمالها فاشرحها لحضرتكم على وجه التلخيص والاختصار والتعريب
 فاقول الغالب فيما عدا باخرة سكة الحديد من الآلات البخارية
 ان يكون الاناء المتولد فيه البخار منفصلاً عن الآلة واما باخرة

آلة بخارية في سنة ١٢١٦ بقصد استعمالها في السير على الأرض المعتادة فلم تنجح وظهرت صعوبات كبرى من حصول الاحتكاكات الكثيره فتركت وبعد ذلك اشتغل الفكر بوضعها فوق قضبان من حديد واستعمالها في محاجر الفحم الحجري فظهر منها فوائد وثمرات كثيره ولكن كانت سرعتها قليلة لقلة كفاية المقدار المتحصل من البخار فان كل دورة كاملة من دورات العجل تحتاج الى كمية من البخار تساوي ضعف حجم الاسطوانة البخاري فيها تأثير القوة الفعالة فلذا بقيت سكك الحديد مدة لا تستعمل الا في نقل الفحم الحجري وبعض بضائع قليلة

وفي اثناء ذلك كان كثير من ارباب الفن يجتهدون ويتفكرون في استنباط طريقة ييسر بها زيادة مقدار البخار لما يترتب عليه من الثمرات الكبيرة والفوائد العامة فكان الفخر في ذلك لرجل من الفرنسيه استنبط بفكره طريقة حسنة موصلة الى هذا الغرض وذلك بوضع جملة انابيب في الدست متصلة ببيت النار تنفذ فيها النار والحرارة فيكثر بسببها تسخن الماء ويزداد بذلك مقدار البخار الى الحد المطلوب وعند ذلك عملت هذه الطريقة في الآلة انشاها (ستيفنسون) الانكليزي في معمل له وجريت فنجحت . ومن وقتئذ اشتهرت وكثرت السكك الحديدية وصارت تزيد وتمتد في كل مملكة من الممالك الى ان صارت مستعملة في اكثر بقاع الأرض المعمورة وقد كانت الآلات التي

وأكثر مزاياها حتى وصلت الى ما وصلت اليه من الحسن والجودة
 وكثرة المنافع ودخلت في كثير من الصنائع والمعامل والمصانع
 واستقاء المزارع والمحراث وطحن الحبوب والسفر بمراكب النار في
 البحر وعلى سلك الحديد في البر حتى صار البخار أكبر مساعد
 للنوع الانساني فزادت به قوته وسرعته حتى عمل به ما كان يعد
 من الممتنع عمله بالوسائل الاولى

فقال الشيخ نعم قد عمل بواسطة هذا البخار اعمال كانت تعد
 من الممتنع في العادة ولا يتصورها احد من الناس فمن ذا الذي
 كان يتصور قبل ان يظهر هذا الامر انه يذهب من القاهرة الى
 الاسكندرية ثم يعود الى محله في يوم واحد . ولكن اريد من
 لطفك ان تخبرني عن اول وقت استعملت فيه هذه السكك
 الحديدية ان كان على ذكر منك ثم تم معروفك بان تشرح لي
 صفة الآلات البخارية المستعملة الان في سكة الحديد وغيرها مع
 بيان كيفية استعمالها على سبيل الاجمال والتقريب تميماً للاكرام
 فاتم ما مننت به واحسن * فما المعروف الا بالتمام

قال الانكليزي حباً وكرامة اما استعمال السكك الحديدية
 اعني السفر بواسطة الات البخار فوق قضبان من الحديد توضع
 على الارض كما تشاهده فلم يكن الا منذ عهد قريب فان اول
 تجربة عملت في ذلك ونجحت كانت في سنة ١٨٢٥ للميلاد الموافقة
 لسنة ١٢٤٦ من الهجرة في بلاد الانكليز وقبل ذلك كانت جربت

الماء ليضغط عليه كان يذوب في الماء جز كبير من البخار فكان لا يرتفع الماء إلا إذا تشبع بالحرارة بحيث لا يقبل ذوبان بخار جديد فيه وحينئذ يضغط عليه البخار الوارد ويفعل فيه بكل قوته فيرتفع وبهذا السبب كان يضع جزء كبير من البخار كما ذكر واستمر هذا المحذور الى ان اجتهد (بابن) المذكور في ازالته حتى ظفر بالغرض سنة ١١١٩ من الهجرة بان جعل البخار الوارد من الدست يضغط على مكبس كالسابق ذكره موضوع فوق الماء المراد رفعه فتم ضغط البخار على المكبس ضغط المكبس على الماء فيخرج في انبوبة مخصوصة يرتفع فيها الى حيث يراد رفعه

ولم يقتصر المذكور على ذلك بل احدث آلة تسمى آلة الامن تكون فوق الدست لمنع البخار من ان يصل الى شدة يتمزق بها الدست الذي هو فيه وسيجي ذكرها

وزاد في تحسين الآلة المعدة لرفع الماء حتى جعلها تصلح للاستعمال في اعمال كثيرة وذلك انه بعد رفع الماء الى حوض موضوع على ارتفاع مخصوص جعل لذلك الحوض انبوبة ينصب منها الماء على طارة ذات كفات كالطارة السابق ذكرها في الآلة المستحدثة سنة ١٠٢٩ فتدور تلك الآلة بقوة وقع الماء الساقط على كفاتها واتفق يدوران هذه الطارة في ادارة غيرها

ومن ذلك الوقت اخذت تلك الآلات في الاشتهار واشتغل خلق كثير في بلاد فرنسا والانكليز بتحسين امرها والزيادة فيها

عنه بالساق فيوضع في الوعاء الاسطواناني المذكور مقدار من الماء قبل وضع المكبس ثم يوضع المكبس ويتكأ عليه باليد فينزل الى ان يمس الماء الموجود في الوعاء فيخرج الهواء الموجود من ثقب في سطح المكبس يسد بعد ذلك وتوقد النار تحت الوعاء المذكور فيتولد البخار ويضغط على المكبس فيرتفع الى اعلى الوعاء ويرتفع معه ساقه السابق ذكره وفي راس هذا الساق حبل يربط به طرفه وهذا الحبل يمر فوق بكرتين وطرفه الثاني طويل بحيث يمكن ان يربط به شيء ثقيل يراد رفعه وغير ذلك فاذا ارتفع ساق المكبس كما ذكر يضبط في محله بمسامير تثبت به ثم تبطل النار من تحت الوعاء الاسطواناني المذكور فتحصل البرودة ويقطع البخار الدافع للمكبس فاذا رفع حينئذ المسامير المسك للساق سقط المكبس الى اسفل الوعاء بسبب ضغط الهواء عليه وسقوطه بسبب معه طرف الحبل المربوط به فيرتفع الثقل المربوط في الطرف الثاني من الحبل ونحو ذلك

ثم اشتغل الناس بتحسين هذه الآلة وغيرها من الآلات السابقة حتى صارت تستعمل في اعمال جسيمة كثيرة النفع واستحدثت آلات جديدة لرفع الماء احسن من الاولى بحيث صار الماء الذي يراد رفعه الى الاعلى يوضع في انية غير التي تحتها النار فتميزت الآلات الجديدة على القديمة بهذه المزية ولكن مع هذا كان يضع جزئ كثير من البخار يذهب سدى وذلك انه عند توجيه البخار الى

بقضيب طلومبة موضوعة في بئر فيتحرك قضيب الطلومبة بواسطة دوران الطارة فيخرج الماء بواسطة الطلومبة من البئر الى اعلاه وذلك كان المقصود من هذه الآلة

وفي سنة ١٠٧٤ من الهجرة كتب بعض الناس نبذة ذكر فيها انه اخترع آلة تيسر بها رفع الماء من اسفل الى اعلى بواسطة النار وهي عبارة عن دستانين كرويين مركبين على فرن وفي كل منهما انبوبة واصلة الى قرب اسفله نافذة منه وكل من الانبويتين يتصل بانبوبة افقية وكل من الدستانين في اعلاه انبوبة قصيرة غير ما ذكر يصب منها الماء في الدست ولها حنفية فاذا وضع الماء في احد الدستانين الى قرب نصفه مثلاً واوقدت تحته النار يتولد منه البخار ويضغط على الماء فيمشي في الانبوبة المتصلة باسفل الدست ويرتفع فيها الى اعلاه وهذه الآلة مثل الاولى التي استحدثت سنة ١٠٢٤ وانما هذه فيها دستان يستعملان بالتعاقب وفي كل منهما يستحيل جزء من الماء الى بخار يضغط على باقي الماء فيرفعه الى الاعلا

وفي سنة ١١٠٢ من الهجرة استحدث رجل من الفرنسية يسمى (باين) آلة ذات مكبس يضغط عليه البخار فيرفعه وذلك ان هنالك وعاء على شكل الاسطوانة مفتوحاً من اعلاه مسدوداً من اسفله وفيه مكبس محكم مائل للوعاء المذكور قابل للحركة من اسفل هذا الوعاء الى اعلاه وعكسه وفي اعلى المكبس قضيب نعبر

الانبوبتين في اعلى الوعاء ليصب منها الماء وهي قصيرة والثانية طويلة متصلة باسفله صاعدة الى فوق متصلة بحوض مرتفع حيث يراد اىصال الماء . فيوضع الماء في ذلك الوعاء الكروي من الانبوبة المعدة لصبه ولا يملأ كله بل يبقى اعلاه فارغاً لاجل تجمع البخار فيه وتوقد النار تحت الوعاء فيتخلل منه بخار يرتفع الى ذلك الموضع الفارغ فاذا اشتدت قوة البخار ضغط على الماء فيندفع الى الانبوبة الطويلة المتصلة بالحوض ويرتفع فيها بسبب شدة ضغط البخار عليه حتى يصل الى الحوض العالي وينزل فيه وكلما نقص الماء في ذلك الوعاء الذي تحته النار وضع فيه ماء جديد وهكذا حتى يتليء الحوض

ثم في سنة ١٠٢٩ من الهجرة جعل احد الظليانيين للدست الذي توقد تحته النار انبوبة ممتدة الى قرب طارة راسية لها كفات وان شئت قلت ريشات او الواج مثلاً كما في الطارة التي تشاهد في مراكب النار اعني الطارة التي يسير بها مركب النار ويقال لها جرخ وعجلة وتلك الانبوبة متوجهة الى الكفات المذكورة ولها حنفية تفتح وتغلق بالاخيار فتوقد النار على الدست وفيه الماء فيتخلل منه البخار فاذا اشتدت قوته تفتح حنفية الانبوبة فيمشي فيها البخار ويخرج منها بقوته متوجهاً الى الكفة التي تقابله من كفات الطارة فيدفعها بقوته فتنزل وتاتي الكفة التي بعدها فيدفعها كذلك وهكذا فتدور الطارة بسبب ذلك . وتلك الطارة متصلة

فيها كيفية استعمال هذه الصورة البخارية الان وانما كان يستعمل قديماً قوة الانسان والحيوان في نقل الاثقال وادارة بعض الآلات كالسواقي والطواحين وكذلك استعملت قوة تيار الماء في ادارة بعض الآلات واستخدمت قوة الريح في سير السفن في البحر والأنهر وادارة الطواحين الهوائية ونحو ذلك اما استعمال قوة البخار فيما ذكر بهذه الصورة فلا نعهد له ذكراً فيما وصل الينا من الكتب القديمة فهل تذكر تاريخ الاهتداء لاستعماله

فقال الانكليزي غاية ما امكن الوصول الى معرفته مما كان جارياً في ذلك بالاعصار القديمة ان اول من تنبه لاستعمال قوة البخار هارون الاسكندري المصري وذلك انه صنع كرة مجوفة تدور على محور افقي دورة رحوية وجعل فيها انايب على خط واحد حولها وجعل اطراف هذه الانايب معوجة الى جهة واحدة فبقي قوي البخار في جوف تلك الكرة خرج من تلك المعوجات فاوجب حركتها فتدور على محورها كما تدور الرجا وهذا ايضاً يحصل بالماء لو وضع في تلك الكرة بدل البخار هذا غاية ما امكن الاستدلال عليه ما حصل في الازمان القديمة

ثم في سنة ١٦١٥ من الميلاد اعني سنة ١٠٢٤ من الهجرة استعمل رجل من الفرنسيين قوة البخار في رفع الماء الى الاعلى وذلك بان صنع وعاء كروياً يعبر عنه بالدمست والقران وجعل له انبوتين لكل منهما جنية تفتح وتغلق على حسب الارادة واحدى هاتين

التر اي عشر المتر والمتر هو ذراع وثلاث بالذراع المعاري
المستعمل في مصر في مقاييس الابنية وكيلو جرام معناه الف جرام
والجرام يقرب من ثلث درهم فكل مقدار سانتيمتر اي عشر عشر
المتر من سطح اي جسم من الاجسام عليه ثقل ٢٤٤ درهم مصري
من ضغط الجو وهو ثقل عمود من الزئبق قاعدته سانتيمتر واحد
وطوله ستة وسبعون سانتيمتر او قدر عمود من الماء قاعدته سانتيمتر
وطوله عشرة امتار وثلث لان الزئبق اثقل من الماء ثلاثة عشر
مرة وستة اعشار مرة فلو ضربنا طول عمود الزئبق المذكور وهو
ستة وسبعون من مائة في ثلاثة عشر وستة اعشار لحصل عشرة
امتار وثلث

فاذا كان الضغط الواقع من البخار او الغاز على قدر
سانتيمتر من سطح اناء مثلاً مساوياً للضغط الواقع من الجو على
القدر المذكور يقال ان قوة هذا البخار او الغاز تساوي جواً واحداً
واذا كان بقدر ضغط الجو مرتين قيل ان قوته جوان وهكذا
ولسهولة الاعمال حرراهل الفن جداول يعلم منها درجة
الحرارة المتبالة للقوة النهائية المقدرة بقدر معلوم من الجو فالجو الواحد
يقابله مائة درجة والجوان (١٢٠) درجة وستة اعشار وهكذا
الى ثمانمائة وعشرين جواً يقابلها (٢٢٠) درجة وتسعة اعشار
قال الشيخ قد يوجد في كتب القدماء بعض مسائل تتعلق
بنقل الحرارة في الماء والاجسام وبعض احوال البخار لكننا لم نجد

وثلاثين درجة وجعلوا لها جداول ترجع اليها اربابها المشتغلون
بالالات البخارية وعادتهم ان ينسبوا قوة البخار الى الجوف يقال قوة
البخار الفلاني جو واحد واثنان او ثلاثة مثلاً وهكذا

قال الشيخ وكيف ذلك

قال الانكليزي من المعلوم ان هذا الهواء الجوي الذي
نعيش فيه ونستنشقه معدود من الغازات وهو موجود في جميع
المحلات كبيرة وصغيرة مرتفعة ومنخفضة ومحيط بكرة الارض من
جميع جهاتها ممتد فوق رؤسنا الى بعد عظيم الا انه محدود لا
يزيد عن ستة وثلاثين الف متر وليست كثافة طبقاته وثقلها في
درجة واحدة بل هي متفاوتة بحسب قربها من الارض وبعدها
عنها فكل ما كان منها الى الارض اقرب كان اثقل واكثف
بسبب ثقلها وثقل ما فوقها من الطبقات عليها وكلما كان منها
عن الارض ابعد كان اخف والطف

وجميع الاجسام الموجودة في الهواء عليها ضغط من الهواء
بحسب جرمها وقد قدر ذلك بالحساب وحرر فعلم ان كل مقدار
سانتيمتر من سطح اي جسم عليه ضغط من الهواء الجوي بقدر ثقل
كيلوجرام وثلاثة وثلاثين جراماً

قال الشيخ ما معنى سانتيمتر وكيلوجرام فهذه الفاظ
لا اعرفها لانها ليست عربية

قال الانكليزي سانتيمتر هو جزء واحد من مائة جزء من

النهائية فصغرنا حجمه بان كبسناه وحبسناه في محل اضيق مما كان فيه زادت قوته ولا تزال تزداد قوته من تنقيص حجمه بتضييق محله الى ان يصل الى القوة النهائية فان كبرنا حجمه بتوسيع محله ضعفت قوته وهكذا فالمحاصل ان قوته تكون بالنسبة العكسية للمحل المحبوس فيه فكلما زاد كبر المحل نقصت القوة وكلما نقص كبره زادت القوة الى ان تصل الى الدرجة النهائية وهكذا الغازات

قال الشيخ فاذا وصل البخار الى هذه القوة النهائية فصغرنا حجمه بتضييق محله بعد ذلك فهل تزيد تلك القوة

قال الانكليزي متى وصلت القوة الى تلك الدرجة فلا تتجاوزها بل تثبت عليها ولا تزيد عنها وإنما اذا صغرنا الحجم بعد ذلك استحال جزء من البخار الموجود الى ماء فلو كبرنا الحجم بعد ذلك عاد ثانياً ذلك الماء بخاراً كما كان

قال الشيخ قد بنيت ما ذكرته على كون المحل المحبوس فيه البخار ليس فيه ماء فهل تتغير تلك الحالة اذا كان فيه ماء

قال الانكليزي لا تتغير القوة النهائية بوجود الماء وإنما اذا استحال جميع الماء الموجود بخاراً فعند ذلك تزيد القوة بتقل الحجم وتنقص بزيادة الغازات

وقد وقف اهل الفن بتجارب عديدة على تعيين القوة النهائية لبخار الماء المقابل لدرجات الحرارة من الصفر الى مائتين

وفي هذه الحالة يكون الضغط على الماء حاصلًا من البخار والهواء المذكورين معًا فإذا كان الاناء الذي فيه الماء وتحت النار مكشوفًا لا يصل البخار الى قوته النهائية اصلاً فانه كلما تولد منه مقدار اتشر في الجو واخيلط بالهواء الموجود فيه فلا يبقى مقدار منه مجتمعا في محل واحد محفوظاً به حتى يصل الى القوة المذكورة ثم كلما تحلل من الماء بخار وانتشر في الجو نقص بقدره من الماء الى ان لا يبقى في الاناء شيء ويشاهد في اثناء ذلك ان سرعة تولد البخار تزداد على حسب ازدياد الحرارة فتمت وصلت الحرارة المذكورة الى حد تكون فيه قوة البخار الحاصل عنها قدر ضغط الجوى بقدر ضغط الهواء الجوى كانت سرعة تحلل البخار اعظم ما يكون لان البخار حينئذ لا يعارضه ممانعة من جهة الجو فينفذ فيه بغير عسر ويشاهد في الماء فقاع تعلو على وجهه وهذه الحالة هي ما يعرف بحالة الفوران او الغليان ومن هذا يفهم ان حالة الفوران للماء تحصل اذا كانت القوة النهائية للبخار المتبالة لدرجة الحرارة ليست اقل من قوة الضغط الواقع على سطح الماء سواء كان هذا الضغط من الهواء او من البخار او منهما معاً وقد علم ايضاً ان البخار كلما اتشر وتفرقت اجزائه وتخلل بسبب اتساع المحل الموجود فيه ضعفت قوته وكما انكس وانضم الى بعضه لضيق محله زادت قوته الى ان تصل الى القوة النهائية فاذا وضعنا مقداراً من البخار في اناء ليس به ماء ورأينا قوته اقل من القوة

قبل وبارتداد البخار تزداد قوة تمدده حتى تصل الى حد معين بينه وبين درجة حرارة الماء نسبة معلومة فعند ذلك تثبت قوة البخار على ذلك الحد ولا تتجاوزه ويتقطع تولد بخار جديد من الماء وهذا الحد الذي ذكرناه يسمى القوة النهائية للبخار عند اهل الفن ويقال حينئذٍ للفراغ المنخس فيه البخار انه تشبع

قال الشيخ قد قلت في كلامك ان البخار يصعد الى ذلك المحل الفارغ من الماء سواء كان فراغاً محضاً او كان فيه شيء من الهواء الجوي وقد قيل في وجود الخلاء المحض وعدمه كلام كثير وخلاف طويل مذكور في المواقف وغيرها ليس هذا محله ولكن اريد ان اعرف هل وجود هذا الهواء له فعل واثر في القوة النهائية المذكورة ام لا

قال الانكليزي ليس لذلك الهواء اثر في القوة المذكورة وإنما يضعف سرعة تحلل البخار ويجعله بطيئاً فاذا كان ذلك المحل الخالي من الماء فراغاً من الهواء الجوّي فلا يجد البخار ما يزاحمه ويصادمه فيتحلل بسرعة شديدة حتى يصل الى قوته النهائية في مدة قليلة بخلاف ما اذا كان به شيء من الهواء فان سرعة تحلل البخار تكون اقل من المحالة الاولى لان الهواء المذكور يضغط على وجه الماء فاذا تحلل البخار وطلب الارتفاع الى الاعلى وجد الهواء المذكور معارضاً له فيدافعه ويعالجه حتى يتخلله ويدخل بين اجزائه فيتأخر بهذا السبب

وبعد هذا اذا عرفت لغتنا وتعلمت رغبتك بالتبخر فيه والتوسع
في معرفته فالامر اليك

قال الشيخ قد سررتني سررك الله بما يجعل فيه اسعادك
وكافاك على ما وجهت اليه فوادك فارشدني عما سالت عنه
تولى الله ارشادك

قال الانكليزي انما تحرك تلك الآلة بالنار بواسطة قوة
بخار تحلله حرارة النار من ماء موضوع في اناء محكم ينفذ منه
البخار في منافذ معلومة الى الات مخصوصة فيحركها

قال الشيخ نعم اعلم ان الحرارة اذا سخنت الماء حلت منه
اجزاء تكون بخاراً فترتفع منه وتختلط بالهواء وينقص بقدرها
من الماء كما يشاهد عند غليان القدر وكما يعلم من تخفيف الثوب
في الشمس فان حرارة الشمس تحلل منه الاجزاء المائية فترتفع في
الهواء ويبقى الثوب جافاً ولكني اريد زيادة الشرح والايضاح

قال الانكليزي من المعلوم ايضاً انه اذا وضع مقدار من
الماء في اناء محكم الغطاء من كل طرف بحيث لا يكون فيه
منفذ وكان فيه جزء فارغ من الماء واوقد تحته النار تصاعد البخار
المتحلل من الماء بجمرة النار الى ذلك الفراغ الذي في اعلى الاناء
سواء كان فراغاً محضاً اي ليس فيه شيء من الهواء الجوي او
كان فيه مقدار من الهواء المذكور فاذا استمرت النار تحت ذلك
الاناء فلا يزال يتجدد بخار يتحلل من الماء ويختلط بالموجود منه من

وتفقد امرها في تلك الباخرة ولكني لم اعرف صورة استعمالها في
 هذه الحالة وكيفية الانتفاع بها في تحريك تلك الآلة فانا اجيل
 في هذا الامر العظيم قدّاح التخمين واراني لا اصل في علم حقيقته
 الى محجة اليقين فاني ما رايت ولا اشتغلت به قبل هذه المرة بسبب
 اشتغالي بعلوم اللغة العربية واحكام الشريعة المطهرة وكان قد
 خطر لي ان اوجه السؤال في ذلك اليك لعلي اجد علمه لديك
 ولكن خشيت ان اتعب خاطرک وما اريد ان اشق عليك

فقال الانكليزي اخبرك اولاً ايها الاستاذ ان لطفك وكرم
 اخلاقك وحسن معاملتك لي مع عظم فضلك ورفعة قدرك
 قد جعل في قلبي لك منزلة عالية ومحبة عظيمة تجعلني ابتهج
 بقضاء ما تريده والقيام بما تأمر به من غير ان اجد بنفسي ادنى
 حرج حتى لو كلفتنني بما فيه مشقة في نفس الامر فارجوك الا
 تكتم عني امراً تريده ولا تحشم من شيء تسأل عنه لانك على
 سفر قد كلفتك به الى بلاد لا تعرفها ولا تعرف اهلها فانا اريد
 راحتك وانسراح خاطرک ففي ذلك سروري وراحتي وهذا الذي
 سالت عنه ليس في بيانه مشقة علي ولا كلفة وانا وان كنت
 لم اشتغل بهذا صناعة الا اني عاشرت المشتغلين به وقرات بعض
 الكتب المصنفة فيه وصار لي به معرفة كافية لامثالي وهو فن
 واسع وفيه كتب كثيرة مطولة ولكني احكي لك منه على سبيل
 الاجمال والتلخيص ما لا يمل سماعه لتقطع به مسافة الطريق

يزعجه الحال لعدم اعتياده إلا أنه تأسى بوالده وغيره وتفرس فيه
 أبوه الخوف فزال رعبه وسكن قلبه وقعدا ينظران فيما يليهما من
 الشبابيك إلى ما يمران به من الجهات متفكرين في عجائب الكائنات
 والانكليزي ينظر اليهما فاراد أن يعلم ما لديهما وقد عرف أنها أول
 مرة فيها ركبا سكة الحديد ورايا هذا الاثر الباهر والاختراع الجديد
 فقال للشيخ ايها الأستاذ كيف ترى . قال وماذا أرى أرى أن
 الأرض تطوى كطي السجل للكتاب وهذه العربات بما عليها كما
 قال الله وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب وهذا
 الدخان قد أنتشر في الجو كالسحاب اذا انفطرت وتطير الشرر في
 الهواء كالنجوم اذا انتثرت وكثر الزحام كالمخلائق اذا حشرت وقد
 فتشت أوراق المسافرين كالصحف اذا نشرت فتذكرت بهذه
 الأحوال أهوال القيامة فنسأل الله في الدنيا والآخرة حسن
 السلامة قال ففما تفكر

قال الشيخ اتفكر في هذه الباخرة المجارة لهذه العربات واتامل
 فيما لها من الحركة العجيبة وشدة السرعة الغربية التي حملت
 الأغرار من بعض العامة على أن يقولوا انها انما تسير بقوة جماعة
 من الجن والشياطين مسخرين لها بواسطة العزائم والسحر والطلاسم
 وامثال ذلك مما حملهم عليه غرابة الامر وعدم علمهم بحقيقة السر
 وقد عرفت انها تسير بواسطة النار التي أرى كثرة دخانها وافواج
 شررها المتطايرة ورأيت قبيل ركوبنا رجلاً مشتغلاً باضرامها

المسامرة السابعة
سكة الحديد.

فلما وصلوا المحطة جلسوا برهة ثم ان الانكليزي اخذ الورق المعتاد بعد ان دفع الاجرة المقررة للسفر من مصر الى الاسكندرية في سكة الحديد ولم يكن سبق للشيخ ولا لابنه فيها سفر فلما دق الجرس اول مرة قال الشيخ ما هذا وما المراد به . قال الانكليزي هذا يدق ثلاث مرات للتنبيه على قرب وقت المسير ليستعد كل من اراد وياخذ محله حيث يريد ان يجلس وبعد الثالثة يبسير يكون المسير ثم استصحب الشيخ وابنه ونزل بهما في عربة من عربات الدرجة الاولى فجلسوا فيها ينظرون من طاقاتها الى ان سارت فلما اتشد السير وزادت السرعة اضطرب قلب الشيخ بعض اضطراب وداخله شيء من الخوف لكونه لم يسبق له بذلك عادة كما قدمنا الا انه كان قد سمع بها وراى معه غيره من الناس غير منزعين فعلم انها حالة معتادة فزال روعه وسكن قلبه وجلس مطمئنا معتمدا على خالق الورى و اشار للعربة يقول
سيرى على اسم الله واسم الذي

علامة الايمان ان يذكر
وكذلك برهان الدين ابن علم الدين في اول الامر كاد

اللطيف والادب والكمال فظابت الصحة وزادت المحبة وتمكنت
الالفة وارتفعت الكلفة وصار كل منها يكثر التردد على الآخر
ويسال عنه اذا غاب ويأس به اذا حضر وفي اثناء ذلك كان
الشيخ يستعد للسفر ويتدارك ما يلزم له ولولده ليسافر معه حسبما
اتفقا عليه الى ان قال له الانكليزي قد عزمنا على السفر في اليوم
الفلاني فارجوك ان تشرف داري صبح ذلك اليوم في الساعة
الفلانية وليكن معك ولدك الذي تريد ان يكون معك حسبما
اتفقنا عليه تجديني في انتظاركما لنسير معاً فوعده الشيخ بذلك وعاد
بالخبر الى زوجته

فقال له على بركة الله تعالى وفي حفظه ورعايته ودعت له
بالسلامة والعز والكرامة والعود اليها بالصحة والعافية والراحة
والرفاهية واكدت عليه في عدم انقطاع مكاتباته عنها ومكاتبات
ولده فوعدها بذلك ولما كان اليوم الموعد ودعها وودع بقية
اولاده واخواته ووصاهم بتقوى الله والاعتماد عليه في كل امر وقرأ
(والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين امنوا وعملوا الصالحات
وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ثم اخذ ولده الاكبر معه وكان
اسمه برهان الدين فمضى به في الساعة المعينة الى دار الانكليزي
فوجده في انتظارها فسلم هو وولده عليه ثم توجهوا جميعاً الى محطة
سكة الحديد

يوم في وقت معين فاذا سافرت كان معي فان شاء تردد عليّ
 في اوقات معينة كحالنا بمصر وان شاء لازمني ولازمته ليلاً ونهاراً
 حيث كان لا يعرف هناك احداً غيري وفي اوقات اجتماعنا يصحح
 كتاب لسان العرب معي واقرأ عليه شيئاً من العلوم العربية
 وله عليّ في نظير ذلك مدة اقامتنا بمصر عشرون جنيناً انكليزياً
 وفي امدّة السفر اجعل له ضعف ذلك وهذا ما عدا مصاريف
 التنقلات والسكنى والمؤنّة فكلها عليّ لا يلزمه منها شيء وقد
 قرب وقت سفرنا فان الصيف قد حان وانه فليتمها له فارتضى
 الشيخ بذلك وطابت نفسه به غير انه طلب ان يكون معه ابنه
 في السفر فرضي الانكليزي وقال لا بأس بذلك وعليّ مؤنّته
 ايضاً ففرح الشيخ علم الدين وقرّر ناظره وسرّ الانكليزي ايضاً
 وطاب خاطره وانتقا على ذلك وكتبا بينهما المكاتبة اللازمة وشكر
 الشيخ علم الدين حضرة شيخ الجامع وقبل يده واظنّب في الثناء
 عليه وانشده

واحيت لي ذكري وما كان خاملاً

ولكنّ بعض الذكر أنه من بعض

ثم قام مع الانكليزي وتوجه به الى داره ليعرفها وانتقا على
 تعيين الوقت فصار الشيخ يتردد عليه كل يوم في الوقت المعين
 يقيم معه مدة من النهار في تصحيح الكتاب وقرآه بعض العلوم
 العربية والمحادثة فيما تستدعيه المناسبة وما ينساق اليه الكلام مع

وإفاضله وإن اللطف أخص خصائله والبراعة بعض شمائله
 والبلاغة طوع لسانه وإنامله والعلوم العربية نصب ناظر والفنون
 الأدبية رهن خاطر وإنه بين العلماء مرفوع المكانة معروف
 بالصدق والاستقامة والأمانة لم يسمع فيه قدح قادح ولا يبلغ ما
 فيه مدح مادح وقال للانكليزي استوصي به لأجل خاطري
 ولما يستحقه وكل ما وصفته به سيظهر إن شاء الله صدقه وهلم
 ما تريد ليقرر ويضبط بالكتابة ويجرر

فقال الانكليزي أما أكرام حضرة الشيخ فعلى العين والرأس
 وله عندي كل ما يسره ويرضيه ويحمله على الرغبة في دوام
 صحبتي وأما ما وصفتم به حضرته فهو أهله ومحله فإني قبل أن
 اجتمع به ما ذكرته لأحد إلا اثني عليه غاية الثناء ومدحه باحسن
 أنواع المدح فلما اجتمعت به بعض مرات يسيرة ظهر لي فضله
 وبراعته وجلالة قدره وإن كانت معرفتي بالعلوم العربية قليلة
 فإن القليل يدل على الكثير والقدم يدل على المسير وأنا كنت
 قد اقممت في بعض بلاد المغرب نحو أربع سنين تعلمت فيها
 طرفاً من العلوم العربية ثم حضرت إلى هذه الديار المصرية
 وإن أكثر اقامتي في القاهرة والاسكندرية إلا أنني في كل سنة
 أتوجه إلى بلادي أو غيرها من البلاد الأوروبية أقضي فيها زمن
 الصيف بسبب شدة الحرارة فيه في أرض مصر وأرغب أن يصحبي
 الشيخ في السفر والإقامة ففي مدة اقامتي بمصر يتردد علي كل

شوق تؤدي الى انتشار الافكار وكثرة التذكار فيكون بين المتحابين حبل ودم متصل لا يقطعه بعد وعنوان ذلك هو المكتابة فعلاصة القطيعة من الصديق ان يؤخر الجواب ولا يتدني بكتاب واوّد ان لا ترى في هذا كله غير ما ارى فافضل الرأي ما لم يفوت فرصة ولم يورث غصة فاخلس الدهر اخلاصاً فظالماً سرّاً ثم اسأ الى غير ذلك من المرغبات ثم قالت له اني ارى ان تستحب اكبر اولادك لتكون تربيتة على يدك ويشاهد البلاد التي تقصدونها وتمرون بها ويكون تحت نظرك فتحسن اديه فقد قيل من ادب ولده صغيراً سرّاً به كبيراً وربما تحتاج اليه في بعض امورك ولكن هذا انما يكون برأي صاحبك ورضاه فاعرضه عليه وانظر ما يراه فسمع ذلك منها وقبله وباتا ليلتها يتجادبان أهذاب المحادثة والنظر في اطراف هذه المحادثة الى ان ادبر الليل واقبل النهار فقام ومضى لموعده الانكليزي فوجده في الانتظار فاخبره بانه رضي ببلازمته وصحبته فسراً بذلك لما كان اشرب قلبه من محبته ثم مضيا الى حضرة شيخ الجامع ليعرض الأمر عليه ويبرما الشروط بينهما على يديه فمثلا عنده وقبله يده واخبراه بما دار بينهما اولاً وآخرًا من الكلام وانها يريدان اتمام الشروط على يديه لهذا المرام

فقال لا بأس ولا ضير والله يقضي بكل خير ثم اثنى على الشيخ علم الدين بحسن فضائله وعرفه بانه من اكابر علماء الزمان

فبحسن الخلق تدوم المودة وبسوء الخلق تكون المباغضة
 والمباغدة فقل ما يرجح زنتك وافعل ما يجلب قيمتك فمن قوم
 لسانه زان عقله ومن سدّد كلامه ابان فضله كما هو معلوم
 لديك ولا يخفى عليك فاعنم صفو الزمان وانتهر فرصة الامكان
 وان وجدت الخيرة في قصرها فافعل ما يوصلك الى الخلوص
 من ضررها لكن يكون ذلك باللفظ والمعروف والظرف لا
 بالشدة والعسف فقد يدرك باللفظ ما لا يدرك بالعنف وكل
 ذلك لا يعلم الاّ عند الاجتماع ولا عبرة بما يؤخذ بالظن والسمع
 لان الحب كما علمت حالة للنفس تتبعث عند مشاهدة المطلوب
 وتضعف عند فوات الامر المرغوب لا سيما اذا وقع بين المتحابين
 ما يجلب بمقام المحبة من قول او فعل ولو من احد المتحابين وربما
 أدّى الى بغض وعداوة واما ما يكون من امر الفراق فهذا علينا
 جميعاً شيء شاق لكن كما يقال الضرورات تبيح المحظورات واذا
 نظرنا لما يترتب عليه من المنافع فلا محذور فيه ولا مانع اذ ركوب
 الاهوال افضل من ذل السؤال والصبر درج يفضي بمن درج
 الى الفرج ومتى كانت مكاتبنا متصلة والاخبار بيننا متواصلة
 دامت المحادثة واستمرت وحلت عيشتنا بعد ما مرت وإطلع كل
 منا على ما في ضمير صاحبه وبذلك يحصل الاطمئنان ويستريح
 الخاطر وينشرح الجنان فقد قالوا ان المراسلة نصف المواصلة
 ولا يخفى عليك ان البعد حالة تجدد في نفس المتحابين زيادة

دار في سره وسالها عما تراه

فقات اذا عزمت فتوكل على الله

ليس ارتحالك في كسب الغنى سفرا

لكن مقامك في ضرر هو السفر

فقال لها اذا قبلت ما اشترطه هذا الرجل من السفر معه

الى بلده والى ابي بلد اراد فقد تطول مدة السفر ويمتد امد

الفراق فهل يلزم تعيين المدة ام لا

فقات ارى ان تعيينها وعدمه على حد سوا وربما كان

عدم تحديدها اولى لانه متى حصل على ما يرغبه منك كانت

اقامتك معه في بلده او في غيرها موكولة لرأيك وارادتك فان

كتبا مدة الاجتماع على طبع حسن وخلق جميل مستحسن وفعلت

ما يجذب قلبه اليك ازداد حبه لك ورغب في طول عشتك

واجتهد في نفعك فطول المدة وقصرها يتبع ما يقع بينكما في

مدة العمل من القول والفعل فان وجدت في الاقامة معه

خيراً فافعل ما تطول به المدة من تشويقه للعلم والاجتهاد

في تعليمه والصنع عن زلاته والاغضاء عما عساه ان يقع من هفواته

اذا كنت في كل الامور معاتباً

صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فمن ذا الذي ترضي سبحانه كلها

كفى المرء نبلاً ان تعد معاتبه

سر صنع الخالق زاد في تعظيمه وتقرّب اليه بالطاعة والامتثال
 لاوامر ونواهيه واستمسك بحبال حبه ومراضيه اذ كلما انكشف
 الغطاء وزالت ظلمة الجهل انكشفت الأسرار المودعة في الاشياء
 فيزيد تعظيم مودعها والاجتهاد في التقرب الى مبدعها فمن سافر
 واطلع على احوال غير بلاده كمن عاش زيادة على عمه لانه
 يعلم بالاسفار اضعاف ما يعلمه بالاقامة او بمطالعة الاخبار كما
 قالوا مثل ذلك فمن طالع كتب اخبار البلاد واحوال اهلها
 فهذا أولى لان علمه بالمشاهدة والنظر وذلك علمه بالسمع والخبر
 واما ما ذكرتم من حبّ الوطن فليس حبه خاصاً بملازمته وعدم
 مفارقتة وليس المقام به دليلاً على حبه ولا الرحيل عنه دليلاً
 على بغضه فكم من مقيم ببلدة وهو لها كاره وراجل عنها وهو لها
 محب ومن احب الوطن حقيقة سعى في نفعه ونفع اهله بما امكنه
 سفراً او حضراً وقد شرحت لكم بعض ما اراه في السفر من
 الفوائد الجميلة والمزايا الجليلة وفي علمكم كثير مما وقع للانبياء
 والمرسلين والصحابة والتابعين والأولياء والصالحين من التنقلات
 والاسفار في القرى والامصار وما جاء في القرآن والاخبار من
 الحث على السير في الارض للنظر والاعتبار فكفوا عن الملامة والله
 الامر في السفر والاقامة فلما سمعوا كلامه وعلموا مرامه قطعوا
 املهم من تحويله عن قصده وانصرفوا من عنده فقام من وقته
 ومضى الى بيته فدخل على زوجته وحكى لها ما صار من امره وما

وكما يكون التعب او المرض في السفر يكون في الاقامة
والحضر ومن يموت بعيداً عن بلده كمن يموت بين أهله وولده
فجميع ارض الله جعلت لخلقه ورحمته وسعت كل شيء لا
تخص بلداً دون بلد ولا بقعة دون اخرى بل ينبغي لكل حافل
ان يطوف ما استطاع من البقاع ليرى ما لاهلها من الاحوال
والعادات وما يترتب على كل حالة وعادة من المصائر والفوائد
ويقارن بينها وبين ما هو جار في بلاده وبين اهل وطنه
وينبهم على ما رأى نفعه وما علم ضرره فاذا رأى اهل جهة من
الجهات اعظم ثروة وقوة وراحة نظر بعين التامل في منابع ثروتهم
وموارد راحتهم وقوتهم فعرف بها اهل وطنه واذا رأى اهل
صنع من الارض بعكس ذلك اجتهد في معرفة اسبابه بالنظر
والتامل والمقارنة بين احوال ذلك الصنع وغيره حتى اذا علمها
وتحققها حذر منها اهل بلاده بقدر اجتهاده ويكون اذا اخبر بشيء
من ذلك مخبراً عن عيان ويقين لا عن سماع وتخمين فيحصل
بذلك على فوائد جلييلة منها زيادة علمه ومنها انتفاع غيره بما
يعلمه ومنها ما يكتسبه من المال ومنها وهو اعظمها رضا ربه
ومزيد ثوابه بنفعه لعباده وأحب عباد الله الى الله انفعهم لعباده
وكذلك باتعاظه باحوال الناس واعتباره بامورهم واطلاعه في
سياحه على الاسرار المكنونة والقوانين المدبرة المصونة التي دبر
الله بها امر المخلوقات واحكم بها صنع الكائنات فمن وقف على

سافر تجرد عوضاً من تفارقه
وانصب فان اكتساب المجد في النصب
فالاسد لولا فراق الغاب ما افترست

والسهم لولا فراق القوس لم يصب
لا سيما اذا كان اكتساب الانسان في اقامته غير كافٍ
للوازم معيشته فانه يترحم في حقه السفر على الاقامة اذا كان
فيه رجاء الغنى والكرامة فالسفر مع العز والغنى حضر والمحضر
مع القلة والذلة سفر قال الزبيدي

الفقر في اوطاننا غربة * والمال في الغربة اوطان
والارض شيء كلها واحد * والناس اخوان وجيران
ولا ينال المني الا بالغنى ولا الراحة الا بالتعب ولا تدرك
معاني الاحوال بمجرد الاماني والامال بل باقتحام الاخطار
وركوب الاهوال ويرحم الله ابا الطيب حيث قال
تريدون ادراك المعالي رخيصة

ولا بدّ دون الشهد من أبر النخل
وأيضاً المسافر في حفظ الله وكفه اذا كان متوكلاً عليه
ومفوضاً اموره اليه طارحاً نفسه بين يدي قدرته فهو ارف به
من نفسه

الله اكبر من ان تستعدّ له * بعدة او ترجي دونه سببا
اذا اصطفاك لامر هيئتك له * يد العناية حتى تبلغ الاربا

الشريف من علم لسان قوم أمن من مكرهم وقد جاء ان النبي
 صلى الله عليه وسلم امر كاتبه زيد بن ثابت بتعلم اللغة السريانية
 فتعلم قراءتها وكتابتها وجاء (المحكمة ضالة المؤمن فليأخذها
 حيث وجدها) وجاء (اطلبوا العلم ولو بالصين) ومعلوم ان اهل
 الصين كفار وامثال ذلك كثيرة وفوائد تعلمنا للغة هؤلاء
 القوم لا تنكر فانا بذلك يتيسر لنا الوصول الى ما وصلوا اليه
 من الفنون والصنائع الكثيرة المنافع وذلك لاننا بواسطة معرفة
 لغتهم يتأتى لنا التكلم معهم واستطلاع ما عندهم والوقوف على ما
 لهم في تلك الفنون والصنائع من الكتب والرسائل العديدة ثم
 نختار منها ما نراه نافعاً لبلادنا ولازماً لنا ولا بأس علينا في
 ذلك فقد جاء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اخبره سلمان
 الفارسي بان قومه وقد كانوا مجوساً يصطنعون الخنادق في بلادهم
 امر بعمل الخندق في الغزوة المعروفة به وعمل فيه بنفسه صلى
 الله عليه وسلم فلا يحسن بنا اذا رأينا عندهم امرأ نافعاً ان نتركه
 لمخالفتهم لنا في الدين بل نتفع به وما علمنا من دينهم فلذا ديننا
 ولهم دينهم واما ما يترتب على السفر من مفارقة الاهل والوطن
 ومكابدة الاهوال والمشقات فلا يعد مانعاً منه بالنسبة لما فيه من
 الفوائد التي ذكرها العلماء والبلغاء في كل عصر مما لا يدخل
 تحت حصر . قال الشاعر

ما بعد هذه الآية من قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم
 يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرؤم وتسقطوا اليهم
 ان الله يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوك في الدين
 واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم
 فاولئك هم الظالمون) وهذا الرجل وقومه لم يقاتلونا في الدين
 ولا اخرجونا من ديارنا ولا ظاهروا على اخراجنا بل حالفونا
 وعاهدونا ونصرونا على اعدائنا كما هو معلوم مشهور وسبب نزول
 قوله تعالى لا ينهاكم الله . الخ . كما روي عن عبد الله ابن الزبير
 ان اسماء بنت ابي بكر قدمت امها قتيبة عليها وهي مشركة فلم تقبلها
 ولم تاذن لها بالدخول فامرها النبي ان تدخلها وتقبل منها وتكرمها
 وتحسن اليها وفي تفسير الرازي قال اهل التأويل هذه الآية تدل
 على جواز البر بين المسلمين والمشركين وان كانت الموالاة منقطعة
 (انتهى) وقد سئل الحافظ جلال الدين السيوطي في جملة اسئلة
 وردت عليه من بلاد التكرور هل يجوز صحبة الكفار وتقبل
 هديتهم فاجاب بجواز ذلك وقد استوصف رسول الله صلى الله
 عليه وسلم الحارث ابن كلدة طيب العرب دواء فوصفه له وكان
 الحارث كافراً ومات على كفره كما نقل عن الاستيعاب لابن عبد
 البر واذا تقرر هذا قلت انكم لا وجه لكم في توجيه الملامة اليّ على
 الاجتماع بهذا الرجل وتعليه بل اقول فضلاً عن ذلك لا باس
 بتعلم لسان هؤلاء القوم وغيرهم وان كانوا على غير ديننا ففي الحديث

الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها عليه السلام امسلمة جئت
 قالت لا قال امهاجرة قالت لا قال فما جاء بك قالت قد ذهب
 الموالي يوم بدر اي قتلوا في ذلك اليوم فاحتجت حاجة شديدة
 فحث عليها بني المطلب فكسوها وحملوها وزودوها فانها حاطب
 واعطاها عشرة دنانير وكساها برداء واستعملها ذلك الكتاب الى
 مكة فخرجت سائرة فاطلع الله الرسول عليه السلام على ذلك
 فبعث علياً وعمرو عماراً وطلحة والزبير خلفها وهم فرسان فادركوها
 وسالوا عن ذلك فانكرت وحلفت فقال علي رضي الله عنه والله
 ما كذبنا ولا كذب رسول الله وسل سيفه فاخرجت الكتاب
 من عقاص شعرها فجاءوا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
 فعرضه على حاطب فاعترف وقال ان لي بمكة اهلاً ومالاً فاردت
 ان اتقرب منهم وقد علمت ان الله تعالى ينزل بأسه عليهم
 فصدقه وقبل عذره فقال عمر دعني يا رسول الله اضرب عنق
 هذا المنافق فقال صلى الله عليه وسلم ما يدريك يا عمر لعل الله
 تعالى قد اطلع على اهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم
 ففاضت عينا عمر وقال الله ورسوله اعلم فنزلت ويؤخذ من هذا
 دليل لما نحن فيه وهو ان سارة هذه لما جاءت الى النبي صلى الله
 عليه وسلم ولم تكن مسلمة ولا مهاجرة امر باكرامها وحث عليها من
 كسوها وحملوها وزودوها ويعلم من سياق الحكاية ان المنهي عنهم
 في الآية المحاربون للمسلمين لا كل من خالف دينهم كما يدل عليه

والمتصود من هذا الكلام بيان ان الكافر اذا جاء طالباً للحجة
 والدليل او جاء طالباً لاستماع القرآن فانه يجب امهاله ويحرم
 قتله ويجب ايصاله الى مأمنه ودل هذا على ان النظر في دين
 الله اعلى المقامات واعلى الدرجات فان الكافر المحارب الذي
 صار دمه مهديراً لما اظهر من نفسه كونه طالباً للنظر والاستدلال
 زال ذلك الاهدار ووجب على الرسول ان يبلغه مأمنه ثم قال
 المذكور في هذه الاية كونه طالباً لسماع القرآن فنقول ويلحق به
 كونه طالباً لسماع الدلائل وكونه طالباً للجواب عن الشبهات
 والدليل عليه ان الله تعالى علل وجوب تلك الاجارة بكونه
 غير عالم لانه قال (ذلك بانهم قوم لا يعلمون) وكان المعنى
 فأجره لكونه طالباً للعلم مسترشداً للحق وكل من حصلت فيه هذه
 العلة وجبت اجارته (انتهى) وهذا كاف في جواب ما عرضتم به
 من الاعتراض على تعليقه واما الطمع في المال فالله سبحانه العليم
 بحقايق الاحوال المطلع على نيات القلوب وخفيات الغيوب على
 ان الحالة محرجة والعيشة محوجة وما ابرى نفسي ان النفس لامارة
 بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم واما قوله تعالى يا ايها
 الذين امنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء الى اخر الاية فقد
 نزلت في حاطب ابن ابي بلتعنة لما كتب الى اهل مكة ان رسول
 الله صلى الله عليه وسلم يتجهز للفتح فتحذوا حذرکم ثم ارسل ذلك
 الكتاب مع امرأة مولاة لبني هاشم يقال لها سارة كانت قد جاءت

علي غيره فيسلم . فان لم يسلم وبقي علي دينه كان في بلادته وابناء
 وطنه كالوكيل عنا يدافع عن ديننا برد الاقاويل التي
 يلتقيها بعض علماءهم في حقنا وانا قد احسست في هذا
 الرجل رغبة النظر في الادلة والاصغاء الى الحججة والطلب للعلم
 فلا ارى في تعليم مثله بأسا وقد قال الله سبحانه في سورة التوبة
 (وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم
 ابلغه ما آمنه ذلك بانهم قوم لا يعلمون) وقد نزلت في المشركين
 الذين تقضوا العهد فنبد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم
 عهدهم وامر بقتالهم فقد روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
 لما خرج الى غزوة تبوك وتخلف المنافقون وارجعوا بالاراجيف
 جعل المشركون يتقصون العهد فنبد اليهم عهدهم وهذا الرجل
 الذي نتكلم فيه من جملة المعاهدين لنا الذين لم نعهد تقضهم لعهدنا
 فليس بمثابة اولئك المحاربين من المشركين ومع ذلك فقد جاز بمقتضى
 هذه الاية الشريفة اسماعهم كلام الله عز وجل وهو منيع العلم
 والدين قال الامام فخر الدين الرازي علي هذه الاية في تفسيره
 الكبير نقل عن ابن عباس رضي الله عنه ان رجلاً من
 المشركين قال لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه
 اذا اردنا ان ناتي الرسول بعد انتضاء هذا الاجل لسمع كلام الله
 او لحاجة اخرى فهل نقتل فقال علي لا ان الله تعالى قال (وان
 احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله) قال

اولياء تلغون اليهم بالموءة) الى قوله (ومن يفعله منكم فقد ضل
سواء السبيل) ثم لا يخفى عليك ما في مفارقة الامل والاطمان
وما جاء من ان حب الوطن من الايمان ولا ينكر ما في ركوب
البحر من الخوف والخطر وما جاء من ان السفر قطعة من العذاب
او العذاب قطعة من السفر ويقال الغربية كربة والنقلة مثله لا
سما لذي قلة

ان الغريب الطويل الذيل ممتهن

فكيف حال غريب ماله مال

وقالوا عسرك في بلدتك خير من يسرك في غربتك

لقرب الدار في الاقتار خير * من العيش الموسع في اغتراب
فقال الشيخ علم الدين اما الخدمة فليس مراد هذا الرجل ان
اخدمه وانما هو تصحيح كتاب يعم المسلمين نفعه اذا كان يتم طبعه
فان كثيراً من الناس انا من جملتهم يتمنون ان يحصلوه ولا يتيسر
لم ان ينالوه بسبب كبره واحياج استكنا به الى مدة كثيرة ونفقة
غير يسيرة فاذا طبع كثر تداوله وتيسر تناوله فانا انما اخدم العلم
والعلماء بذلك والاعمال بالنيات والله سبحانه مطلع على السرائر
واذا علمت الرجل شيئاً من العلم فليس المعلم كالخادم فان من
شان المعلمين التكرم والتوقير ومن شان الخادمين الاهانة
والتحقير وليسوا سواء وربما كان في تعليم العلم لمن لم يكن على
ديننا فائدة فقد يقف على حقائق ديننا فيحبه ويميل اليه ويرحمه

مأمورون في ديننا بالاستشارة في أمورنا

فقال له الإنكليزي لك ذلك وسترى مني ان رغبت في
صحتي كل ما يسرك ويرضيك ويعجبك وموعدنا الغد في هذا
المكان وفي مثل هذا الآن ثم قام وتركه فجلس الشيخ علم الدين
يفكر في نفسه ويضرب اخماساً لأسداس ويشاور من يثق برأيه
ومحبته له من الناس فترجح عنده موافقة الرجل على طلبته
وواقفه على ذلك من استشاره من احبته وفي خلال ذلك أحس
برغبته بعض طلبته وكانوا يحبون ان لا يفارقهم لكثرة افادته
لم وترددهم عليه ورجوعهم في حل ما اشكل عليهم من المسائل
اليه فارادوا ان يحولوا رأيه ويصرفوا عن هذا الامر نظراً واجمعوا
رايهم على ان يبذل كل منهم غاية جهده في منعه وصدده عما هو
بصدده فاجتمعوا اليه وجلسوا حوالبه وقالوا أدام الله ايها
الاستاذ تمكينك وحرس دنياك ودينك قد سمعنا من بعض
الناس ان هذا الرجل الإنكليزي قد استمالك الى موافقته على
مراده ومرافقته الى بلاده وغير بلاده فاعظمتنا ذلك واكبرناه ورددناه
وانكرناه وقلنا حاشا لله ان يخطر لسيدنا الشيخ ببال او يتصور
له في خيال ان يرضى بخدمة رجل على غير دينه يعلمه علوم
الشريعة طمعاً في المال او في حال من الاحوال لما نعلمه من زهدك
وورعك واستقامة رأيك وسلامة طبيعتك وقد علمت قول الله
سبحانه في التنزيل (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم

ولوازم سفره حتى يرجع الى مصر فذكر له الشيخ جماعة من افاضل
العلماء المتفنين المعروفين بجدة الذهن وجودة الفهم والتمكن في
الدين والعلم ودله عليهم وقال له اجتمع بهم وتكلم معهم واسترهم
بما امكن فمن رضي منهم ففيه الكفاية وزيادة فاجتمع الانكليزي
بعضهم وتكلم الشيخ ايضا مع بعضهم فما سمع ذلك احد منهم الا
امتنع واعذر خصوصا حين يسمع بالسفر فمنهم من اعذر بكبر
سنه وضعف بدنه ومنهم من قال انه لا يطيق مفارقة اهله
ووطنه ومنهم من رأى ذلك لا يجوز في الدين بظنه وكان
الشيخ علم الدين في جملة من ذكرهم الاستاذ شيخ الجامع الازهر
للرجل الانكليزي فسأل عنه واجتمع به في مجالس متعددة
فراى منه ما اعجبه وجذب قلبه من سعة اطلاعه وحضور ذهنه
وجودة قريحته وحسن اخلاقه وكرم طبعه فشغف بحبته ورغب
كل الرغبة في صحبته وكله ذات يوم في ذلك ورغبه في
موافقته على قصده وكان علم الدين في اجتماعاته مع الرجل قد
راه مهذب الاخلاق حسن الصحبة سخيا الطبع يتودد للمسلمين
ويظهر ميله اليهم وتمنيه الخير لهم ومحبة العرب ولسانهم وعلومهم
فانس به ولم ينفر من صحبته فلما كلمه في ذلك قال اني اجد
نفسي لا تأبى ما ذكرته ولكن اهلي الى الغد حتى اتفكر في
نفسي فان الراي اذا لم يبيت ويتثبت فيه كان كالجنين المولود
لغير وقت ولادته واريد ان استشير اهلي وبعض اصدقائي فاننا

البلاد والأقطار تارةً بالسؤال من أهلها وتارةً بمطالعة كتب
 السياحات والأخبار وإقام يتنظر الفرصة فلم تَمْضِ إلا أيام قليلة
 حتى اتفق أن رجلاً من مشاهير الإنجليز المشتغلين في بلادهم
 بتعلم اللسان العربي وقراءة علومه حضر إلى مصر القاهرة ولقي
 حضرة الاستاذ شيخ الجامع الأزهر واطلعه على بعض رسائله معه
 من الأمراء والكبراء تتضمن التنويه به وطلب رعايته وإنهى إليه
 أنه من عشاق اللغة العربية وطلابها والمتعلقين بأهاليها وإن
 عنده نسخة من كتاب لسان العرب في اللغة للعلامة محمد بن
 المكرم ابن أبي الحسن الخزرجي الأنصاري رحمه الله وأنه لما
 رآه في هذا الكتاب من كثرة فوائده وغزارة مادته وعظم نفعه
 وجمعه من متفرقات اللغة ما لم يجتمع في غيره من كتبها المتداولة
 يريد طبعه للتجارة فيه وتسهيل تناوله لطلابه فان تحصيله بخط
 القلم لا يتيسر إلا للأنبياء وأهل الثروة بسبب كبره وضخامته مع
 قلة نسخه وندرة وجوده وأنه حضر إلى مصر بقصد تصحيح النسخة
 التي معه من هذا الكتاب لأجل الطبع منها والتمس من حضرة
 الشيخ أن يدلّه على استاذ من أفاضل العلماء المتبحرين في تصحيح
 الكتب ويقراً عليه بعض العلوم العربية ويجعل له في نظير
 ذلك راتباً كافياً يرضيه ويعوض تعبهُ فان اقتضى الحال في أثناء
 ذلك سفره من مصر إلى بلاد الإنكليز أو غيرها استصحبه معه
 بشرط أن يضاعف له مرتبه ويتكفل مع ذلك بمؤتة ونفقته

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده

وليس عليه أن يتم المطالب

وقال آخر

لا تيأسن إذا ما كنت ذا ادب

على جمولك أن ترقى إلى الفلك

فبينما الذهب الأبريز مختلط

بالترب إذ صار أكليلاً على الملك

وقال لما دعيني أنفكر في أي الأمرين أولى وهل ينشرح

خاطري لموافقتك أم لا



المسامرة السادسة

السامع الإنكليزي

وقام من عندها وتوجه إلى الجامع كعادته وهو متفكر فيما جرى بينه وبين زوجته وكان قلبه يميل لمرغوبها لإدخال السرور عليها وعلى أولاده لكن لا يدري كيف يصنع وكان يقارن في نفسه أحوال أحد الأمرين بأحوال الآخر ويقدر ما في كليهما من منفعة ترجى أو مضرة تحذر ثم ترجع عنده الرجيل عن البلد وكنتم هذا الأمر ولم يفشه لأحد وأخذ في أسباب معرفة أحوال

فيدخل فيه الصرف والنحو والبيان والعروض واللغات بأسرها
 فمن اقتصر على العلم الملحق بالتحقيقي لم يكن عالماً حقيقياً بل
 يكون كمن اكتفى باسم الخبز عن ذات الخبز ومن علم العلم
 الحقيقي كان له ان يجني الثمرة وينال البغية وانت بحمد الله قد
 اخذت من كلا العلمين بنصيب وافرو بلغت الى درجة شريفة
 فمن ذلك انك فقيه عارف بالمذاهب الاربعة مستحضر لاصولها
 وفروعها وهذا علمك وفنك الذي كنت اكثر اشتغالا به فلا
 اقول لك اترك القبه واتقطع الى الطب أو الهندسة او الفلاحة
 مثلاً بل اقول يلزم ان تكون موظفاً بوظيفة تعمل فيها بعلمك
 وتنتفع وتتفع فيها بمجودة فهمك وشدة حزمك فهذا الذي اشرت
 اليه وعولت عليه فتوكل على الله واجتهد في تحصيل وظيفة من
 الوظائف من غير ان تلتفت الى مربوطها ومرتباتها فقد قالوا
 وكاذب الفجر يبدو قبل صادق

وأول الغيث قطر ثم ينهل

فان اجتهدت في ذلك وسعيت ولم تصل فاعلم ان الذي
 تعلمته غير ما كان يلزم ان تعلمه او ان هذا البلد غير البلد
 الذي ينبغي لك ان تقيم فيه فاما ان تغير الفن او تغير البلد
 وغير ذلك لا اقول وفيما جرى بيننا من المناقشة كفاية
 قال الشاعر

الألوان والاحوال والافعال ويدخل في الجوهر الحيوان والنبات
 والمعدن وتحت كل منها أنواع وتحت كل نوع افراد كثيرة
 بالغة في الكثرة الى حد يغلب العد ولها في وجودها وبقائها
 وفنائها قوانين عمومية وخصوصية وروابط كلية وجزئية اجراما
 عليها الخالق الحكيم القادر جل شأنه ولكل منها في ذاته
 واحواله اللاحقة له والمتعاقبة عليه لفظ يعبر به عنه وخاصة
 تقوم به وحكم يحكم به عليه ولا يحيط بهذه الاشياء بجميع
 افرادها واحوالها كما هي عليه في نفس الامر الا العلم الخبير الذي
 خلقها وصورها ودبرها وقدرها وأودع فيها ما أودع من اسرار
 حكمته وغرائب صنعته وعجائب قدرته فعلمه هو العلم الحقيقي
 على الاطلاق لا يغرب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض
 ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وهذا الحد لا يمكن للعقول البشرية
 ان تناله ولا تقرب منه بل تتلاشى وتضحل دونه واما علمنا بها
 فهو قسمان القسم الاول علم حقيقي بالنسبة للانسان وهو معرفة
 ما يتأني للعقول البشرية ادراكه ومعرفة من افرادها واحوالها
 الاصلية والطارئة عليها بالصناعة والتركيب والتحليل وطريق
 تحصيلها وكيفية استعمالها والانتفاع بها وخواصها واحكامها وخلالها
 وحرامها ويدخل تحت هذا القسم علوم التاريخ والرياضيات
 والكيمياء والطبيعة والطب والشريعة وفروعها . القسم الثاني علم
 ملحق بالحقيقي ووسيلة له ويسمى علم الالات وهو علم اللسان

قصرت في تحصيله ولو لم يكن من فوائده إلا رضاك وابتهاجك
 وحصول اغراضك لكان هذا لي كافياً في الرغبة فيه والاقبال
 عليه ولكن كيف السبيل اليه . وابن الثريا من يد المتناول .
 قالت السبيل الى ذلك ان تعمل بعلمك وتنفع الناس
 بفضلك وفهمك

قال الشيخ سبجان الله واي عمل خالفت فيه مقتضى العلم
 من أعمالي وانت أعلم بجميع اقوالي وافعالى واما التعليم فليس لي
 اشتغال الا به ولا تعلق الا بسببه وتعلمك انت اقوى دليل
 والله على ما تقول وكيل

قالت ما لهذا قصدت

قال وما الذي اردت

قالت من اخطأ الطريق ضل ومن عدل عن الصواب زل
 اذا ما اتيت الامر من غير بابه

ضللت وان تدخل من الباب تهتدي

ومن عرف مقاصد العلم وصل الى مطلوبه وحصل على
 مرغوبه ومن لم يدر ما يراد من العلم وقع في عناء مستمر ولا
 يزال كذلك حتى ينقضي العمر فيلزم مرید اى علم ان يعرف قبل
 ثعبه ثمرة علمه وطلبه والا كان كراكب البحر من غير دليل فان
 لم يغرق لا يصل الا بعد زمن طويل وقد علمت ان جميع
 المخلوقات تنقسم الى جوهر وعرض يقوم به ويدخل في العرض

بدعا ولا تحصيلهم له متمنعا فان العلم بانواعه يستعان به على
مصالح الدين والدنيا وان الملك لا يستغني عن العلم واهله
وانما يلزم العالم اذا كان في وظيفة ان يكون مع الخلق كالطبيب
الماهر مع المريض فكما ان الطبيب يعاين احوال المريض ويامر
له بالدواء على حسب ما يراه حتى يحصل الشفاء له فيثني عليه
ويشكر فضله كذلك العالم الموظف يكون بين الناس ناظرا الى
ما تقتضيه طباعهم وامزجتهم وما يناسبها من الاحوال والاقوال
فيعامل كالأمنهم على قدر عقله وعلى حسب حاله وما يليق
به من غير عدول عن الطريق القويم والصرراط المستقيم فقد
قيل

احمل الناس على اخلاقهم * فيه تملك اعناق البشر
فتميل عند ذلك قلوبهم اليه ويغدقون بالاحسان عليه
ويتقدون بفعله وقوله ويخرج من مذمة من خالف علمه بعلمه
وهناك يغفر الله وزره ويضاعف أجره لان العامل بعلمه ينفع
نفسه وينفع غيره وهو بين الناس كالغيث فكما ان الغيث ينتفع
به الحيوان والنبات كذلك العالم العامل تنغذى به ارواح
الخلق ويتعلمون منه ما ينجيهم من غضب الحق ومن كانت
هذه حالته فالاحسان اليه مبدول ودعاؤه عند ربه مقبول
فقال الشيخ لا بأس بما تقولين ولا شك في كثرة فوائد
الغنى للعاقل البصير الموفق ولكن لو تيسر لي سلوك سبيله ما

حكم به على تلك الجهة ومن ذلك الوجه كان ذمك للغني فانك
 لم تنظر الا لما توهمته فيه من التعب والمشقة اما لكونك لم تله فلم
 تعلمه حق علمه واما لكونك لما حرمته كرهته فذمته وان كنت
 قد علمته ولو انك عملت بمقتضى علمك وما اعلمه من سعة فهمك
 لنظرت ايضا لما فيه من الفوائد الجمة والمزايا المهمة كالتوسعة على
 العيال والاقارب ومواساة الجار والصديق والصاحب واغاثة
 الملهوف واعانة المحتاج وتنفيس كربة المكروب وايواء الغرباء
 وكفالة الايتام واطعام الطعام والاعانة على نوائب الايام وغير
 ذلك مما ينفع الانام ويوجب خلود الذكر ومزيد الاجر على
 الدوام وانت ترى ما لكثير من الاغنياء الموقفين من الخيرات
 والصدقات والمبرات والمكاتب والرواتب والمصاطب والمدارس
 والمساجد والتكايا والمعابد ونحو ذلك مما يظول استقراؤه ولا
 يمكن استقصاؤه فلو نظرت الى الغني من هذه الجهات لحكمت
 بتفضيله وسعيت في تحصيله ولكنك نظرت اليه من جهة واحدة
 فعبتة من اجلها وتحاميته بسببها ومن كان هذا حاله فمثله مثل
 من يعلم ان النار من ضروريات المعيشة على الاطلاق ويتنعم من
 ادخالها بيته خوفاً من الاحراق فلو تحفظ بما يوجب سريان
 شررها لاستعملها وامن من شرها فكذلك الغني فانه وان كان
 قد يوؤدي الى بعض مضرات لكن نفعه اكثر من ضرره ولا
 ينكر ذلك الا متجاهل او جاهل وحاشاك وليس الغني للعلماء

المسئلة من جهة واحدة فيحكم فيها بما تتضمنه تلك الجهة دون
سائر جهاتها وقد قالوا ليس العلم الا ما كشف الغطاء عن
الأسرار الربانية واطلع صاحبه على المحكم الالهية ولذا قال أسد
الله الغالب علي بن ابي طالب كرم الله وجهه لو كشف الغطاء
ما ازددت يقيناً حتى انهم شبهوا صاحب العلم برئيس الجيش
هذا يفتح القلاع بخيله ورجله وذاك يملك القلوب برأيه وقوله
ورئيس الجيش وان كان يكشف عن مكنون القلاع فالعالم
يكشف عن حقائق الطباع ويغوص بحار اسرار المخلوقات
ويستخرج ما استتر من عجائب المصنوعات فكما يستولي رئيس
الجيش على الممالك بقوته فكذلك العالم يجذب القلوب بنور
بصيرته فخالق مفتقرة الى العلم في سائر البلاد كافتقار الظن
الى الماء والمسافر الى الزاد لانه لا دوام للملك الا بحسن التدبير
ولا تدبير الا بالعلم فالقوة الحيوانية محتاجة للقوة الروحانية
والاولى مأمورة وتابعة والثانية آمرة ومتبعة فامور الدنيا لا تتظم
الا بالعلم والعالم بالنسبة للعلم كاللسان بالنسبة لصاحبه فكما
ان اللسان يترجم عما في القلب اذ لولاه ما علم احد ما في ضمير
الاخر فكذلك العالم يفتح عن حقائق المعلومات وغرائبها ولا
يحملها على غير ما اريد بها واظن ان غالب اختلاف الخلق من
اختلاف نظرهم فمنهم من ينظر الى الشيء في اعم احواله فيحكم عليه
بما يستخمه ومنهم من ينظر اليه من جهة فيحكم على كل جهاته بما

الذي يرضى استبدال المله وعناء بلذة راحته وهناك
فقلت له ان الذي قدرته بوهلك وتخيلته بفهمك مسلم من
جهة واحدة تعارضها جهات متعددة منها ان الدنيا كما علمت
دار تعب فكيف ترجو الراحة فيها ومنها ان الغنى نعمة من نعم
الله يخصص به من يشاء من عباده فكيف يكون سبباً لذم
صاحبه وصرف النظر عنه وذلك يؤدي الى البطالة المؤدية
الى الفقر الموجب للذلة والمسكنة طول العمر واما قولك انا
في سلامة من السنة الناس بالعزلة فجنح ان سلمنا السلامة بهذه
الحالة من السنة الناس فلا سلامة فيها من أسنة الفقر
والافلاس واين السلامة وانت تنظر كل وقت الى حالنا وضيق
عيش عيالنا فكيف يطمئن قلبك بالعزلة واولادك يشكون الم
الجوع والقلة افلا يكون ذلك مشوشاً لفكرك مهيباً لحاظرك
فانك ان كنت منقطعاً عن الخلق في منزلك فاموالهم واحوالهم في
قلبك فليست العزلة مجرد حبس الاجسام كما ان الصوم ليس
مجرد الامتناع من الشراب والطعام والآل كانت متحققة في اهل
السجين والجرائم العظام وسأذكرها هنا مقدمة أهدبها للكلام ثم
اخوض معك في حديث المرام فاقول ان كل انسان لا يرى
الاشياء الا على حسب ما تظهر له فان وقف على حقيقة امرها
واطلع على ما كمن من سرها ظهرت له من جميع جهاتها فحكم
عليها بما تستحقه في ذاتها وبالنظر لعامة حالاتها والا ظهرت له

لها غضب الله او اطلاق أسنة الناس عليّ فتضيع دنيائي
واخرتي واظن ان الحال الذي نحن فيه أحسن الاحوال
لسلامتنا فيه من أسنة الناس بالعزلة عنهم كما قيل
فان تجنّبها كنت سالمًا لاهلها

وان تجنّبها نازعناك كلاهما

فانا وان كنا في ضيق من العيش فثقلنا كثير وربما كنا
احسن من غيرنا وانا اعد نفسي من السعداء حيث زوجني الله
بك فكنت موافقة لي في العلم والعمل ففي الخبر من سعادة المرء
الزوجة الصالحة فهذه الحالة عندي أفضل من الرتب الموقعة
في العنا والتعب واذا نظرنا الى غاية الأمر رأيناها في الحالتين
واحدة فكما يموت الفقير يموت الغني ولو تأملنا حال كل منهما
في الدنيا لرؤينا بالفقر فان الغني في الدنيا دائماً في معاناة رسوم
كثيرة غير مربوطة وملاحظة عوائد غير مضبوطة وحركاته
وسكناته مشهورة واقواله وافعاله ماثورة مذكورة يلتقطها
الناس ويجرفونها عن مواضعها ويحملونها على غير ما اريد بها
ويستتجون منها شراً وربما كان قد اراد بها خيراً فتنطلق
السنة العوام بسببه وذمه وعيبه وتصير سيرته في الازقة شائعة
وفي البلاد منتشرة ذائعة فلا يهنا بمنام ولا يتم له نظام ولا يدخل
منزله الا وفكره مشغول قد آلمه السقم والم به النحول فبيبت
سمير الارق نديم الوهم والتلق فابن هو ما نحن فيه الآن ومن ذا

عليه حب العظمة والترفع والترفة فلا يشتغل إلا بالامور المهمة
الكلية ويكل أموره الجزئية لخماتها الى غيره فيحتاج للفقير
ليقوم له بها ثم ان كان ذلك الغني صاحب مروءة ومعروف
انقطع الفقير اليه ولازمه وان كان بخلاف ذلك تركه ولاذ
بغيره وهكذا حال الفقراء والاعنياء مع بعضهم

فقال لها هذا الكلام في ذاته لا شك فيه ولا ريب يعتريه
ولكني قد امتحنت جميع الوظائف واصحابها واخبرت حالم مع
روسائها ونظارها فلم اجد وظيفة عارية عن الذل والاهانة
ولو قام صاحبها فيها بالصدق والأمانة ولا يقيم فيها الا من
عدل عن الحق واتبع أهواء الخلق فان كل صاحب وظيفة
لا يخلو عن أحد أمرين أما ان يتبع هوى الخلق وإما ان يتبع
أمر الخالق فان اتبع الخلق فقد استوجب غضب الله عليه
وان اتبع الخالق فقد تسبب في امتداد السنة الناس اليه
فيكرهونه ويذمونه ويشنعون عليه ويتقولون عليه ما لم يقل
وينسبون اليه فعل ما لم يفعل ولا يزالون به حتى يعزل ولا
يخفي ان الم العزل أضعاف لذة المناصب . قال الشاعر .

سكر الولاية طيب * وخمارها صعب شديد

كم تائه بولاية * ويعزله يغدو البريد

فبأي الحالتين ترضين واي الامرين تريدن وهل بعد
هذا العمر وظهور الشيب يلقى بي ان اذل نفسي واسعى فيما يوجب

ويعملون في نجيلهم وهم أئمة الهدى وبافعالهم يتعدى فما هذا التقاعد
 والتقاعس عن الكسب والسعي في طلب الرزق وما لك لا توسع
 على عيالك ومالي اراك تصرف جميع اوقاتك في المطالعة
 والبطالة وهلاً قسمت وقتك قسمين قسم تصرفه في العلم والعبادة
 والقسم الاخر في طلب الرزق واذا كنت لا تطيب نفسك بالاقامة
 في الريف معاً ذكرت لك فلا باس عليك اذا تشبثت هنا بالسعي
 على العيال والكسب من الحلال مع الاشتغال بتعليم الطلبة وبعض
 العوام من الجهال

فقال وأي سعي تريدينه وما الذي تريته

فقلت العاقل من اقتدى باهل حرفته وامثاله وخرقته
 وقد علمت ان كثيراً من امثالك لهم مراتب ووظائف واقطاعات
 ولا أرى احدا منهم الا وهو ساعٍ في طلب الرزق ان كان
 فقيراً وفي زيادته ان كان غنياً فلو تصديت لهذا الامر وسعيت
 فيه فما اظن ان سعيك يضع عليك فقد قيل من جد وجد
 ومن لج ولج فاقصد من تتوسم فيهم الخير من ارباب الكلمة
 وتودد اليهم وتعرف بهم فان عرفوا كنه قدرك ووقفوا على حقيقة
 امرك اعترفوا بفضلك وعظموك ووقروك ولا ارى في ذلك من
 محرم ولا مكروه بل ربما كان واجباً فانا مامورون بالسعي
 والناس جميعاً شنيهم وفتيرهم محتاجون لبعضهم وربما كان احتياج
 الغني الى الفقير اكثر من احتياج الفقير اليه لان الغني يغلب

لا يكفرها الصلاة ولا الزكاة ولا الحج ولا العمرة ولا الجهاد يكفرها
الم في طلب المعاش وما نقله منه عن ابي سعيد الخدري رضي الله
عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم افضل الاعمال الكسب
من الحلال ومنه عن انس رضي الله عنه قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا اخرته لدنياه
حتى يصيب منها جميعاً فان احداها بلغة الاخرى ومنه عن انس
ايضاً من لم يتم في امر معيشته لم يتم بامر دينه والنفس لا تكون
متفرغة للطاعة حتى يكون بكفها الكسرة التي تقوم بها فاذا استكملت
امور قوتها صدقت عند ذلك وسكنت وتفرغت للعبادة فاغدوا
وروحوا واطلبوا من فضل الله وامثال ذلك في الحديث الشريف
كثير ، وروي ان عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال ما تصنع
قال اتعبد قال من يقولك قال اخي قال اخوك اعبد منك
وقال لقمان لابنه يا بني استغن بالكسب الحلال عن الفقر فانه ما
افتقر احد قط الاّ اصابه ثلاث خصال رقة في دينه وضعف في
عقله وذهاب مروءته واعظم هذه الثلاث استخفاف الناس به وقال
عمر رضي الله عنه لا يتعد احدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم
ارزقني فقد علمت ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وكان زيد ابن
مسلمة يغرس في ارضه فقال له عمر رضي الله عنه اصبت استغن
عن الناس يكون أصون لدينك وأكرم لك عليهم وكان اصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون في البر والبحر ويغرسون

من جهتك ان قصدك بالعلم مجرد النباهي به والنظائر بالتجرب فيه
والقدرة على التعمق في مسائله الدقيقة والحوض في بحاره العميقة
فتقول لك نفسك ان تعليم هؤلاء العوام لا يحتاج الى كثرة علم
وجودة فهم فلا يظهر به فضل الانسان وسعة علمه وحدة ذهنه
فما لك به وليس لك فيه فائدة وامثال ذلك مع ان فيه اعظم
فائدة من ثواب الله ورضاه ورحمته والتقرب من حضرته فلا هذه
المنزلة وصلتها ولا مقاصدك من امور الدنيا حصلتها ولو اخلصت
لله سبحانه النية والعمل لأتاك الدنيا من حيث لا تحتسبها
واتقادت اليك عفوا على ان الاشتغال بامور الدين وابتغاء مرضاة
الله لا ينافي الاشتغال بامور الدنيا من وجوه الحلال فاعمل
لاخرتك ودنياك معاً وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولا تنس
نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك وقد تربيت في
كفالة اهلك في صغرك فعليك ان تعول ذريتك وعيالك في
كبرك وتسعي لهم بما يصلح حالهم وينعم بالهم من المعاش الطيبة
بالكسب والسعي في طلب الرزق الحلال وابتغاء فضل الله سبحانه
وقد قال جل جلاله (فاتشروا في الارض وابتغوا من فضل
الله) وقال (واخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل
الله) وقرأت في كتاب مرشد المؤمنين لمحمد بن عبد الكريم
الحلي بخطه نقلاً من مسند الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما
قال . قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ان من الذنوب ذنوباً

من يقول كلاماً يكفر به وهو لا يشعر ولا نجد من يعلمهم أو يتبينهم
 وتراهم على هذه الأحوال ولا تبالي بامرهم ولا تهتم بشانهم وهم جيرانك
 واخوانك وانت تعلم انه لو قصد احدهم الازهر على الفرض
 والتقدير ووقف على دروس العلماء فيه فانه لا يعقل ما يقولون
 ولا يتتبع بما يقررون فانهم يتكلمون بما لا يفهمه من الالفاظ
 الاصطلاحية بل انت تعلم ان الواحد منهم لا يدري بفساد عقيدته
 او عبادته حتى يسعى في تصحيحها فلو قصدت وجه الله سبحانه
 بعلمك وعلمت بمقتضى محبة الله ورسوله واملته وامته لكنت تشفق
 عليهم وتنصح لهم وتواظب في وقت من اوقات الليل والنهار على
 مسجد محلتنا القريب من دويرتنا هذه فتقعد فيه بين المغرب
 والعشاء مثلاً وتعتقد لمن تراه هناك منهم درساً تعلمهم به كيف
 يتوضأون ويصلون ويصومون وكيف يعبدون الله تعالى عبادة
 صحيحة وكيف يكون البيع صحيحاً وكيف يكون فاسداً ونحو ذلك
 من الامور الضرورية لهم في دينهم ودنياهم فمنهم من تنصح على يدك
 عقيدته ومنهم من تنصح بتعليمك عبادته ومعاملته وفي ذلك من
 الاجر والثواب والمنزلة عند الله سبحانه ما لا يقدر اللسان على
 وصفه وانت اعلم مني بقدره مع انه لا يقطعك عما انت بصدده
 فلم تعرض عنه وقد علمت ان الدين النصيحة لله ورسوله ولأئمة
 المسلمين وعامتهم فاعراضك عنه لا يظهر له وجه الا اذا قلت
 معتمدة على حسن عنوك مغترة بفرط حبلك راجية عدم المواخظة

قالت اسالك عن شيء واناشدك الله ان تقول الحق ولا تحاول في الجواب قال سلي عما شئت قلت اذا فرض رجل من العامة وقع بسبب جهله في عقيدة مكفرة لا يتم معها ايمانه فنيهته عليها حتى صحت عقيدته وتم ايمانه ورجل اخر منهم كان لا يحسن وضوءه مثلاً فصلاته بالضرورة فاسدة فعلته كيف يتوضأ فصار يحسن الوضوء الموقوف عليه صحة الصلاة ورجل من طلبة العلم كان يجهل مسألة من الصرف او النحو او البيان او المنطق مثلاً فعلته اياها حتى اتقنها غاية الاتقان فتواييك في اي واحد منهم اكثر وتعليم امهم عند الله افضل

قال الشيخ الحق احق ان يتبع اللهم اني ارى ان تعليم الاول افضل من الثاني ثم الثاني افضل من الثالث

قالت فاذا لم يبق بيننا نزاع في ان الافضل تعليم هؤلاء المساكين المحتاجين لمعرفة الاوليات المهمة من دينهم وانت ترى التاجر في السوق اذا خير بين سلعتين من امور تجارته اخنار ما يعلم انه اكثرها له رجماً وفائدة اذا كان له ادنى عقل فان كنت انت من تجار الآخرة فلم لا تفعل مثل ذلك ولم تخالف المعتول فتترك الافضل وتقتصر على المفضول حتى انك ترى كثيراً من جيراننا ومن حولنا من اهل هذه المحلة جهلاء بكثير من الامور الضرورية لهم في دينهم فمنهم من لا يحسن الصلاة ولا الوضوء ولا يفرق بين طهارة ونجاسة ومنهم من يعتقد بعض عتائد فاسدة مضرة ومنهم

انت لم تحصل منه على الغرض وان كان مرادك الدين والتقرب الى الله سبحانه فقد قلنا ان تعليمك المحتاجين اشد الاحتياج للامور الضرورية من دينهم اولى واقرب الى الله واكثر ثواباً مما اراك تقضي فيه عمرك وتشغل به اوقاتك من البحث والجidal والتليل والقال والجواب والسؤال والحل والاشكال واعتراض واجيب وفيه نظر ويرد عليه وقد يقال ولا يقال ونحو ذلك مما انت عاكف عليه ومنهمك فيه ومقتصر على تعليمه لجماعة من الناس في موضع معين من الجامع الازهر لا تتجاوزه ولا تتخطاه الى غيره كما جاء التنزيل والنص القاطع بان العلم لا يتجاوز ذلك الموضع من ذلك الجامع

قال الشيخ قد يوفق الله سبحانه من اعلمهم العلم في ذلك الموضع فيتعلمون وينتشرون في الارض يعلمون الناس ويقومون بهذا المهم

قالت فما الذي يؤمنك ان الذين يتعلمون علمك يكونون مثلك ويسلكون سبيلك في الاقتصار على طائفة في ذلك المكان المخصوص فيبقى العلم منحصراً فيه والمطلوب انتشاره وتعميم النفع به وهب انهم لا يكونون على طريقته فاذا سلمت ان الذي اشرت به عليك افضل مما انت فيه فلم لا تختار الأفضل لنفسك تستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير

قال لا نسلم ان ما اشرت به افضل

الى سبيل النجاة ويرشدونهم الى مكارم الاخلاق وينفرونهم عن
ذمم الاحوال وليس حال من احضك على تعليمهم واحثك على
الاقامة بينهم كحال اولئك الذين كان يقاسي منهم الانبياء ما
يقاسون وهم يدعونهم الى الله تعالى ويرشدونهم الى الخلاص من
الهلاك فقال الشيخ او نحن كالانبياء والمرسلين قالت قال الله
سبحانه (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) وقال جل
شانه (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني) وقال عز من قائل
(قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني) فكمال
اتباعه صلى الله عليه وسلم بالدعاء الى الحق وارشاد الخلق كما كان
دابه وديدنه طول حياته وقد اتبعه في ذلك من بعده جماعة
الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين فهدى الله كثيراً
من الخلق على يدهم فهم على الحقيقة ورثة الانبياء صلوات الله
وسلامه عليهم اولئك الذين هدى الله فبهدهم اقتده وعلى الجملة
والتفصيل فقد ظهر من قولك وفعلك مخالفة رأيك لرأي اهلك
فانك لو اقتصرت على ما كان حصل عليه الوالد من حفظ
القرآن الشريف وبعض خطب ومعرفة ما تدعو اليه الضرورة
ويكثر ميسر الحاجة اليه من فروع الفقه لتبعت رأيهم فيما قصدوه
ولكنك علمت اموراً جهلوا فكرهت ما احبوه وعدلت عما ارادوه
واذا لم تر ما راوه فاي طريق رضيت لنفسك وما هو المقصود
الذي تروم الوصول اليه فان كان مرادك من العلم امر الدنيا فيها

طبع الفتى يُسرق من طبع من * يصحبه فانظر لمن تصحب
 فقالت له اما ما ذكرته من سوء حال اهل الريف فهو حجة
 لي عليك لا لك علي فان هذا ان كان كذلك فانما هو من
 شدة جهلهم فهم اذا احوج الى مثلك يقيم بينهم فيقوم بتعليمهم
 وتفهيمهم ما يجوز وما لا يجوز وتوقيفهم على ما ينفع وما يضر واما
 قولك ان من يكون عندهم يضع علمه فحسبك في هذا قوله
 تعالى (وانقول الله ويعلمكم الله) واما ما ذكرت من ان من يقيم
 معهم تسري اليه طباعهم ومساوي اخلاقهم وقد خفت ذلك على
 نفسك فهذا ليس بالنسبة لك ولا مثالك الذين كملت نفوسهم
 ورسخت في المعرفة اقدامهم واستنارت بنور اليقين بصائرهم وانطبعت
 على الحق والهدى قلوبهم وانما يخاف من ذلك على الاحداث
 والاغرار الذين لم يبلغوا من الفضل تلك الدرجة ولا وصلوا من
 الكمال الى تلك الغاية اما الكاملون المكمّلون فلا يوثر في حسن
 طباعهم سوء طباع غيرهم بل يعلو حتمهم على باطل سواهم ويسطو
 نور معرفتهم على ظلمات جهل غيرهم فان الريح العاصف اذا
 اقتلعت الشجرة والمدرة والصخرة فلا تقتلع الجبل الراجح ولا تزحزحه
 عن مكانه وقد علمت ما علمت من حال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وغيره من الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم
 اجمعين كيف اقاموا بين قومهم من الكفار والمشركين الضالين
 المضلين يدعونهم الى الحق ويرشدونهم الى الهدى وياخذون بايديهم

ذكرناها للاقامة في الريف

فقال لها قد اطلت في المقام واكثرت علي الملام ولكن
 هناك اعذار واهوال واخطار لولا مناقشتك ما سمحت نفسي
 باظهارها لك فقالت له هات ما عندك قال لو علمت حال اهل
 الارياف وما هم عليه من الظلم والاحجاف لما رغبت فيه ولا رضيت
 به فانهم لا يرحمون فقيراً ولا يوقرون كبيراً ولا يفهمون قبلاً ولا
 يهتدون سبيلاً فقهاؤهم دائماً تحت رايهم وامرهم ونهيمهم وان فهموا في
 انفسهم غير ذلك فلجهلهم وان وصل اليهم شيء من الدنيا فانما
 يكون بالاحجاج وارقاء ماء الحياء فهل يرضى بهذه الحالة والاقامة
 مع اهل الجهالة من كان ذا فضل وعفة فان ارقاء ماء
 الوجه لا يرضى بها الا جاهل وكيف اعلم ذم ذلك واقع فيه
 وكل ما اكتسبه منهم لا يقوم مقام بعض ما يضع مني بالاقامة معهم
 لان العلم يزيد بالممارسة وينقص بعدمها فمع من تكون الممارسة
 هناك ولا يوجد بقري الارياف الا صاحب ارض فلا يتكلم الا
 في حريتها وبذرها وحصدها او تجار فلا يتكلم الا في انواع الاخشاب
 وما يصلح منها للسواقي والسقوف والابواب او صياد سمك فلا
 يتكلم الا في شبكته وفي انواع السمك وبركته وهكذا دأبهم من
 اول السنة الى اخرها فلا يقيم معهم الا من كان مثلهم فان اقام
 عندهم عالم ضاع علمه وتبدلت صفاته المحمودة باضدادها لان الطبع
 يسري كما قيل

الطلب ولم تدرك ثمرة التعب مع ان من واجب العلم تعليمه للغير
والا كان صاحبه بمن لم يعمل بعلمه وقد علمت الوعيد لمن هذه
صفتة نعوذ بالله من ذلك

فقال الشيخ انا بحمد الله لم اترك تعليم العلم من حين وجدت
في نفسي القدرة على ذلك فاني مواظب على التدريس في الجامع
الازهر لطلبة العلم مجتهد في تعليمهم على قدر الاستطاعة

قالت لا يخفى عليك ان احياج اهل الريف للتعلم اكثر
وليس فيهم مثلك يعلمهم واما طلبة العلم في الازهر فانهم
يجدون كثيراً من العلماء يعلمونهم ولعل فيهم بعض مشائخك
الذين تعلمت منهم فاهل الريف احوج اليك واولى بك فاقامتك
بينهم انسب وتعليمك لهم اصوب واعلم انه اذا كان في يدك
مال تريد ان تصدق به ووجدت رجلاً فقيراً بين قوم اغنياء
من اهل الخير يوالونه بنفقاتهم ويبرونه بصدقاتهم وعلمت برجل
اخر مسكين بين قوم فقراء لا يجد من يتصدق عليه بما يمسك
رمقه ويحفظ حياته من القوت الضروري فمن مقتضى الحكمة
وحسن الراي ان تؤثر بصدقتك هذا المسكين الذي لا يجد
من يتصدق عليه وترجمه على ذلك التقير المقيم بين اظهر المحسنين
اليه وهكذا حال اهل الريف وطلبة العلم في الازهر من
حيث الاحياج الى التعلم وهب انك في مصر لا تفوتك هذه
المزية من تعليم العلم الشريف فاين غيرها من باقي المزايا التي

مقصودهم وزهدت في مرغوبهم فقال لها وكيف ذلك فقالت
 انت اخبرتني ان والدك المرحوم كان فقيها واماماً بمسجد قرينته
 فبالضرورة اراد حين ارسلك الى الجامع الازهر ان تكون مثله
 لتقوم مقامه فلا يخلو حالك الان من احد امور ثلاثة اما ان تكون
 دونه او مثله او فقت عليه فان كنت دونه كان لك في الاقامة
 وجه الا انك اذا قارنت ما مضى من العمر بما بقي منه وجدت
 الباقي ليس وقت تحصيل وان كنت مثل الوالد او اعظم فلا وجه
 للاقامة حيثئذ بل الواجب عليك ان تقفوا اثره فيما كان عليه
 وتبوع راي والديك فتتخلص انت وعيالك من ضيق المعيشة
 واقامتك في الارياف على اي حالة احسن لان الثقة هناك اقل
 والمؤنة ايسر والهواء انقى واحسن والصحة اكمل ومع هذا يتفجع منك
 اهل البلد بتعليمك لم امر دينهم وتتفجع منهم انت بما تستعين به
 على امور المعيشة ما يقسمه الله ويجريه لك على ايديهم وتستفيد مع
 ذلك ثواب الله بتعليمهم ولا يخفى عليك مزيد ثواب التعليم وان
 الله سبحانه كما امر العباد ان يتعلموا امرهم ان يعلموا غيرهم (واذ
 اخذ الله ميثاق الذين اتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه)
 وقد قيل العلم كالشجرة فكما ان الشجرة زيتها ثمرها كذلك العلم
 زيته العمل به وتعليمه وهذا الذي ذكرته لك مبني على انك راض
 بما قصده لك اهلك فان كان الامر بخلاف ذلك وانك قضدت
 متصدماً لم يقصده ورغبت في امر لم يريدوه فقد ضيعت العمر في

الموروثة عن ابيه فاراد تقليد بعض الطير في المشية فاخذ يبرن
 نفسه على ذلك فنتى مشيته الاصلية ولم تحصل له المشية التي
 ارادها وبقي يججل في مشيه كما نراه وهكذا حال من ذكرناه ممن
 خالف رايه راي اهله فيما علموه له في صغره فلا هو حصل الغرض
 ما اراده ولا انتفع بما كان قد تعلمه بل ربما نسيه بالكليّة وضاع
 عليه ما قضاه فيه من عمره وساء حاله وتخيّر في امره وربما كان
 من الاغرار فينضم اليه جماعة من الاشرار فيلعبون بعقله ويزيدونه
 ضلالاً الى ضلاله وخيالاً على خياله فان كان عنده بعض مال
 ورثه عن ابيه احتملوا على فناءه فذهبوا به من مكان الى دكان
 وانقلبوا معه من خان الى خان الى ان يصبح فقيراً معدماً نادماً
 سادماً وان كان من اصله فقيراً حسنوا له اموراً قيحة قل ان
 يحصل منها على الكفاية وربما آلت به الى الفضيحة وعلى كل
 حال يندم حيث لا ينفعه الندم ويبقى على اسوء الحالات الى
 ان يدركه العدم واما ان وافق رايه راي اهله واختار ما الزموه
 بسلوك سبيله فانه تعود عليه منفعة ما تعلمه ويحني ثمرته ولا يضيع
 عليه ما قضاه فيه من عمره ولا يفصل فاصل بين العلم والعمل
 وبهذا يحسن حاله ويبلغ الامل واذا تقرر هذا على وجه العموم
 فلننتقل الى الكلام على وجه الخصوص فنقول لا شك ان اهلك
 حين ارسلوك الى الجامع الازهر لم يقصدوا لك الا الخير فان
 كنت راضياً بالطريق الذي رسموه لك فلماذا عرضت عن

مضطر للاقياد لهم واتباع آراءهم فيوجهونه الى ما يوجهونه اليه ما يرونه نافعاً له وهو لا يدري اني ذلك خير له ام شر وعاقبته نفع له ام ضر فاذا ترعرع وكبر وبلغ اشده وملك زمام امره واخذ يحكم عقله في التميز بين ما هو نافع له او اذبح وضار او اضر والترجيح بين ذلك والاختيار لما يراه خيراً له فحينئذ اما ان يوافق رايه راي اهله فيما ارادوه له واخذوه بسلك سبيله او يخلف الراي فان خالف رايه راي اهله ولم يستحسن ما اخاروه من اجله كان يكون اهله قد اخاروا له من صغره صنعة الكتابة والزوم الاشتغال بتعليمها فلما كبر لم يستحسنها طبعه ورأى ان الاشتغال بصنعة الخياطة او الحياكة مثلاً خير له من الكتابة لكونه راي بعض المشتغلين بها احسن حالاً وانعم بالا من بعض المشتغلين بالكتابة فاذا كان كذلك ضاع عليه ما قضاه من عمره في تحصيل الكتابة وربما كان ما اخاره كالخياطة مثلاً وان كان اذبح له في نفس الامر فرضاً يحتاج الى تعلم ويحتاج التعلم الى وقت قد لا يساعده عليه حاله ثم هو في وقت تعلمه الصنعة التي مال اليها هواه لا يمكنه التمسك منها فان ذلك لا يكون الا بعد اتقان معرفتها مع احتياجه في زمن التعلم الى النفقة وقد يشتغل بتعلمها مدة فيطول عليه زمن التعلم فيسأم ولا يجد فيها كسباً عاجلاً فيندم والحاصل انه يخجل حاله ويتذبذب امره ويخار فيما يخار ويكون حاله كما يحكى عن الغراب في الامثال المضروبة انه لم تعبه مشيته

فريق من هذين الفريقين اذا اسف على حرمانه ما عند الآخر
 الا بوجه اللوم الا على نفسه ويرحم الله من يقول
 وعاجز الراي مضياع لفرسته

حتى اذا فات امر عاتب القدر

فقال الشيخ اراك قد سمت الكلام الى حد اردت به توجيه
 الملامة علي واتهامي بالتقصير في الطلب وان ما نحن فيه من قلة
 المال وضيق الحال انما هو من تقصيري في الاخذ بالاسباب
 قالت ينبغي ان لا يكون في هذا ارتباب وها انت قد حصلت
 من العلم ما تعلقت به امالك ووصلت فيه ما لم يصل اليه امثالك
 وانت الان بمحمد الله في صحة من جسمك وقوة من عقلك فاذا
 عليك لو اخذت لنا فيما يكون فيه حسن الحال وراحة البال من
 الرزق الحلال فني علمك ان للعبد ذنوباً لا يكفرها صلاة ولا
 صيام يكفرها السعي على العيال فقال الشيخ ومتى قصرت في
 الطلب وكيف لنا تحصيل الارب فقالت طرق الوصول الى
 الرزق غير محصورة واسبابه غير محظورة فمنها ما يوصل الى قليله
 ومنها ما يوصل الى كثيره على حسب تفاوت الناس واخلاف
 درجاتهم وتباين حالاتهم وانما الصعوبة في معرفة احسن الطرق
 الموصلة اليه بالنسبة الى الشخص والاهتداء لسلوكها فان الانسان
 في حال صغره الذي هو وقت تعلمه لا يتأني له معرفة ذلك
 لضعف قوته العقلية كقوته الجسمية فهو اذا ذاك كل على اهله

وامثال ذلك ما أجرى به العادة في خلقه ومن ثم امرنا بالسعي
 والعمل لا بالبطالة والكسل كما قال تعالى (فامشوا في مناكبها
 وكلوا من رزقه) وامثال هذا مما يطول بيانه ولا يخفى عليك
 تفصيله وبهذا يتضح ان الاخذ بالاسباب والتقلب في طلب الرزق
 والتشبث بوجوه تكسبه امثال لامر الله تعالى واتباع لجاري سنته
 وطلب منه بلسان الحال والافعال وهو اصدق من لسان المقال
 فهو اقرب الى القبول فكأن المتشبث بالاكل طالب من مولاه
 بلسان حاله وفعله افاضة الشيع والمتشبث بالشرب طالب كذلك
 للري والمصطفى طالب للدفء وهكذا الاخذ في اسباب الرزق طالب
 للرزق والله سبحانه جواد كريم فياض مطلق لا يجمل عنده ولا
 ضيق فيما لديه فهو يفيض على كل احد ما طلبه بلسان حاله
 وفعله الذي لا يدخله ما يدخل لسان القول من الكذب واذا
 تمهد هذا الكلام وتقرر الغرض في هذا التمهيد قلت لك ان اهل
 العلم من لا مال عندهم لما قصروا جل افكارهم وعلقوا منتهى
 انظارهم على العلم والتشبث بوجوه تحصيله وكان ذلك طلباً له
 واستدعاء لافاضته كما ذكرناه افيض عليهم كما ان من لا علم عندهم
 من اهل الغنى لما سعوا في تحصيل المال واخذوا باسبابه وكدوا
 في طلبه افيض عليهم ذلك نعم قد يرزق القاعد ويحرم الساعي
 المجد لاسباب اخر واسرار وحكم قد تعلم وقد لا تعلم الا ان كلامنا
 في العمومات والكليات لا في الخصوصيات والحزئيات فحق كل

هذا الهداية الى الله والدلالة عليه وإرشاد العقول الى إن الامر
كله منه وإليه

نكد اللبيب وطيب عيش الجاهل

قد ارشداك الى حكيم كامل

وما ينسب للشافعي رضي الله عنه

لو كان بالخيال الغنى لوجدتني

بجحوم اقطار السماء تعلقني

لكن من رزق الحجي حرم الغنى

ضدان مفترقان اي تفرقي

ومن الدليل على القضاء وكونه

بؤس اللبيب وطيب عيش الاحق

فقال هذه وجوه خطايبه ونكات ادبية يستانس بها في
بعض المقال ولا تطرد في جميع الاحوال فكم راي الناس من
عالم غني وفقير عني والذي يخطر بالبال ان العلم ليس من
اسباب الفقر ولا الجهل من اسباب الغنى ولا ملازمة بين هذه
الامور بل القضية على العكس والعلم احد موجبات الغنى والسعة
والجهل احد اسباب الفقر والضعفة لولا عوارض واسباب اخر
غير العلم وغير الجهل وذلك ان الله سبحانه لما جعل هذه الدار
موضع الكسب والسعي والاختبار ربط الامور فيها باسباب عادية
تحصل عندها وتوجد معها كحصول الشبع والري بالاكل والشرب

يرد به دليل شرعي ونصّ قطعي اقدم على الحكم على مرادات الله سبحانه بالتخمين وهذا ينافي ادب العبودية اما الاخبار باننا نظن كذا فلا باس به لانه اخبار بالواقع وهو صدق لا محذور فيه مع تفويض علم الحقيقة الى العليم الخبير واما ما سالت عنه فللناس فيه اقوال كثيرة منها ان الله لما رزق العلماء ما رزقهم من كمال العقل والمعرفة والفضل جعل للجهلاء في مقابلة ذلك ما منحهم من رغد العيش وسعة المال وكثرة الغنى فكان الغنى للجاهل في مقابلة الفضل للفاضل لتعتدل القسمة ويتساوى الفريقان في الحكمة ولذلك قالوا . ذكاء المرء محسوب عليه . ومنها ان الله لما رزق الجاهل سعة المال تأتي للعلماء ان يتكسبوا من بعض اموالهم بواسطة علمهم وعقلهم واحتيال الجاهل اليهم للائتناف بعلمهم ولو في بعض الاحيان ولو كان الامر بالعكس وكان المال مع اهل العلم والفضل ما كان للجاهل وجه ينالون به من اموالهم فيختل الحال ويهلك الجاهل والله دراي تمام حيث قال
ولو كانت الارزاق تأتي على المحجى

هلكن اذا من جهلن البهائم

ومنها ما يحكي عن بزرجمهر انه قال وكل الله الحرمان بالعقل والرزق بالجهل ليعلم ان لو كان الرزق بالحيلة لكان العاقل اعلم بوجوه مطلبه والاحتيال بمكسبه فدل على ان الامور تجري بقضائه وقدرته لا بصنع ابن ادم وفكرته فكانت الحكمة في

لا يحتاج الى طول نظر وتدبر ومنها ما هو بين هذا وذاك الخامس
انا اذا لم يظهر لنا السر والحكمة في امر من اول وهلة فلا تقطع
باليأس منه بل ننظر فيه ونلتبس بالحكمة له بقدر الاستطاعة
وحيثئذ فلا باس بنا في النظر فيما اخذنا بصدده من المقام الذي
بسببه انبثق هذا الكلام وهو البحث عن الحكمة في ضيق عيش
الفضلاء وقرر حالهم ورغد عيشة الجهلاء وكثرة ما لهم فان كان
عندك في ذلك وجه حكمة فمك نستفيد والّا فلينظر كل منا
بعقله حتى يفتح الله بما يريد فقال الشيخ احسنت فيما ابنت وتطولت
بما طولت ولكن بقي عليك شيء كان يستدعيه استيفاء البيان
واتمام الكلام ذلك انا اذا نظرنا في شي من الامور الواقعة
بقضاء الله وقدرته والتمسنا له وجه حكمة وسر استنبط بواسطة
العقل على حسب ما يصل اليه الادراك وينفذ فيه الفكر فهذا
لا يخلو من مزية بالنسبة اليها من سكون المخاطر ولرغبات النفس
كما قلت ولكن لا ينبغي لنا ان تقطع القول به ونجزم بان ذلك
الوجه الذي لاج لنا هو في الواقع ونفس الامر عين الحكمة التي
ارادها الله تعالى بذلك الامر والسر الذي بني عليه وقدر بل
يقول الانسان اظن الحكمة في هذا الامر كذا او لعل السر فيه
كذا وكذا ويجوز ان يكون له في هذا الامر اسرار وحكم اخر
وربما كانت الحكمة غير ما ذهبنا اليه بالكلية اذ لسنا معصومين
من الغلط والوهم والخطاء فقطع القول في ذلك والنجزم به ان لم

سبحانه يقول (ولئن شكرتم لازيدنكم) واما ثالثا فبالصبر على
الطلب وقد قال (انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب)
ونستفيد مع حسن الاجر والمثوبة في الآجل ما ينكشف لنا من
المعرفة والحكمة في العاجل وذلك نعيم الروح ولذة النفس ونزهة
الخواطر ومسرة السرائر ولا ريب في ان معرفة الحكمة او شيء منها
فيما يتأني للعقول البشرية ان تصل الى سر حكمتها الزاهرة من
افعال الله وعجائب مصنوعاته الباهرة ادعى الى تعظيم الله سبحانه
ومحبته والخضوع له والالتجاء اليه والتقرب من حضرته والاعتراف
بحسن حكمته واجلب لسكون الخاطر واطمئنان القلب وراحة
السر ومزيد التسليم وحسن الرضا بالقضا وكل ذلك لا يخفى ولم
يكن ما ارتكبت من اطالة المقالة قصداً الى تفهيمك فان كل ما
عندي ليس الا من ثمرات تعلمك ولكي لما سألت ذلك السؤال
واوردت ما اوردت من الاشكال خفت ان يتطرق اليك سوء
الظن في اعتقادي فاردت ان اعرفك بحقيقة ما انطوى عليه
فؤادي ولهذا اظنبت فيما قررت ورجع حاصل ما ذكرت الى
خمس امور الاول اني اعلم ان كل شيء بقضاء الله وقدره الثاني
ان افعال الله سبحانه لا تخلو عن حكمة وسر الثالث ان العقول
البشرية لا يتأني لها الاحاطة بجميع حكم الله سبحانه وانما يمكن
لها الوصول الى بعضها الرابع ان حكم الله سبحانه كما ان منها ما
لا تصل اليه عقولنا كذلك منها ما هو في غاية الظهور والوضوح

ذوي الابصار فلا يجهلها غير صبي او من يقارب منزلته من فاقد
البصيرة غبي وبين ذلك حكم واسرار ليست كهذه في الظهور
ولا كالاولى في الاستتار فمنها ما يعرف بيسير من التفكير ومنها ما
يتوقف على كثير من النظر والتدبر ومنها ما ينكشف بالرياضة
والمجاهدة والتقوى والعبادة ومنها ما يظهر لبعض الافهام دون
بعض الافهام وما يظهر للخواص ويخفى على العوام يشهد لذلك
المشاهدة والتجربة بما يغني عن اطالة الكلام في تفصيل المقام وكل
ما ظهر لنا من ذلك فمن فيض الله وفضله وما طواه عنا فحكمته
وعدله فاذا كان ذلك كذلك فلا يحسن بنا اذا لم يظهر لنا
السري في شيء من افعاله جل جلاله بادبيء بدء ان تقطع الأمل
من معرفته ونياس من روح الله في الوصول الى حكيمته بل
نطلب الحكمة على قدر الاستطاعة باشغال الفكر واعمال البصيرة
والالتجاء اليه بحسن السيرة والسريرة حتى يعلمنا ما جهلنا خفاياه
ويفيض علينا من بجار عطاياه فما افاض علينا علمه من ذلك
شكرناه عليه وما لم يظهر لنا سره صبرنا على الطلب حتى نصل
اليه فيحصل لنا بذلك مزيد الاجر والثواب من وجوه اما او لا
فباستعمال النظر والفكر في مصنوعات الله سبحانه وتعالى والتماس
حكيمته فقد امرنا بالنظر والتفكير في مصنوعاته كما نهينا عن التفكير
في ذاته وقد تقرر ان اليسير من فكر الجنان افضل من كثير من
عمل الاركان واما ثانياً فبالشكر على ما يفيض علينا علمه والله

على مخالفته ويظهر لنا بعد ذلك انه كان قد اشار علينا بما هو
الصواب وظهر له ما خفي علينا فاخطانا بمخالفته وامثال هذا في
كل عصر ما لا يدخل تحت حصر وكثيراً ما يتفاوت الناس في
الآراء والانظار والاقوال والافكار فيرى الواحد منهم بفضله
وتجربته ما يخفى على غيره لجهله وقلة خبرته ولولا ذلك لتساوى
الفضلاء والجهلاء واتقمت الآراء والاهواء وقد يامر الرجل الغافل
البصير ولده الصغير بشيء ينفعه ويعود عليه بعظيم الفائدة في
حاله او استقباله فتكره ذلك الشيء نفس الصبي وينفر منه طبعه
ولا يعلم له حكمة ولا فائدة لتصور عقله عن عقل والده هذا ولا
شك ان نسبة عقل الصبي الصغير الى عقل الشيخ الكبير وعقل
الغري الجاهل الى عقل الفطن البصير اعظم واجل من نسبة عقل
العبد الذليل الى علم الرب الجليل بكثير فان الصبي الصغير
والغري الجاهل لم يخرجوا عن كونهما من جنس الشيخ الكبير والفطن
البصير ومن نوعهما وان قللاً في درجة العقل عنهما بخلاف العبد
وربه الذي ليس كمثل شيء فلا شبه ولا مناسبة بينهما فظهر ان
العقل وان انكشف له بعض الحكم الالهية واطلعه الله سبحانه
على شيء من اسرارها فلا سبيل له الى الاحاطة بجميعها ولا باكثرها
فله عز شأنه حكم مصونة واسرار مكنونة تتلاشى انظار البصائر
دونها وتفتاني هم الاكابر عليها فلا يصلونها الا ان له مع ذلك
حكماً ظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار لا تخفى على احد من

تصريف الامور تابعة لما علمه بعلمه المحيط بكل شيء قل او اكثر
خفي او ظهر حضر او غبر اذ لا يخفى عليه شيء من صغير او كبير
الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير وعقل العاقل انما بحكم
بحسب ما يراه في الاشياء المحاضرة من ظواهرها او ما يقرب الى الظهور
من بواطنها وسرائرها فاما بواطنها المستكنة وسرائرها الغامضة
ومستقبلاتها الغائبة التي لا سبيل اليها ولا دليل عليها فهو بعيد منها
ومعزول عنها فمن اين له علمها وكيف يتأني له فهمها ومصداق ذلك
اننا نجد في بني نوعنا من آثره الله علينا بمزية مزيد العقل ونور البصيرة
وكثرة التجربة فاذا تفقدنا جميع احواله وانتقدنا كل افعاله ظهر لنا السر
والحكمة في بعض اموره وخفي علينا ذلك في البعض الاخر من اعماله
وربما راينا بعضها خلواً من الحكمة في بادىء النظر ثم يظهر لنا اخر
الامر ما كان قد خفي علينا اولاً من حكمته وانه فهم بكثرة عقله
ما لم نفهم وعلم بمزيد تجربته ما لم نعلم فان كان لنا حسن ثقة بعقله
وفضل اعتماد على فضله بسبب كثرة موافقة الحكمة فيما علمنا سره
من فعله لم يحملنا عدم معرفة السر والحكمة في امر من اموره على
سوء الظن به والتدحج في حكمته او الجزم بخلو ذلك الامر عن
الحكمة والسر في نفس الامر بل نحمل ذلك على قصورنا عن
درجته وعدم وصولنا لما وصل اليه بكثرة معرفته وطول تجربته
وقد يشير علينا بالشي من هو اكثر منا عقلاً وتجربة فنسفه رأيه
ونخالف قوله اذا لم يكن لنا فيه من الثقة مثل ما ذكر ثم نندم

بعض المطلوب في العاجل فقالت مهلاً فهذا شيء عرفناه قديماً
 وفرغنا منه تعلماً وتعليماً وأنا لا ريب عندي في ان الصبر سبيل
 كل عاقل فضلاً عن الكمل الافاضل كما اني لا ارتاب في
 ان كل شيء بقضاء الله وقدرته وحكمه ومشيئته ولكن مع ذلك
 اعلم ان الله علمت كلمته وجلت حكمته لا تخلو افعاله عن اسرار
 عليّة وحكم خفيّة او جليّة فان الانسان من خلقه اذا اتاه حظاً
 عظيماً من العقل وقدرراً وافراً من الحكمة وولاه جانباً من حسن
 البصيرة والنظر في حقائق الأحوال وعواقب الامور والاطلاع
 على غوامض الاشياء نجده ترفعت نفسه عن الباطل وتنزهت
 أفعاله عن العيب وخلت اموره عن اللغو حتى لا يكاد يخلو
 حال من احواله وشيء من أقواله وافعاله عن حكمة يريدتها
 ونكتة يقصدها اذا امده الله بالعصمة وايده بالتوفيق لمتنضي الحكمة
 فما ظنك بالصانع القدير الحكيم الخبير الذي لا يغرب شيء عن
 علمه كما لا يشدّ شيء عن أمره وحكمه أيجوز لمن رزق لمحة من الفضل
 او لمعة من العقل ان يظن به جل جلاله وتقدس كماله ان
 يتطرق العيب الى ساحة شيء من امره او يخلو عن الحكم الجليلة
 شيء من قضائه وقدره حاشا وكلاً ثم حاشا وكلاً نعم نعم مع
 ذلك ان عقل العاقل وان جلّ امره وعظم قدره لا يمكنه
 الوصول الى الاحاطة بحكم الله كلها ولا جملها وانما يصل الى
 معرفة اقلها فان حكم الله المنطوية في تضاعيف المتدور المنبثّة في

وان الجهل يطس بصيرة صاحبه ويهوي به في ظلمة الغي
ومعاطبه ويحبه عن مشاهدة الاسرار الربانية ويمنع عن ادراك
ما اودع في الاكوان من اللطائف الخفية ويقوده الى وادي الخبال
ويكسوه ثوب المهنة والاذلال فلا يرى الا ظواهر الاشيا فيحكم
عليها باحكام باطلة واوهام عاطلة فيكون بمعزل عن الارادة
الربانية والحكم الالهية فلا يميز على الحقيقة ما ينفعه ما يضره ولذا
يقال في الامثال (الجاهل عدو نفسه) ومن كان عدو نفسه
كان عدو ربه ومقتضى القياس الذي حرره اهل الميزان وقرره
والمفهوم الذي استتجوه من هذا المثل وقدره ان يقال العاقل
حبيب نفسه ومن كان حبيب نفسه كان حبيب ربه وذلك لان
من عرف نفسه عرف ربه الى غير ذلك مما لا يعول في استخراج
نتائجه الا عليك ولا سند لي فيه الا اليك ولكن اذا تقرر هذا
ففيه اشكال اريد ان استمد فيه رايتك واستطلع ما عندك قال
وما هو قالت اذا كان العالم حبيب نفسه وحبيب ربه والجاهل
عدو نفسه وربه كما قلنا وراينا الغنى والسعة عند اهل الجهل
والفقر والقلة مع اهل العلم والفضل كما تقول فما الحكمة في ذلك
وكيف يكون الحبيب محروماً من نعم حبيبه المتقلب فيها عدوه
فقال هذا قضاء الله السابق في مكنون علمه وهو الفعال لما يريد
لا يسأل عما يفعل ولا معقب لحكمه وانما علينا الصبر والرضا
بكل ما يجري به القضا لكي لا نحرم الثواب في الآجل اذا حرمتنا

قول الله تعالى (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها)
 فهذا الذي اجري عبرتي واضرم نار لوعتي وارجوك ان لا توادخني
 في ذلك فانك تعلم ان النساء اكثر من الرجال شفقة واعظم
 منهم رافة ورقة فقال لما ان الذي قام بفكرك قد اوقعني الشيطان
 فيه من قبلك فاجدني لا ادخل ولا اخرج الا حوقلت ولا ارى
 سوقاً ولا بيتاً مزخرفاً الا استرجعت وسجلت لما اراه من ضيق
 دويرتنا وشدة عيلتنا وارى الكثير من المنعمين في الدنيا وشهواتها
 مجردين عن العلوم الشريفة وادواتها وغالب اهل العلم والكمال
 في معزل عن السعة والمال فاجد العلم مقروناً بالفقر والجهل
 ملازماً للسعادة واعتقد ان الصواب ما ورد في الكتاب من قوله
 تعالى (وبشر الصابرين) وامثال ذلك لكن الحواس لا ترى
 الا ظواهر الاشياء والعقل ان لم تدرك صاحبه الطاف ربه بحكم
 بما شاهدته وشهدت به فهذا الذي كان يعتريني فكنت اجتهد
 في اخفائه عنك واسأل الله دواء هذا الداء فانه وهن عظمي
 واهي جسي وشغل فكري وحيرني في امري فقالت وانا ازيدك
 على هذا ان شئت ولا توادخني ان اسأت فقال هاتِ قالت ان
 اكابر الفضلاء والمتقدمين من الحكماء قد اطالوا القول في مدح
 العلم واهله وربما جملوه باباً للرزق واصله حيث قالوا انه نور
 تستضيء به حواس الانسان فينظر بها الى ان تنكشف له مخدرات
 حقائق الاكوان فيكسو صاحبه حلل الجمال والهيبة والاجلال

بالمودة التي بينه وبينها ان تخبره عن اسباب تغييرها والبكاء الذي
 اضرَّ بها وقال لها ان كان ذلك عن امر حصل مني اعذر اليك
 منه وانت تعلمين اني لا اريد غير ما يرضيك عني ومعاذ الله
 ان اكون دنست في عشرتك او قصدت غير مسرتك فان كان
 ذلك لامر فرط مني ولم اعلمه اعذرت اليك منه وان كان من
 طبع لي كرهته نفسك بذلت غاية جهدي في التبعاد عنه فاماطت
 عن مكنون سرها الجلباب ونضت عن مستر ضميرها النقاب
 وقالت

المسامرة الخامسة
 محاورة

استغفر الله لي ولك واساله ان يصلح عملي وعملك وينجح املي
 واملك واقول لك الحق وامحضك الصدق ان البكاء الذي
 عراني والنحول الذي اعتراني ليس لك فيه سبب وانما هي امور
 جلبتها الى نفسي وخواطر اذهبت راحة عيشي وانسي فقال وكيف
 ذلك قالت نظرت لتقر حالنا وكثرة عيالنا فاسفت من ضيق
 عيشهم في حياتنا وخفت من سوء حالهم بعد ماتنا وذهلت عن

مشكور مستوجب الاجور ومن غرس الصبر اجنى الظفر والصبر
على الغصة ربما أدى الى الفرصه ومن فوض امره لمولاه كفي مؤنة
بلواه وعدم الرضا معادة للقضا ويتذكر قول شهاب الدين في
تهذيبه الجامع وتصنيفه النافع اذا لم يمش الزمان معك على ما
تريد فامش معه على ما يريد فان الانسان عبد الزمان الى غير
ذلك من المواعظ التي مرت به والحكم التي تلقاها ايام طلبه وعند
ذلك يرضى بحاله ويصبر على ابتلائه بكثرة عياله ولكن كان
اذا مر باسواق المدينة ورأى الفواكه على ارجائها صفت واصناف
الماكولات والمشروبات باكتافها احنت او دخل بيتاً من بيوت
جهلة الاغنياء والاوغاد الاغنياء ورأى ما لديهم من النعم والتوسع
في المشرب والمطعم تذكر عياله وفقره واضمحلاله وكانت زوجته
ايضاً بهذه الحالة الا انها كانت تبالغ في كتمان امرها وتحذر من
افشاء سرها خوفاً على تشويش خاطر زوجها كما كان هو كذلك
يكتتم امره ولا يبدي سره واذا لاح له منها امارات الضجر سألها
تطبيياً لمخاطرها عن اسباب ضجرتها فتعلل بان ذلك لامر حدث
بين اخيها وزوجنه او بينه وبين بعض قرابته فياخذ الكلام على
ظاهره ولا يدقق عليها خوفاً من ان تخبره بالحقيقة فيزيد تشويش
فكره بلا فائدة الى ان دخل عليها مرة فوجدها في بكاء ووله لم
يسبق في العادة لها وله فلم يسعه الاّ الاحاج عليها في طلب
الافصاح عن سبب بكائها ووجه حزنها وعنائها واقسم عليها

ويعلمها الكتابة فكتبت وحفظت القرآن وتعلمت من العقائد ما
تحتاج لمعرفة ثم سألته ان لا يكتف عن شئاً ما يعلمه فعلها
العلوم الادبية والفقه والحديث والتفسير الى غير ذلك من
المعقول والمنقول وهي مع ذلك مؤدية جميع ما يجب عليها من
حقوق الزوجية فكان اذا دخل المنزل كانت له احسن جليس
والطف انيس واذا خرج تفرغت لاشغالها وللمطالعة في مطولات
الكتب من التفسير والحديث والادب والفقه والاثار وقصص
المتقدمين والخبار حتى جارتها في كل مضار واخذت معه في
اودية العلم حيثما سار ولم تنزل سالكة طريق السداد حتى رزقهم
الله باربعة من الاولاد فتعطلت عن مساعدته في امور المعيشة
بسبب تربيتهم واشتغالها بخدمتهم لصغرهم وكثرتهم ومع هذا فكان
يرى ان نعم الله عنده واحساناته غمرته فكان دائم الشكر لمولاه
حامداً له على ما اولاه الا انه كان يرى ان ما يرد له من الجارية
والقرأة شيء قليل بالنسبة لكفاية العائلة لا يبرى لهم غليلا ولا
يروى لهم غليلا لانهم صاروا تسعة هو واخواته الثلاث واولاده
الاربعة وزوجه فيخشى الوقوع فيما فر منه والعود لما نزع عنه
ويتامل في الحكمة الالهية والقسمة الربانية من كثرة العيال وضيق
الحال ولا يجد لتفريج ما به من الضيق سبباً ولا للعلم باسرار الحكمة
الالهية مطلباً ولكنه كان لورعه وتقواه يفوض امره الى مولاه ويقول
مخاطباً لنفسه اذا كان بقسمة الله تجري الامور فالصبر عليها

المعامرة الرابعة

العيلة

قال الناقل فلما استقرت عنده وحلت بالمكان الذي
 اعده وجدها ذات ذكاء وبهاء راضية بما قسم الله لها تشكر علي
 القليل ولا تنسى الجميل فبلغ علم الدين بها مناه وحمد الله سبحانه
 علي ما اولاه حيث كفته المؤنة في تربية اخواته وتفرغ هو لطلب
 العلم وقراءة ختماته وكانت صاحبة فطنة تدبر بها منزلها وتحسن
 التصرف فيما عليها ولها وتعرف بعض صنائع كالحياطة والتطريز
 وكب الحرير وكما تيسر لها من ذلك تصرفه في لوازم المنزل
 من غير اسراف ولا تبذير ولما رأت ان اخوات زوجها لم يعرفن
 شيئاً من اللوازم المنزلية التي لا يستغني عن معرفتها النساء شمرت
 عن ساعد الجهد واخذت تعلمن جميع ما يلزمهن اذا تزوجن
 فاخذن في التعلم وصرن لها كبناتها فعملن بخدمة المنزل وتفرغت
 هي لصنائعها وكما تيسر تصرفه في مساعدة زوجها فحسن حاله
 وراق باله ومكتوا على هذه الحالة اياماً متطاولة وليالي متوالية
 لا يخطر لهم الهم ببال ولا يحدث بينهم قيل ولا قال ثم انه وجد
 عندها ميلاً لتعلم العلم فصار يلتقنها منه قواعد الدين شيئاً فشيئاً

غيرها لاعتيادها على السعة في بيت اهلها وربما كانت المساعدة
 التي تحصل منها لا تقابل بعض ما يجب لها خصوصاً وغالب
 من اراه من اغنياء مصر في هذا العصر لا يقوم علم الزوج عندهم
 مقام غناه بسبب جهلهم فربما قصد العالم الفقير بعضهم فردوه
 واستهزؤا به ولم يريدوه لان الانسان عدو ما جهله ومن جهل
 شيئاً عاداه وما زلت اثقل في مثل هذه الافكار والخواطر وانردد
 بين الموارد والمصادر فازداد بي التخيير وتشعبت علي طرق التخيير
 ووقعت من الحيرة في ليل بهيم ولم ادري في اي واد اهم فرجعت
 الى كتب الحديث والاخبار وما ورد عن السلف الصالح من
 الاثار فقرات ما ورد عن جابر رضي الله عنه قال قال لي
 رسول الله صلى الله عليه وسلم أتزوجت قلت نعم قال ابكراً
 ام ثيباً قلت ثيباً قال هلاً بكَراً تلاعبك وتلاعبها وامثال
 هذا الحديث فرجعت البكر على الثيب ثم قرأت ما رواه الامام
 احمد بن حنبل رحمه الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 قال اعظم النساء بركة ايسرهن مؤونة فقلت الفقيرة بالنسبة لحالي
 ايسر مؤونة وبالنسبة لعالي اكثر معونة واقرب للقناعة بقليل ما
 لدي وابعد عن الترفع والتعظيم علي فصمت النية على البكر
 الفقيرة بعد ان استخرت الله تعالى وكان لي صديق له اخت
 فقيرة بالغة اسمها ثقيمة فخطبتها منه فاجاب وسميت له ما تيسر من
 الصداق فرضي به وما عاب فاحضرت الشهود واولمت علي قدر

بعض المشايخ فاستشرت فاستخار واستشار وتبين له ان الزواج
 هو الصواب ثم طرأ له تحير اشد من الاول ولم يدري على ماذا
 يعول وهو انه هل يتزوج بفقيرة او غنية وهل الصواب ان
 تكون ثيبا او بكرًا قال فكتت ذا قلب معذب وعزم مذبذب
 لا اهتدي الى صواب ولا اميز بين التبر والتراب فنظرت في
 كتب الاداب وما قيل فيها من هذا الباب فرأيت لكل مزية
 وليست واحدة منها عما يحذر منه عرية لان البكر وان كانت درة
 محزونة وبيضة مكنونة لم يدنسها لامس ولا استغشاها لابس ولا
 مارسها عابث ولا وكسها طامث الا انها ابية العنان بطيئة
 الاذعان مؤنتها كثيرة ومعونتها يسيرة تقول انا اليس واجلس
 واطلب من يطلق ويحبس واما الثيب فهي وان كانت الصناعات
 المدبرة والفظنة المخبرة عجمالة الراكب وانشطة الحاطب الا انها
 اللباس المستبدل والوعاء المستعمل دابها كنت وكنت وظالما بغى
 علي فنصرت وشتان بين اليوم وامس واين القمر من الشمس
 وامثال هذا مما قرأته في الاسفار وطالعته من منشور الاخبار
 ومنظوم الاشعار ورايت ان الفقيرة وان كانت ترضى بالقليل
 وتقع باليسير الا ان ما يرد لي من الصدقات والحجرات وقرارة
 الحنات انما يكفي لاقواتنا على قدر اللازم فلا يفي بما يزيد لاجل
 الزوجة من اللوازم وان الغنية وان ساعدت زوجها في امر
 المعيشة الا ان لوازمها كثيرة ويجب لها من الحقوق ما لا يجب

المسامرة الثالثة
الزواج

ومضى على ذلك اربع سنوات يصرف نهاره في طلب العلم
 وليله في قرأة الختمات لكنه لصغر سن اخواته وعدم من يعولن
 ويقوم باصلاح شأنهن كان دائماً مشغول البال بهن فرغب في
 الزواج ليستريح فؤاده من جهتهن ويتفرغ لطلب العلم والسعي في
 تحصيل معيشتهم الا انه كان اذا تفكر في امر الصداق وكلفة
 الزفاف ونفقة الزوجة وما يتبع ذلك من حقوق الزوجية وفي
 أن ما يرد له في هذه الحالة لا يفي بذلك كله قلت رغبته
 وضعفت نيته واذا ذكر قوله تعالى (وما من دابة في الارض الا
 على الله رزقها) وقوله صلى الله عليه وسلم من تزوج يريد
 العفاف فحق على الله عونته) وقول عمر بن الخطاب اني لا تشعر
 من الشاب ليست له امرأة) كثرت في الزواج رغبته وقويت
 نيته وهكذا فكان يتردد بين الامرين ولا يكشف له وجه الصواب
 عن احد المحالين ثم انه قال في نفسه اين انت من الاستخارة وما
 ورد فيها كقوله صلى الله عليه وسلم اذا هم احدكم بامر فليستخر
 ربه فيه سبع مرات ثم لينظر الى الذي يسبق اليه قلبه فان فيه
 الخير) وقول بعض الصحابة كان صلى الله عليه وسلم يعلمنا
 الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن) فهلا استخرت او ذهبت الى

الوظائف وقد كان ثم ان علم الدين توجه باخواته الى مصر
 واستأجر لهن بيتاً في ربيع وانزلهن فيه وصار كل يوم ياتهن بمجرايته
 المرتبة له بالازهر ولكنها لما لم تكن كافية لقوت اربعة تضايق
 فقصده بعض مشاهير اهل الازهر وشرح لهم حاله وحال اخواته
 ولكونه محبباً اليهم ومقرّباً لديهم سعوا له في ترتيب جارية اخرى من
 المحلول ومع ذلك لم يكن فيما رتب له من المجرايتين كفاية لنفقته
 ونفقة اخواته فضاقت من ذلك صدره وتخير في تدبير المعيشة امره
 والجماته الضرورة الى القراءة مع اولاد الليالي في الختمات وغشيان
 منازل اهل الخير والصدقات وقدر في نفسه ان ذلك وان كان
 فيه هتك المرات الا ان الضرورات تبيح المحظورات فكان
 يذهب معهم في بعض الليالي لقراءة الختمات ويتبعهم في الذهاب
 الى بيوت الامراء لاختذ الصدقات فحصل له من ذلك بعض
 اتساع في احواله وتخلص بعض التخلص من ضيق الفقر
 واورحاله



الى معرفة علوم شتى غير التي حصلها وانه لا ينبغي ان تتعرض
للقضاء وفصل قضايا الناس الا من كان متبحراً في العلوم الشرعية
متضلعا من اصولها وفروعها واثقا من نفسه بعدم الميل عن اتباع
الحق في الحكم بين الخلق وانه لا يرضى ان يكون مسؤلاً يوم القيامة
عما يحكم به خصوصاً اذا كان بدون ثبوت فقد قال صلى الله
عليه وسلم لياتين على القاضي العدل يوم القيامة ساعة يتمنى ان
لم يقض بين اثنين في تمرة قط لاسيما وانه يخشى ان يغيره الطمع
وحب الدنيا فيقع في حبال الشهوات النفسية فيظلم ويحكم على
خلاف الطريقة الشرعية والعمر يتقضي ومتاع الدنيا قليل فالأولى
بالعقل ان يتمسك بعرى التقوى فانها السبب الأقوى وامثال
هذا الكلام فما كان يزيدهم تمعة الا رغبة فيه فلما لم يجد له مخلصاً
من ذلك قال لهم عما قريب ان شاء الله تعالى يتم المقصود ويهدينا
الله لما يريد وكان في المجلس رجل ضرير من اهل القرية يحفظ
القران ووظيفته ان يملا ميضأة الجامع وكانوا بعد موت الشيخ
جعلوه اماماً لهم في صلاتهم موقناً الى حضور علم الدين من الجامع
الازهر وتولية وظيفته والده فلما حضر وابى فرح الضرير بذلك
في نفسه بسبب انه يصير حينئذ مستقلاً بهذه الوظيفة ولحقاتها من
عقد نكاح وغيره وكان بعض مشايخ البلدييل الى الضرير فقالوا
الشيخ سويلم يعنون الضرير رجل من الصالحين وحملة كتاب الله
ونعرفه حق المعرفة فهو اولى من غيره فاتفقوا جميعاً على تقليده هذه

والخاص يشهد له بذلك العلماء والأكابر والخواص وقد حاز
جميع هذه الاوصاف الحميدة والمزايا الفاتحة الفريدة في مدة يسيرة
واعوام غير كثيرة لم يسافر فيها الى وطنه ولم يحن الى مستقر راسه
وعطنه الى ان جاءه الخبر بموت والديه ومن يعز فراقهم عليه فتوجه
الى البلد لياقي باخواته الى مصر وكن ثلاثا من البنات خلفن ابوه
بعد سفره الى مصر فاحضرهن معه وقد باع كل ما تركه ابوه
على اهل البلد وكان شيئاً قليلاً وذلك بعض اعنز وحمارة وانية
فخار وشيء يسير من اثاث الدار فبلغ ثمن ذلك كله نحو اربعمائة
قرش واشترى منه ما يحتاجه من الزاد ولوازم السفر وفي مدة
اقامته في البلدة اجتمع عليه مشائخها ومشادوها والجيران وتكلموا
معه ان يقيم في وظيفة ابيه اماماً بجامعهم فشكر فضلهم وتحنى عن
ذلك قائلاً اني احب ان اتم دراسة العلم وبعد ذلك ان شاء الله
تعالى اعود لبلدتي ومقر راسي فقالوا له جميعاً ان الذي حصلته
انت من العلم الان اكثر مما كان يعلمه ابوك فقد درست النحو
والقته وغيرها وبرعت في علوم كثيرة كما سمعناه من الناس كثيراً
فضلاً عن حفظ القرآن وحسن تلاوته وكان ابوك لا يحسن غير
تلاوة القرآن وشيء من العلم على قدر ما يلزم للامامة وعقد النكاح
بل انت الان فيك كفاية لان تتولى نيابة القضاء في القرية فلو
بقيت عندها توجهنا بك الى قاضي الولاية وسعينا في توليتك نيابة
القضاء في البلد والحواليه فاني واعنذر لم بان القضاء يحتاج

عليه ورعاية شأنه والعناية بأمره وإرشاده الى سواء السبيل في
 امر الطلب والتحصيل وترجاه كثيراً في ذلك وذكر له ما بينه
 وبين والده من المودة الاكيدة قبل الشيخ رجاءه وامر علم الدين
 بحضور الدروس في اوقاتها وبين له سبيل التحصيل ونهاه عن
 الكسل والتعطيل فصار الولد من وقتئذ ملازماً للدروس طول
 نهاره واذا جاء الليل ذهب الى بيته واقام غالب ليله يطالع
 الدروس المستقبلية ويتذكر الدروس الماضية ويحيي بعض الليل
 في تلاوة القرآن فما مضى عليه الا قليل من سنين حتى بلغ في
 علوم اللغة والنحو والصرف والعروض وفروع الفقه مبلغاً لا
 يصل اليه غيره في سنين كثيرة ثم اخذ يتعلم علوم البلاغة
 والاصول والتفسير والحديث وهكذا كان يتقل من فن الى اخر
 ومن درجة الى ما فوقها حتى برع في العلوم الثقلية والعقلية وصار
 يشار اليه بأطراف البنان ويضرب به المثل بين الاقران وما
 ذاك الا بدعاء والديه ورضى مشايخه واخوانه عنه وكثرة
 اجتهاده ونور بصيرته وقوة فؤاده وامثاله امر مشايخه واخوانه
 وحرصه على كل ما سمعه من مشايخ زمانه وكان من ذوي
 الالباب كامل الاخلاق والاداب اذا قعد في مجلس لا يتكلم فيما
 لا يعنيه واذا سئل احسن الجواب واصاب الصواب محباً لمجالسة
 اللطفاء ومجانسة الادياء حميد المحصل حسن الصفات والافعال
 شاعراً اديباً فصيح اللسان لبيباً محمود المخلوق والمخلق عند العام

الولد بذلك وقرناظره وطاب خاطره حتى انتقضت ايام السفر
ودخلوا مصر آمنين فاخذ ذلك الرجل الى منزله واكرمه فبات
عنده تلك الليلة وكان من جملة ما جرى بينهما من المحادثة ان
حكى علم الدين للرجل ان معه مكتوباً لبعض اصدقاء والده
وعرفه اسمه فوعده الرجل بان يده عليه فلما اصبح الصباح قام معه
وتوجه به الى صاحب والده وسلمه المكتوب فلما قرأه فرح بالولد
لان بينه وبين ابيه مودة عظيمة وصداقة قديمة فرحب به وتعهد
له بان يكون له كوالده وامره بان يخبره بكل ما يحتاج اليه ليقتضيه
له وفاء بحق صحبة والده لانه من اعز الناس عليه فشكره علم
الدين على معرفته وسأله ان يرشده الى كل ما يلزمه لانه مأمور
من والده ان لا يخرج عن رأيه وطاعته فقال له لا تعجل ففي
غد ان شاء الله اتوجه معك واسلمك لاحد الاساتذة واوصيه
بك واتكلم معه بما تعود منافعه عليك وانتقا على ذلك ثم ان
الرجل صديق والده خيره بين الاقامة في منزله او في مكان
قريب من المسجد فاختر الاقامة في مكان قريب من المسجد
ليسهل عليه حضور مجالس العلم في اول اوقاتها فاستحسن صاحب
والده رايه ورأى بذلك من الامارات على مزيد اجتهاده ورغبته
في تحصيل العلم وحرصه عليه ولما جاء الغد مضى معه الى الجامع
الازهر وجمعه على شيخ من مشاهير علمائه كان بينه وبينه صداقة
ووداد وله فيه حسن اعتقاد فوصى به ورغب اليه في التفاء نظره

المسامرة الثانية
سفر وعودة

فكان في مبدء سفره تارة يبكي لفراق اهله وبلده ولم يكن فارقه من قبل وتارة يفرح لميل قلبه الى العلم والرغبة في تحصيله لانه كان حافظاً للقرآن وكان يرى في نفسه ان فيه استعداداً لاتساع دائرة معارفه ولذلك كان دائماً يطلب من والده ان يرسله لطلب العلم حتى تم هذا الامر وكان احياناً يتكدر خاطره بسبب ركوب البحر وما يخشى من اخطاره لانه لم تكن سبقت له عادة به الا انه كان يتاسى بغيره ممن كان معه في المركب ويتسلى باخلاقه بهم والمجادثة معهم في اخبار مدينة القاهرة وما فيها من الغرائب فصار ينجلي ذلك الحزن عنه شيئاً فشيئاً حتى غلب عليه الفرح وطاب خاطره وانشرح خصوصاً وقد كان بالمركب في ضمن المسافرين رجل صالح لبيب من اهل القاهرة كان قد نزل الى الريف لتقضاء بعض مصالح فقضاها ورجع وكان ذلك الرجل صاحب معرفة وتجربة يعلم من احوال الناس كثيراً لكثرة ممارسته لهم واخلاقه بهم فاتخذ علم الدين معه وصار الرجل يصف له حال المدينة واهلها ويقفه بما يلزمه في الاقامة بها ويبين له كيف يكون سيره مع الناس اذا وصل و حاله اذا اخلط باهل الازهر واتصل ووعده انه بعد الوصول الى مصر يزوره ورخص له في التردد عليه اي وقت احب ووصف له منزله وحاته فتسلى

تحت عد ولهذا قد استخرتُ الله تعالى وصممت النية على ارسال
ولدي هذا الى محروسة القاهرة لطلب العلم وتحصيله في الجامع
الازهر وتجده فيه لينتفع به مدة دهره الى اخر عمره وفي يوم حشره
وقد هيئت جميع ما يلزم لسفره فلا تحزنوا لفرقه وادعوا له عسى
ان يفتح الله عليه ويحسن بتنوير بصيرته اليه فابتهلوا جميعاً بالدعاء
له وان يفتح الله عليه ويتقبل عمله وكانت والدته من ذوات
الحسب مصونة العرض اصيلة النسب قد اعندت عليها الايام
وصدعتها الامراض والاسقام فكف بصرها واخذل امرها فرفعت
راسها الى السماء وطلبت من الله القبول ونيل المامل وان يرده
بلده في صحة وسلامة مجملًا باوصاف اهل الكمال متخليًا بحال
ارباب الجلال لينتفع به اهل بلده وليكون ردا لاقاربه وعشيرته
وتضرعت الى الله بصوت خاشع وقلب خاضع وامن الشيخ وبقية
الحاضرين ثم انهم ودعوا علم الدين وهم في نحيب وبكاء من
حرقة الفرقة وبعد الشقة ومشوا معه الى ان انزلوه في مركب كان
متوجهًا الى مدينة مصر واوصوا عليه ارباب المركب ورجعوا الى
منزلم بعد ان قبلوه وودعوه وقبل هو ايضًا يدي والده ووالدته
وسار على بركة الله تعالى



تسالون به والارحام وبقوله تعالى وبالوالدين احساناً ولكن
مقصودي هذا لا يتم الا بطلبه للعلم فانه الكاشف للبصيرة والمنور
للسريرة والمأجى للجهل والمبلغ صاحبه درجة اهل الفضل وهو
المؤنس في الوحشه والمحدث في الخلوه والمجلس في الوحدة
والصاحب في الغربة والدليل على السراء والمعين على الضراء
والزينة عند الاخلاء والسلاج على الاعداء وبالعلم يبلغ العبد
منازل الاخيار في الدرجات العلى ومجالسة الملوك والكبار في
الدنيا ومرافقة الابرار في الآخرة ولذا قال الشاعر

لا تدخر غير العلو * م فانها نعم الذخائر
فالمرء لو ربح البقاء * مع الجهالة كان خاسر
قال الله تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا
يعلمون) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الدنيا
والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل ثم انه التفت الى
ولده في الآخر وخاطبه بقول الشاعر
العلم انفس شيء انت ذاخره

من يدرس العلم لم تدرس مفاخره

اقبل على العلم واستقبل فوائده

فاول العلم اقبال وآخره

ثم قال لمن عنده هذه قطرة من بحر ونقطة من قطر وللعلم
من المزايا الفاخرة في الدنيا والآخرة ما لا يحاط بمجد ولا يدخل

الوظيفة العاشرة

ان يكون قصد المتعلم التحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة والتقرب الى الله عز وجل والتوصل الى تحصيل المنفعة المحمودة لنفسه باكمل الوجوه واعظيها واحسن الطرق واسلمها والنفع لاخوانه واهل وطنه وسائر عباد الله تعالى فان احب الناس الى الله انفعهم لعباده ولا يقصد بتحصيله المفاخرة والمباهاة والمحاسدة للناس ومزاحمة ارباب الوظائف في وظائفهم ومضايقتهم في مناصبهم فان هذه المقاصد ذميمة وطلب العلم وان كان ممدوحاً في نفسه الا ان من قصده بنية ذميمة كان مذموماً بالنسبة لهُ ففعل الصلاة مثلاً ممدوح في نفسه وطاعة الله سبحانه وقربة ولكن اذا اراده شخص بنية الرياء والسمعة والفخر كان مذموماً بالنسبة لذلك الشخص وهكذا العلم فينبغي لطالبه ان يحسن نيته ويخلص طويته ويقصد وجه الله وطريق الخير ينفعه الله ويرفعه في الحال والمآل ويبلغه غاية الكمال

ثم ان الشيخ بعد ان اتم نصيخته وانهى وصيته جمع عشيرته الاقربين وفيهم زوجه والدة علم الدين وقال لهم وهو يبكي اني قضيت جميع عمري في اداء ما فرضه الشرع عليّ في حق الوالدين والاقارب ومن اتى اليّ وقد منّ الله تعالى عليّ بولدي هذا في اخر عمري واود ان يخلفني ويكون لكم بفضل الله عوناً من بعدي وجاهاً قائماً بحق صلة رحمه عاملاً بامر الله العام واتقوا الله الذي

كالمكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله
 فغنم المقاتل ومنهم المدد ومنهم الذي يجلب لهم المؤنة والذي
 يسقيهم الماء ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعدها ولا ينفك احد
 منهم عن اجر اذا كانت نيته حسنة وكذلك العلماء قال الله
 تعالى (يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات)
 وقال تعالى (هم درجات عند ربهم) والفضيلة نسبية وكون
 السلطان مثلاً اعظم من وزيره لا يدل على حقارة الوزير في ذاته
 وكذا من دون الوزير وهكذا وبالجملة فمن يعمل مثقال ذرة
 خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ومن قصد وجه الله
 وسبيل الخير بالعلم اي علم كان نفعه ورفعته لا محالة وينبغي ان
 لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين اصحابه فيه ولا
 بخطاء واحد او احاد فيه ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل فتتري
 جماعة تركوا النظر في العقليات والفتويات متعللين فيها بانها لو
 كان لها اصل لادركه اربابها وتري طائفة يعتقدون بظلان
 الطب لخطاء شاهده من طيبين وطائفة اعتقدوا صحة التنجيم
 لصواب اتفق لواحد وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطاء اتفق لآخر
 والكل خطاء بل ينبغي ان يعرف الشئ في نفسه فلا كل علم
 يستقل بالاحاطة به كل شخص ولذا قال علي رضي الله عنه
 لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرفه اهله

راعى ذلك الترتيب والتدرج وذلك كترتب علم المعاني على النحو
وعلم الهندسة على الحساب فمن خاض في فن وحاول تحصيله
قبل ان يعرف الذي قبله فقد أحبط عمله وإضاع وقته في
الباطل ولم يخرج بطائل قال الله تعالى (الذين اتيناهم الكتاب
يتلونه حق تلاوته) اي لا يجاوزون فناً حتى يحكموه علماً وعملاً
وينبغي ان يكون قصده في كل علم يتخره الترقى الى ما فوقه

الوظيفة التاسعة

ان يعرف السبب الذي يدرك به اشرف العلوم وذلك يراد
به شيان احدهما شرف الثمرة والثاني وثاقه الدليل فعلم الحساب
وعلم الطب مثلاً اذا نسبتها لبعضهما وجدت علم الطب اشرف
باعتبار ثمرته فان ثمرته حفظ البدن وثمره الحساب حفظ المال
ووجدت علم الحساب اشرف باعتبار قوة ادلته فانها يقينية
وملاحظة الثمرة اولى ولهذا كان الطب اشرف وان كان كثير منه
بالتحمين والحساب مبني على اليقين وعلى هذا فاشرف العلوم علم
الدين لان ثمرته حفظ الارواح ونجاتها من الويال الابدي والشقاء
السرمدى ولا ينبغي ان يفهم من هذا الاطراء والمدح لعلم الدين ذم
غيره من العلوم ولا ينبغي ان ينظر اليها بعين الحتمارة كعلم النحو واللغة
وغيرها من الفنون المدوحة ولا يظن من تعظيم علم الدين وتغنيه
تهجين غيره من العلوم وتسيبها فان المتكفلين بالعلوم والقائمين عليها

انواعه الا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ثم ان ساعده
 العمر طلب التجرف فيه والا اشغل بالاهم منه واستوفاه وتطرف من
 البقية فان العلوم متفاوتة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في
 الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس
 اعداء ما جهلوا قال تعالى (واذ لم يتدوا به فسبقولون هذا فك
 قديم) وقال الشاعر

ومن يك ذاق مر مريض * يجد مرأ به الماء الزلالا

الوظيفة السابعة

ان لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب
 ويبتدىء بالاهم فان العمر اذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً
 فالحزم ان ياخذ من كل شيء احسنه فقد قال علي رضي الله
 عنه وكرم وجهه العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من كل شيء
 احسنه وانثا يقول

ما حوى العلم جميعاً احد * لا ولو مارسته الف سنة
 انما العلم بعيد غوره * فخذوا من كل علم احسنه

الوظيفة الثامنة

ان لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله فان
 العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق الى بعض والموفق من

التي اليه بحسن الاصغاء والمضراعة والشكر والفرح وقبول المنة
 فيكون المتعلم لمعلمه كارض ميتة نالت مطراً غزيراً فشربت بجميع
 اجزائها واذنعت بالكلية لقبوله وقد قال علي رضي الله عنه من
 حق العالم الا تكثر عليه السؤال ولا تعته في الجواب ولا تلح عليه
 اذا كل ولا تاخذ بثوبه اذا نهض ولا تفشي له سرّاً ولا تغتابن
 احداً عنده ولا تطلبن عثرته وان ذل قبلت معذرتة وعليك ان
 توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ امر الله تعالى وان كانت له حاجة
 سبتت القوم الى خدمته

الوظيفة الخامسة

ان يجتري الخائض في العلم في مبدء الامر من الاصغاء الى
 اختلاف الناس سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا او من
 علوم الآخرة فان ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه
 من الادراك والاطلاع بل ينبغي ان يتقن اولاً الطريقة الواحدة
 الحميدة المرضية عند استاذه ثم بعد ذلك يصغي الى المذاهب
 والشبه واختلاف الآراء فان لم يكن استاذه مستقلاً باختيار راي
 واحد وانما عاداته نقل المذاهب وما قيل فيها على اختلافها فليحذر
 منه فان اضلاله اكثر من ارشاده فلا يصلح الاعى لقود العميان
 وارشادهم ومن هذه حاله يعد في عمى الحيرة وتبه الجهل

الوظيفة السادسة

ان لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحموده ولا نوعاً من

الالباب وقد قال الله سبحانه انما يوفي الصابرون اجرهم بغير حساب

الوظيفة الرابعة

ان لا يتكبر على العلم ولا يتامر على المعلم بل يلقي اليه زمام امره في التعليم ويدعن لتصحيحه اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق وينبغي ان يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس من اخلاق المؤمن التملق الا في طلب العلم فلا ينبغي لطالب العلم ان يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم ان يستنكف من الاستفادة من يراه خامل الذكر عديم الشهرة ولا يرغب في التعلم الا من المشهورين واصحاب المظاهر وهو عين الحماقة فان العلم سبب النجاة والسعادة ومن يطلب مهرباً من سبع ضارٍ يفترسه لم يفرق بين ان يرشده الى طريق النجاة رجل مشهور او خامل وضرر الجاهل اشد من ضرر السبع والحكمة ضالة المؤمن يغتنيها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها اليه كائناً من كان فلذلك قيل العلم حرب للفتى المتعالي * كالسيل حرب للكان العالي فلا ينال العلم الا بالتواضع والثناء السمع قال الله تعالى (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او اتقى السمع وهو شهيد) ومعنى كونه ذا قلب ان يكون قابلاً للعلم فيها ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقى السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كلما

ان يداوم في تحصيل العلم على الاجتهاد والمجد ويصبر على
المشقة والكد ويبدل غاية الوسع والجهد ويطرح الكسل والملل
ولا يقطع الامل ولا يترك العمل ولو طال الامد وبعد المدد فقد
حكى عن بعض المشائخ انه اتي في اول امره الى الجامع الازهر
لطلب العلم فمكث فيه مدة لا يصل الى فائدة ولا يحصل على
عائدة حتى كلت قوته وفترت همته وادته الحال الى قطع امله
وعزم على ترك الطلب والرجوع الى بلده واهله فقام ليخرج من
الجامع تاركاً للتحصيل قاصداً للرحيل فلما قرب من بابه اتفق انه
راى دويبة من حشرات الارض تحاول الصعود في محل من
حيطان الجامع وكان المحل صعب المرتقى عليها غسر الصعود
بالنسبة اليها فصعدت مقداراً يسيراً ثم زلقت ارجلها فوقعت ثم
قامت وصعدت مرة ثانية فوصلت الى ارفع ما كانت قد وصلت
اليه اولاً ووقعت ولم تنزل كذلك تقع وترتفع مراراً حتى وصلت
الى اعلى المكان حيث ارادت فقال في نفسه والله لا اكون اعجز من
هذه الدويبة الضعيفة فهذه من الله لي اشارة لطيفة ولحمة ظريفة
فانها لما صبرت على مداومة العمل ظفرت بغاية الامل ثم انه عاد
الى الطلب والتحصيل بنشاط جديد وهمة قوية وعزيمة ثابتة
ونفس صابرة فما زال يجتهد ويكد الى ان صار وحيد
اوانه وفريد اقرانه وشيخ الاسلام في زمانه وصار حديثه عبرة لاولي

فانه ان لم يفعل كافعالم نسب الى احوالهم ثم ان الشيخ رحمه الله
 ختم وصيته لولده علم الدين بتعليمه وظائف طالب العلم وما
 يلزمه من الاداب التي يتوقف عليها كمال الوصول الى المطلوب
 والحصول على تمام المرغوب فقال اعلم يا بني ان آداب المتعلم
 كثيرة يطول تعداد تفاصيلها ولكن اخصرها لك في عشر جل
 تلقتها عن المشايخ تكون لها كالاصول يتفرع عنها ما عداها

الوظيفة الاولى

تقوم النفس من رذائل الاخلاق ومذموم الاوصاف
 كالغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر وامثالها فكلها من
 موانع التحصيل وقواطع السبيل

الوظيفة الثانية

ان يقلل المتعلم علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الامل
 والوطن فان العلائق صارفة وشاغلة وما جعل الله لرجل من
 قلوبين في جوفه ومهما توزعت الفكرة فصرت عن ادراك الحقائق
 ولذلك قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك والفكرة
 المتوزعة على امور متفرقة كجدول تفرق! ماؤه فنشفت الارض
 بعضه واخطفت الحرارة بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ
 الزرع

لم شهرة بفعل الحير وحسن السير فقد قال العلماء اصطف
 من الاخوان ذا الدين والمحسب والراي والادب فانه رده لك
 عند حاجتك وركن عند نائبتك وانس عند وحشتك وزين
 عند عافيتك وقال الشاعر

تخير من الاخوان كل ابن حرة

يسرك عند النائبات بلاؤه

وقارن اذا قارنت حراً فانما

يزين ويزري بالفتي قرناؤه

وقال عدي بن زيد

اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم

ولا تصحب الاردي فتردى مع الردي

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدي

ويحكى ان جماعة من اللصوص وقع القبض عليهم فاخذوا
 الى السلطان فامر بقتلهم جميعاً فتقدم احدهم وقال انا لست منهم
 وانما كنت مغنياً لم ولم افعال افعالهم فقال السلطان فغن حتى
 نسمع فلم يجر على لسانه غير البيتين المذكورين لعدي بن زيد
 فغنى بهما فلما بلغ الى قوله (فكل قرين بالمقارن يقتدي) قال
 السلطان سبحان من انطقك وانا اول من صدقك ثم امر به
 فقتل معهم وهذه عاقبة من يصاحب الاشرار ويخالط التجار

قد ينفع الادب الاحداث في صغر

وليس ينفع بعد الكبرة الادب

ان الغصون اذا قومتها اعندلت

ولن تلين اذا قومتها الخشب

فوقع في نفسه ان يوجهه الى الجامع الازهر لما يعرفه في تلك البقعة الطاهرة من المحاسن الزاهرة والبركات الظاهرة فانه منبع الفضائل ومجمع الافاضل وموضع حسن التعلم والتعليم ومرجع طلاب العلم من الاقاليم فاراد ان يكمل فيه ولده دراسة العلم الشريف بملازمة دروس عظمائه من افاضل علمائه لينال ببركتهم الارب ويكتسب بصحبته العلم والادب وكان الشيخ قد تقارب عمره ولم يكن له ولد غيره فاستخار الله تعالى على هذه النية فانشرح لها صدره ومال خاطره فركن اليها وصم عليها واعد لولده ما يلزم من الزاد والذخيرة وان كانت يسيرة وكتب معه مكتوباً الى صديق له في مصر القاهرة من مشاهير تجارها واعيان مشاهيرها يرجوه ان يكون لولده في جميع مهماته كالوالد وان يكون واسطة في اجتماعه على الصالحين من العلماء الاماجد ويقربه منهم ليسمحوا بهتذييه ويبدلوا النصيحة في تاديبه واوصى ولده بالطاعة والامثال لمعلمه فيما يعود نفعه عليه وان يصرف جميع اوقاته في تحصيل ما يرشدونه اليه وان يجنب المناهي واماكن الملاهي وان يكون في الغدوة والرواح مع اهل الصلاح ومن



بِكَ اسْتَعِين

المعامرة الاولى

العصر

حكى انه كان بقرية من قرى مصر فيما سلف من العصر
رجل من فقهاء الريف كان يصلي بالناس في جامع القرية
ويعلم اطفالهم كتاب الله عز وجل وكان من اهل الفضل
والصلاح رزقه الله على الكبر بولد سماه علم الدين تفاقولا بان
يكون من اعلام العلماء المجتهدين ثم انه رباه في كتابه وادبه
بحسن آدابه الى ان ترعرع الغلام وحفظ عن والده كتاب الله
العظيم وبعض متون صغيرة ومبادئ فنون يسيرة فرأى فيه
والده اثار الذكاء ومخائل النجابة وحسن الترجمة ومحبة العلم
والقبول لما يلقي عليه والقابلية لما يساق اليه فاراد اكمال تربيته
وتعليمه في اوان شببته حتى يلحق برتبة اكابر العلماء فقد قال
الحكماء علما اولادكم صغارا تتفعلوا بهم كبارا وقابلوا من لم يتعلم
في صغره لم يتقدم في كبره وقال الشاعر

ما اطلع عليه من هذا الكتاب وليس بالقليل فهدب معانيه وشذب مبادئه
وقرب مجانيه فحاء كتاباً جامعاً اشتمل على جمل شتى من غرر الفوائد المنفرقة في
كثير من الكتب العربية والافرنجية في العلوم الشرعية والفنون الصناعية
واسرار الخليفة وغرائب المخاوف وعجائب البر والبحر وما نقلت نوع الانسان
فيه من الاطوار والادوار في الزمن الفابر وما هو عليه في الوقت الحاضر
وما طراً عليه من تقدم وتقهتر وضفاء وتكدر وراحة وهناء وبونس وعناء
الى غير ذلك من الشؤون بتقلب الدهور وتصرف الامور مع الاستكثار من
المقابلة والمقارنة بين احواله وعادانه في الاوقات المتفاوتة والانحاء المتباينة
ليطلع مطالعه على ما يشهد خاطره وينبه فريجه ويستنهض فكرته ويدرجه
لاعمال عقله وامعان نظره واستعمال بصر بصيرته في نقد الامور وسبرها وتدبرها
ومقارنتها والموازنة بينها والتمييز بين الخير والشر والنفع والضر وتخير النافع
والانفع والحسن والاحسن منها على نمط يسوعن السامة ولا يميل الى الملالاة
مفرغاً في قالب سياحة شيخ عالم مصري وسم بعلم الدين مع رجل انكليزي
كلاماً هيان بن بيان نظهما سبط الحديث لتاتي المقارنة بين الاحوال المشرقية
والاوروبوية

وكل ما وقع تحت نظر الناظر وقرع السمع وشغل البال وحرك قوة
من قوى النفس مدة السياحة يحج الناظر في الكتاب مستوفي البيان مشبعاً
فيه الكلام بحسب المقام وقد قسمته الى مسامرات يتنقل فيها القارئ تنقل المسافر
ويجد فيها فكاهة المسامر كما يتنفع به المعلم والمتعلم فيكون للاول مفكراً منجهاً
وللثاني معلماً مفقها والله المستول ان يعم النفع بهذا الكتاب وان يجعله
ذخيرة عند ليوم المآب



مثلاً ينتفع بخيراتها ويحني ثمراتها فيترتب عليه آزاء ذلك ان يقوم بخدمتها وإدائها ما يلزمها وينفعها ويصلح شأنها من نقليب ونقصيب وتمييد وتسييد وري وطني ونحو ذلك فاذا فعل ما ذكر فقد أدى ما عليه من جهتها في نظير ما انتفع به منها وبذلك تصلح الارض وتحسن وتعلو قيمتها فتدرّ عليه خيراتها وتنمو حاصلاتها فتعود عليه بنفع اخر وترتد خيرها وهلم جرّاً

هذا واني لمعترف بفضل هذا الوطن العزيز عليّ فقد نشأت في ظله وتقلبت في مهك وتربيت في حجر كفالته وتعهدت حتى صرت من ابناؤه المعدودين ورجاله المعروفين وتمتعت صغيراً وكبيراً بكثير من خيراته وثمراته ولا ازال متنعماً بطيباته فاجدني وان استوفيت المجهود وقضيت العمر في خدمته لم اقم بعشر معشار ما عليّ من واجباته وحقوقه ولكن عرفاني لذلك واعترافي به لا يعني من بذل جهد المقل والانتهاه لغاية الاستطاعة ولهذا التزمت في كل ما تقلدت من الاعمال وجميع ما تقلبت فيه من الاحوال ان اخدم وطني بكل ما ناله يدي وبلغه امكاني ما اراه يعود عليه بالفائدة والنفعة قل او جل كالاسمي في استكثار المكتاب والمدارس وتعميم التربية والتعليم ونشر الكتب المفيدة اما بالاشتغال في تأليفها بنفسي او بالحث والتحريرض عليها لمن ارى فيه اهلية القيام بها

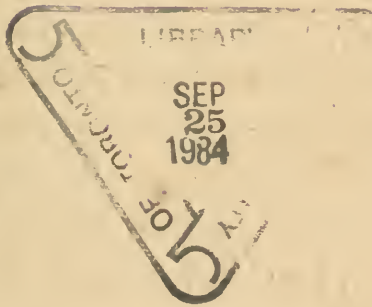
وقد رأيت النفوس كثيراً ما تميل الى السبر والنقص وملح الكلام بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة فقد تعرض عنها في كثير من الاحيان لا سيما عند السآمة والملال من كثرة الاشتغال وفي اوقات عدم خلو البال فجداني هذا ايام نظارتي لديوان المعارف الى عمل كتاب اضمنه كثيراً من النوائد في اسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها الى مطالعتها ويرغب فيها ورغبته في ما كان من هذا القليل فيجد في طريقه تلك النوائد ينالها عنواً بلا عناء حرصاً على تعميم الفائدة وبث المنفعة

فشرعت في جمع هذا الكتاب مستمداً من عناية الله مستعيناً في تهذيب عبارته وتحسين اشارته ببعض جهابذة الاساتذة لا سيما العالم الفاضل السيد الاجل عبدالله باشا فكري وكيل ديوان المعارف فانه صرف عنايته الى تنقيح

الكامل وصلنا اليها ولم تكن نشأنا عليها فترتب علينا ان نربي غيرنا حتى
يصلوا الى نحو ذلك ثم هم يربون غيرهم وهكذا ومن اعظم ما نرى انفسنا
مدينين له مطالبين من جهته مغرورين بحقوقه المقدسة هذا الوطن
الحليل الذي نشأنا به وعشنا فوق ارضه وتحت سائه ونعشنا بهوائه وروينا
بهائه واغندينا بنباته وحيوانه وانفعنا بسائر اجزائه وهو في كل آن يدنا
وبفيدنا ويعطينا ويزيدنا كما كان صنيعه مع ابائنا واجدادنا السابقين
وكذلك يكون شأنه مع ابنائنا واحفادنا اللاحقين فلزمنا ان نندره حق
قدره ونأتي على اخر جهدنا واستطاعتنا في منفعته وخيره ولا شيء انفع له
واجاب للخير والبركة اليه من تعليم ابائنا وبت المعارف والفنون النافعة
فيهم حتى يعرفوا حقوقه ويكونوا يداً واحدة في نفعه وخدمته وايصاله الى غاية
ما يمكن ان يصل اليه من الغبطة والسعادة والرفعة وعلو المكانة وبذلك
تزداد خيراته وبركاته عليهم وعلى نسلهم وعقبهم وخلفهم من بعدهم وهذا لا
يكون الا بالعلم والمعرفة وحسن التربية فان الجاهل لا يحسن نفع نفسه
فضلاً عن نفع غيره لانه لا يميز بين المنفعة والمضرة ولو عرف المنفعة لا
يعرف الطرق الموصلة اليها ولو عرف لا يهتدي لاحسنها واقر بها للقصود
واسلمها من الآفات والمخدور بل طال ما اراد ان ينفع فضر وطلب الخير
فاجتنب الشر فان الجاهل اعى ولو كان بصيراً فهو يتخبط في ظلمات الغي
والخيرة لا يبصر الحقيقة ولا يهتدي الى الصواب ولا يدري حاله وما عليه
ولا يعلم حقوق نفسه ولا يعرف حقوق غيره وان وقع على الغرض فبالصدفة
والاتفاق رمية من غير رام وصاحب الفضل والمعرفة يسير في اعماله مستهتراً
بصباح علمه فيميز الخير من الشر والملح من القبيح ويرى الصواب واخطأ فيقتصد
ونجح الحق نيراً فيسلكه ويعرف قدر نفسه وغيره وماله على غيره وما لغيره
عليه ويرى حقوق وطنه فيأخذ نفسه بقضائها وحسن القيام بها عارفاً ان نفعه
لوطنه مع كونه حقاً بفضيه ودينياً بؤديه انما هو في الحقيقة نفع لنفسه لما لا رية
فيه عندك من ان خير بلاده وخصبها وبركتها وتقدمها ورفعة شأنها كل
ذلك فائدة له وعكسه بعكسه فلذا كان نفع وطنه نفع نفسه كصاحب الارض

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مصور الأكوان ومدبرها ومقدر الأحوال ومسيرها وصلى الله على سيدنا محمد شمس الضحى ونور الهدى وعلى اله وصحبه مهراج الدجى وكل من بنورهم اهتدى وبهداهم اقتدى وسلم تسليماً كثيراً دائماً وأبداً وبعد فمن نظر في هذا العالم وسير أحواله وتدبر قوانينه التي فطر عليها الخالق جل اسمه بقدرته ودبرها بحكمته وجد بين أفراد كل نوع من أنواعه وبين كل نوع وغيره من العالم وكل جنس وآخر من اجناسه ارتباطاً تاماً يستدعيه كمال نظامه كما انه يجد هذا الارتباط بين العالم السفلي والعالم العلوي ايضاً الا ترى ان الشمس تشرق على الارض بانوارها فتنبث اشعتها في انحاءها واجزائها فينفضل بواسطة الحرارة بخار يرتفع ليلتقي على الهباء فينعقد سحباً في جو السماء تثيره الرياح فتسيره الى حيث شاء الله من الاماكن الناصية والدانية فيترامى ويسقط على الارض ماء يخرج به الارض انواع النبات والثروات رزقاً للعباد كما قال الله سبحانه وجعلنا سراجاً وهاجماً وانزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً لنخرج به حياً ونباتاً وجنات النافاث ثم يرى ان كل مخلوق حصل على شيء من هذا العالم ايا كان ما ينزل من السماء او يخرج من الارض صار ذلك الشيء اشبه بدين في ذمته مجبور على وفائه قضت عليه المحكم الازلية والاحكام العلية بتعويضه وادائه بعد حين الى الارض او السماء بواسطة التحليل والتكوين المتبادلين المتعادلين لاستمرار النظام وبقاء هذا الكون الى ان يشاء الله فاذا علمنا ذلك في الامور الفطرية والاحوال القهريه ناسب ان نراعيه كذلك في احوالنا الارادية وافعالنا الاختيارية فكل خير حصلنا عليه في هذه الحياه الزمنا انفسنا القيام بتعويضه ومقابلته بالمجهد على قدر الامكان وهل جزاء الاحسان الا الاحسان مثلاً نحن قد تربينا في هذا الوجود حتى صرنا على حالة من احوال



DT
70
A597
1882
v.1



'Alam

عَلَمُ الدِّينِ

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقاً

الجزء الاول

طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨٢





**PLEASE DO NOT REMOVE
CARDS OR SLIPS FROM THIS POCKET**

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

